واحة الكتب

"نماذج من أهم المؤلفات العالمية"

أحمد السعداوى

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

واحـــة الكـــتب

نماذج من أهم المؤلفات العالمية

أحمد السعداوي

الجزء الأول

مقدمة..

مقدمة

بين إبحار وتبحر في عوالم الكلمات والأفكار المتواترة من أرجاء العالم، قصيّه ودانيه، يرصد الكتاب نماذج من الفكر البشري الذي عكسته آراء وتجارب أشخاص من ذوي الخبرة والمكانة في عالمنا المعاصر.

ولنسب الفضل إلى أصحابه، يرجع الأصل في محتويات هذا الكتاب إلى الجهد الضخم الذي تصدى له مشروع كلمة للترجمة، الصادر عن دائرة الثقافة والسياحة في أبوظبي في دولة الإمارات العربية المتحدة.

واستطاع المشروع منذ انطلاقه قبل عدة سنوات تحقيق هدفه في إحياء الترجمة في عالمنا العربي، وتقديم حزمة من أروع الإبداعات البشرية التي بلغ أصحابها شأوًا عظيمًا في مختلف العلوم والمجالات، جاوزت الألف كتاب في مشارب علمية وثقافية ومعرفية متنوعة، فكان لزامًا علينا أن نقوم بتلخيص بعض هذه الكنوز وتقديمها إلى القارئ في إطار يسير يجعله على اطّلاع ومتابعة لما أصدرته أبرز المطابع العالمية وبمختلف اللغات، حتى يتوافر في المكتبة العربية هذا اللون من الكتب والمطبوعات التي يقبل عليها الكثيرون نظرًا لطبيعة الحياة المتسارعة والمليئة بالانشغالات التي تمنع الجُلّ من الناس، من قراءة ما يبحثون عنه ويميلون إليه من صنوف الكتب.

من أجل مزيد من التيسير عزيزي القارئ، عمدنا إلى تبويب الكتاب إلى عدة أقسام تتيح الاختيار من بين علوم ومعارف توافق ما تميل وتهوى، وتفتح نوافذ على أفكار وتجارب جديدة في عالم متلاطم الثقافات متسارع التغيرات.

☆ ☆ ☆

سياسة

"أحلام من أبي: قصة عرق وإرث"

في الطبعة العربية الأولى من كتابه "أحلام من أبي: قصة عرق وإرث" يأخذنا "باري" أو باراك أوباما الرئيس الأمريكي "الرابع والأربعون" في رحلة طويلة داخل ذاته، محاولًا سبر أغوارها، واكتشاف معنى حقيقي لحياته

كأمريكي أسود، في مجتمع لم يكن يلقي بالًا بغير البيض حتى عقود قليلة منصرمة.

خليط بائس:

في هذه السيرة الذاتية تحدث باري، عن تحدّره من والدين ينتميان إلى عرقين مختلفين، فأبوه رجل أسود ذو أصول إفريقية، وأمه أمريكية بيضاء، التقاها والده أثناء ابتعاثه للدراسة في هارفارد، وهذا "الخليط البائس" كما أسماه باري، أوقعه أسيرًا بين عالمين وخلق لديه اضطرابًا في الدم والروح، ما جعله يتوقف وهو في الثانية عشرة من عمره عن إعلان عرق أمه، خشية أن يُظن هذا تودداً للبيض وتملقًا لهم، في وقت كانت العنصرية ترتع بوحشية في أنحاء الأسد الأمريكي، وتبدأ أحداث الكتاب في مدينة نيويورك، حيث تلقى باري خبر وفاة والده، في حادث سيارة في كينيا، والده الذي كان في عينيه أسطورة، أكثر من كونه إنسانًا عاديًّا، هذا الموت المفاجئ، أشعل بداخله فتيل رحلة عاطفية أخذته إلى سنوات طفولته المبكرة، في هاواي، حيث رُبي هناك مع جديه ووالدته، ولم يكن يعرف عن والده سوى حكايات تروى من جده ووالدته، بعد انفصاله عنها وعودته إلى القارة الأم، فنجد باري يستعرض مواقف مختلفة لحياته المبكرة في هاواي، ومداعبات جده، لافتًا إلى تميز هذه الجزيرة، باستعداد الأجناس فيها للعمل معًا من أجل تحقيق أهداف مشتركة، وهو السلوك الذي وجد المواطنين البيض في أماكن أخرى غير مستعدين للقيام به في معظم الأحيان.

مفردات الحياة:

ثم دلف بعد ذلك، إلى حياته في إندونيسيا، التي انتقل إليها بعد زواج والدته للمرة الثانية من "لولو" ذلك الإندونيسي الأسمر ذي الشعر الكثيف والقدر من الوسامة، كما يصفه باري. مستعرضًا علاقته بـ"لولو" الذي كان يعمل موظفًا تنفيذيًّا بإحدى شركات النفط، وقبلها كان يدرس في جامعة هاواي، حيث التقى والدة باري وتعرف عليها، واصطحبها وابنها، إلى العاصمة الإندونيسية جاكارتا، ليعيشوا فيها سنوات عدة، كانت خلاله علاقته بـ"باري" مثالية إلى حد كبير، لا سيمّا أن لولو على قدر كبير من الذكاء وعلى إدراك ووعي بأبعاد هذه العلاقة، فكان يتصرف مع باري وكأنه والد له، وحاول تعليمه كثيرًا من المبادئ التي يؤمن بها، ولكن باري كان دائمًا تواقًا إلى مبادئ والده، والصورة الأسطورية التي رُسمت في ذهنه عنه، أكثر

من ميله لـ "لولو" وطريقته العملية في التعاطي مع مفردات الحياة. خاصة أن والدة باري، كان لها من القيم والمبادئ ما يتعارض بشكل كبير مع المنحى الذي أخذ لولو انتهاجه، إلا أنها وحرصًا على مستقبل ابنها عمدت إلى إرساله مرة أخرى، إلى هاواي، كي ينشأ مواطنًا أمريكيا خالصًا منخرطًا في المجتمع الأمريكي، بدلًا من بقائه في إندونيسيا، وخضوعه لموازين القوة التي فرضتها الظروف آنذاك، والتي كانت لا تعترف سوى بقوة الرعوية "الجنسية"، فكلما انتمى إلى دولة قوية مثل أمريكا كان مستقبله أقرب إلى الأمان. عاد إلى هاواي، وشعر بالأمان في حضن الثقافة الاستهلاكية الأمريكية الناعم، كما يصفه. وكذا عن رؤيته مرة أخرى لأبيه، بعد انقطاع سنوات طويلة واصفًا ذلك بقوله: "رأيت رجلًا أسود يعرج قليلًا وهو يسير، وجثم على ركبتيه وطوقني بذراعيه وتركت أنا ذراعيّ تنخفضان إلى جانبي، وخلفه كانت أمي تقف يرتجف ذقنها كالعادة". هذا اللقاء الذي استمر شهرًا اقترب فيه باري من والده وعرف عن هذه الشخصية التي سمع عنها كثيرًا، ولم تفارق مخيلته يومًا. وبالانتقال إلى فترة المرحلة الثانوية، والجامعية، يستعرض باري المظاهر المختلفة لحياة الشباب والمراهقة، التي عاشها ومر فيها بصراع داخلي لا يهدأ، ومع ذلك كان يعرف ما يريده جيدًا، وهو إعداد نفسه كي يكون رجلًا أسود ناجحًا في مجتمع لا يعترف بغير البيض، وهذا المصطلح "البيض" لم يكن يعجب باري، الذي هاجم مدرب كرة السلة ذا التفكير العنصري ذات مرة قبل أن يخرج من أرض الملعب "هناك أشخاص بيض، وهناك حقراء مثلك".

قاعدة شعبية:

وذكر باراك، أنه كان يصارع هذا التفكير السائد، بالكثير من القراءة متخذًا إياها وسيلة للتغلب على تلك المشاعر التي تعتريه دومًا حول الاضطهاد، وكذلك لجوؤه أحيانًا إلى نشوة المخدرات وتدخين الماريجوانا، للهروب من أسئلة كثيرة تتعلق بهويته، ومع ذلك كان يتعامل مع هذا الأمر بحكمة، متجنبًا مشاكل يفتعلها أو يقابلها من ينحو هذا الطريق، متبعًا حكمة أشار إليها وهي: "الناس تشعر بالرضا ما دمت لطيفًا معهم، وتبتسم، ولا تقوم بتصرفات مفاجأة"، مشيرًا إلى أن المحيطين به كانوا يشعرون بشيء أكثر من الارتياح لأنهم يجدون شابًّا أسود حسن الخلق، ولا يبدو غاضبًا طوال الوقت، ثم ينتقل أوباما بعد ذلك إلى كل من نيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو، ليغوص بشكل أعمق في مشاكل مجتمع السود، وسعيه وراء أفكاره المثالية، وهو ما حدا به في ما بعد، إلى اتخاذه قرارًا بأن يصبح له دور مميز بينهم، وبالفعل بدأت محاولاته ليصبح منظمًا للمجتمع الأهلي، ساعيًا إلى تنظيم السود على مستوى القاعدة الشعبية لإجراء التغيير يقضي في النهاية إلى ما يصبو إليه من مساواة بين الجميع، كما هو شائع عن الحلم الأمريكي، المخالف تمامًا لما وجده على أرض الواقع.

عوالم كثيرة:

عبر صفحات الكتاب يرصد باراك أوباما، مراحل حياته المختلفة وصولًا إلى زيارته إلى كينيا "مسقط رأس والده"، والتقائه بعمته واكتشافه كمّ المعاناة التي لاقاها والده، سواء في إثبات ذاته، أو بعد ذلك مع بني وطنه باعتباره أول من حصل على شهادة جامعية من الغرب، ومن ثم كان الجميع يتوقعون الكثير منه، وبدوره كان ذا قلب كبير يتسع للجميع بلا استثناء. وفي كينيا، اكتشف باري صعوبة أمله بتوحيد العوالم الكثيرة التي يعيشها في عالم منسجم، بل اتضح أن الانقسامات تضاعفت أضعافًا مضاعفة على إثر هذه الرحلة. خاصة في رؤيته انقسامات قبائل الدولة الأربعين في ما بينهم، وهو ما فتح عينيه على حقيقة من حقائق التاريخ المأساوية، ألا وهي "وجود الانقسام في كل مكان"، ومع ذلك لم يخبُ لديه الأمل، في إمكانية تحقيق نوع من التعايش بين هذه التباينات في الرؤى والمصالح، وهو ما يستخلص من قراءة ومتابعة باقي صفحات الكتاب.

هذا الشاب الذي ترأس أكبر دولة في العالم لم يصل لهذا المنصب من فراغ، بل لأن هناك شيئًا داخله يدفعه ويدافع عنه يقوده ويساعده في قيادة الآخرين، وهذا الشيء لن يعرفه إلا من يقرأ صفحات هذا الكتاب.

قصة أوباما ليست مجرد قصة رئيس، بل قصة الفرار من هوة الإحباط إلى العلا ومن الشك إلى اليقين، وهو في هذا الكتاب يقدم بارقة أمل لكل من يشعر بالقهر مؤكدًا حقيقة أن المقهور إذا أصر على نيل حقوقه فسينتصر في النهاية.

☆ ☆ ☆

"تشريح الثورة"

"تشريح الثورة" هو من أبرز وأشهر ما كتب المؤرخ والأكاديمي الأمريكي كرين برينتن، وحاول في هذا الكتاب تأسيس نمط تتبعه معظم الثورات.

جمع الكاتب المعلومات من أربع ثورات كبرى: الثورة الأمريكية، الثورة الفرنسية، الثورة البلشفية، الحرب الأهلية في إنجلترا، وباستخدام هذه الثورات كنماذج وضع برينتن أربع مراحل تمر بها الثورة وعرض هيكلها كما يلي:

المرحلة الأولى "المرحلة التمهيدية للثورة" وخصائصها:

1 - التنافر الطبقي.

2 - عدم كفاءة الحكم.

3 - الحاكم غير الكفء.

4 - النقل الفكري للولاء.

5 - فشل القوة.

وأعراض هذه المرحلة كما يراها برينتن تتمثل في أن الطبقة الوسطى هي القوة الدافعة وراء الثورة وأنها تعبر بصوت عالٍ عن سخطها بسبب قيود اقتصادية معينة تفرضها الحكومة عليها، وعلى الرغم من أن هذه القوانين مثل قوانين الملاحة في المستعمرات الأمريكية ليست رئيسة، إلا أنها كافية لإحداث سخط شديد، وتكون الحكومة حينها غير كفء على نحو لا يصدق. وتنهار البيروقراطية، ولا تتمكن من إدارة البلاد على نحو فعّال، وقد يكون السبب وجود حاكم أخرق من مثل الملك جورج الثالث أو نقص مالي مزمن في الحكومة، وأخيرًا يعاني الحزب الحاكم من تخلي المثقفين الذين يعتبرون ضمير المجتمع.

شهر العسل:

المرحلة الثانية تتمثل في "حدوث الثورة نفسها" أما خصائصها فحددها برينتن في:

1 - الانهيار المالي.

2 - زيادة الاحتجاجات ضد الحكم.

3 - الأحداث المثيرة.

4 - استيلاء المعتدلين على السلطة.

5 - فترة شهر العسل.

يصف الكاتب هذه المرحلة بـ"الحمى الصاعدة" والمتمثلة في تصاعد سخط الطبقة الوسطى، حيث يثور الشعب إذاك وتتوج ثورته بمعركة مثل اجتياح الباستيل أو معركتي لكسنجتن وكونكورد وينهار الهيكل الحكومي تحت ضغط الديون المالية والانتفاضة الشعبية، ثم يشكل المعتدلون أو الوسط السياسي حكومة جديدة.

غير أن الحكومة المعتدلة الجديدة تظهر أنها غير قادرة على الصمود في وجه مشاكل إدارة الدولة والأزمة الاقتصادية ووضع دستور جديد وغير ذلك.

المرحلة الثالثة: مرحلة الأزمة، وخصائصها:

1 - تولي المتطرفين السيطرة.

2 - إبعاد المعتدلين عن السلطة.

3 - الحرب الأهلية.

4 - الحرب الخارجية.

5 - تركيز القوة في مجلس ثوري يسيطر عليه رجل قوي.

يقول برينتن إنه في هذه المرحلة تبلغ الثورة الذروة عندما يصبح المعتدلون عاجزين عن أداء مهمة حكم البلاد، ويطيح بهم المتطرفون أو اليسار السياسي بالقوة، ويبدأ حكم الإرهاب حيث يشرع المسرفون في التطرف بالتخلص من المعارضة باستخدام العنف، كما تتعرض الحكومة الجديدة عادة في حرب خارجية في محاولتها نشر مبادئ الثورة.

كما تبدأ الثورة بفقد زخمها ولا يستمر الشعب في مساندتها إلا خوفًا من التطهير، كما أنه بسبب تفاقم الأزمة الاقتصادية يواجه الثوريون تهديدًا داخليًّا متزايدًا.

مرحلة الخلاص:

المرحلة الرابعة: الخلاص، وخصائصها:

1 - العودة البطيئة غير المنتظمة إلى أزمنة تتسم بهدوء أكثر.

2 - حكم الطاغية.

3 - قمع المتطرفين.

4 - حصول المعتدلين على العفو.

5 - النزعة القومية العدوانية.

ويصف برينتن هذه المرحلة بـ"النقاهة" لأنه مع تزايد ضعف الثورة تدخل البلاد فترة الانتعاش، ويتولى السلطة حاكم مركزي قوي مثل جورج واشنطن أو جوزف ستالين في الحكومة الجديدة ويشرع في عملية إعادة الاستقرار إلى البلاد.

ويستبعد أو يعدم زعماء الثورة الأكثر عنفًا مثل روبسبير، كما يُمنح المعتدلون عادة العفو ويبدأ الناس في التخلص من أي علامات باقية من علامات الثورة ويغيرون ملابسهم وأسلوب حياتهم في محاولة لنسيان الثورة، ويتخلون في تلك العملية عن الكثير من العقائد المتسمة بالتطرف التي يؤمن بها الثوريون.

ويخلص برينتن من هذه المراحل إلى أن معظم الثورات تنتهي عمومًا بالعودة إلى حيث بدأت، وتنشأ بعض الأفكار الجديدة ويتحول هيكل القوة قليلًا وتطبق بعض الإصلاحات ويمحى أسوأ ما في النظام القديم غير أن الوضع القائم يصبح مشابهًا للوضع في فترة ما قبل الثورة وتشرع الطبقة الحاكمة مرة أخرى بمسك القوة.

استعرض برنتن بعض المصطلحات والأساليب العلمية التي استند إليها عند إعداده لهذا المؤلف ورؤيته المغايرة التي انطلق منها الكتاب، ومن ذلك:

الثورة والتغيير:

1- مجال الدراسة: الثورة من الكلمات التي تتصف بالغموض، وقائمة الأحداث والأفعال المرتبطة بهذه الكلمة غير محدودة، فهناك الثورة الفرنسية الكبرى، الثورة الأمريكية، الثورة الصناعية، الثورة في هاييتي، ثورة اجتماعية، الثورة الزنجية في أمريكا، ثورة في تفكيرنا، أو في تجارة ملابس النساء، أو في صناعة السيارات.

أي أن الواقع يقول بأن كلمة الثورة صارت مرادفًا تأكيديًّا لكلمة "تغيير" ربما مع الإيحاء بأن التغيير مفاجئ أو لافت للنظر.

2- العناصر الظاهرة للطرائق العلمية: هنا يقول برينتن إن قوانين جميع العلوم ليست مطلقة و"لا تخطئ"، بل إنها مؤقتة، وقد يقلبها مزيد من البحث، ولكن يجب ألا يعبث بها في أي لحظة معينة ما لم يثبت أنه لا يعتمد عليها بالنسبة إلى الحقائق الملاحظة.

وفي هذا الإطار يدفع برينتن إلى ضرورة عدم الخوف من "المشروع المفاهيمي"؛ لأنه ربما نستخدم مشروعين مفاهيميين متناقضين، ونختار أحدهما أو الآخر حسب مقتضى الحال أو بحكم العادة.

ويقول بأنه على الرغم من أن العالم يلتزم الدقة البالغة في مسائل التعريف وإنه يزدري عدم الإتقان مثل أي مؤرخ، ويأنف من سوء التفكير مثل أي عالم منطق فإنه لا يثق بالتصلب ويسعى إلى الكمال، وهو يبدي اهتمامًا بجمال التعريف وأناقته أقل من جعل تعريفاته تناسب الحقائق وليس عواطفه وطموحاته.

ومع ذلك يمكن إجراء البحث العلمي الرصين على نحو تام في مجالات العلوم كافة ومنها العلوم الاجتماعية والتي تخضع في الأبحاث والدراسات المتعلقة بها إلى الملاحظة والتسجيل أكثر من إجراء التجارب.

3- تطبيق الطرائق العلمية على هذه الدراسة، وهذا يصير جليًّا من خلال الاعتماد على المؤرخين للتزويد بالحقائق الضرورية، خاصة مع وجود قدر كبير للغاية من المؤلفات التاريخية عالية السمعة والمستقلة التي تتناول الثورات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية والروسية.

غير أن المشكلة الرئيسة هي الاختيار من بين هذا القدر الهائل من المواد، ويمكن التغلب عليها بشيء من التركيز في العمل البحثي.

تجرد العالم:

يلفت برينتن إلى وجود عنصر جوهري في أي محاولة للعمل العلمي وهو تجرد العالم، وبالنسبة للمؤرخ هذه هي قابلية إبقاء ملاحظاته عمّا حدث دون التأثر مما كان يود أن يحدث، ومع ذلك لا بدَّ أن نكرر أنه يصعب في كل العلوم الاجتماعية تحقيق التجرد العلمي وهو مستحيل التحقيق في أي معنى "مطلق" أو "صرف".

ولذلك يسعى برينتن إلى جعل محاولته للوصف والتحليل دون تقييم، ولن يكون ذلك ناجحًا تمامًا؛ لأن التمام في هذا العالم نادر والتجرد المطلق عالم قطبي غير مناسب للحياة البشرية، لأنه حسبما يرى من المستحيل دراسة الثورات دون امتلاك مشاعر نحوها غير أنه من الممكن الاحتفاظ بالمشاعر على نحو نسبي خارج الدراسة وليس داخلها.

ثم يدلف برينتن إلى تناول ما يعرف بـ"الأنظمة القديمة" فيقول، وصلنا مصطلح "النظام القديم" (العهد البائد) من فرنسا، ويعني في سياق تاريخ فرنسا أسلوب حياة الأجيال الثلاثة أو الأربعة التي سبقت ثورة 1789، وقد توسع استخدامه على نحو معقول لوصف المجتمعات المختلفة التي نشأت منها ثوراتنا، ويشير إلى أنه بالنسبة إلى مجتمعات معينة، درس في أنظمتها القديمة تجتمع متغيرات معينة، ومع ذلك من غير المحتمل أن نجد في كل الحالات التي ندرسها علامة واضحة موجودة في كل مكان كي نتمكن من القول بأنه عندما تجد كذا أو كذا في مجتمع ما فإنك تعرف أن ثورة ستنشب بعد شهر أو سنة أو عقد أو أي وقت في المستقبل.

أعراض متنوعة:

تميل الأعراض إلى الكثرة والتنوع وهي غير منتظمة في نمط متسم بالتنسيق، ومن تلك الأعراض:

1- جوانب الضعف الاقتصادية والسياسية: لا جدال أنه في كل المجتمعات الأربعة التي ندرسها في هذا الكتاب شهدت السنوات التي سبقت نشوب الثورة مشاكل اقتصادية أو مالية خطيرة من نوع خاص.

غير أنه في كل تلك المجتمعات كانت الحكومة هي التي تواجه مشاكل مالية وليس المجتمعات نفسها.

فلم تنشب ثوراتنا مع اقتصادات متدهورة أو في مجتمعات تشهد بؤسًا أو كسادًا اقتصاديًّا واسع الانتشار وطويل الأمد، ولن نجد في أي من مجتمعات العهد البائد أي شيء يشبه الأزمة الاقتصادية واسعة النطاق.

2- انتقال ولاء المفكرين: ومن ذلك أن مؤرخ الثورة الفرنسية كوشان قال إن ما أطلق عليه "جمعيات الفكر" وهي مجموعات تجتمع لمناقشة التأثير الكبير لحركة التنوير قد تحولت تدريجيًّا إلى الإثارة السياسية وساعدت أخيرًا في توجيه الانتخابات إلى مجلس الطبقات العامة عام 1789.

وعلى الرغم من أن المدرسة الرسمية للمؤرخين في الجمهورية الثالثة كانت لا تثق دائمًا بفكرة التخطيط المسبق للثورة الفرنسية الكبرى، فمن الصعب على غير المنتمي إلى الجماعة ألا يشعر أن كوشان قد وضع إصبعه على الشكل الجوهري لعمل مجموعة حولت مجرد الكلام والتأمل إلى عمل سياسي ثوري.

ويقر مؤرخو الثورة الفرنسية أن الماسونية كان لها دور في الإعداد للثورة، وكان واضحًا أن النشاط الماسوني في فرنسا في القرن الثامن عشر لم يكن مؤامرة شريرة إلا أنه كان حتمًا بعيدًا عن أن يكون نشاطًا اجتماعيًّا أو ترفيهيًّا أو تربويًّا صرفًا.

هدوء يسبق العاصفة:

حتى فترة الحكم الشخصي لتشارلز الأول التي سبقت الثورة الإنجليزية لم تكن تمامًا هادئة وناجحة كما بدت على السطح، وهرب الكثير من الكهنة المتطهرين من سعي لاود إلى طردهم من الكنيسة الرسمية، ووجد الآخرون الكثير من الوعاظ المستقلين والمطابع. وقد كتب سترافورد عام 1638 أن "الشعب في أتم الهدوء، وإذا لم أكن مخطئًا، راضٍ للغاية إن لم يكن مسرورًا جدًّا بحكومة جلالته الحنونة وحمايتها". إلا أنه كان مخطئًا جدًّا، فلم تكن تلك السنوات العشر من الحكم الشخصي سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة.

الصحافة الصفراء:

صنع ثورة ما يتطلب أنواعًا كثيرة من الرجال والنساء بقدر ما يتطلب صنع عالم. والأرجح أنه، خصوصًا في فترات الأزمات، عينت الثورات الأربع في المراكز المهمة وحتى المسؤولية رجالًا لن تجدهم في المجتمعات المستقرة بمراكز مشابهة،

ويبدو أن الثورات الكبرى تمنح السلطة أثناء فترات الأزمات إلى مثاليين متطرفين لا يحصلون عليها عادة، كما يبدو أنها تمنح المجال إلى مواهب خاصة، مثل مواهب مارا، وإلى الصحافة الصفراء والبحث عن الفضائح من النوع المثير للغاية، وهي تخلق بالتأكيد عددًا من الأماكن الفارغة لمنح الفرصة ليملأها شباب أذكياء ربما هم مجردون من المبادئ الخلقية، وربما يضمنون نيل بعض اهتمام الجمهور فترة ما على الأقل بالمتمرد والشاكي المزمن علاوة على المجموعة المجنونة من باعة العلاجات الاجتماعية والسياسية.

☆ ☆ ☆

"الأمريكيون الجوامح"

الولايات المتحدة الأمريكية.. تلك الإمبراطورية التي هبت على العالم وانتشرت وتشعبت عبر أرجائه في ظاهرة لم تحدث في التاريخ لأي من القوى العظمى التي ظهرت خلال مسيرة الحياة على كوكب الأرض.

وكانت الحرب العالمية الثانية هي حصان طروادة، الذي يسَّر للولايات المتحدة (على غير رغبة منها، ولتلك قصة أخرى) هذا الظهور المهول وعلى نحو مفاجئ، ما أدى إلى تغيير موازين القوى في الحرب والعالم بأسره.

هذا العالم أصبح مبهورًا بمحض إرادته، وخاضعًا على غير إرادته لسياسات القوة الكونية الفريدة من نوعها الآتية من الطرف الآخر في العالم عبر محيطه الأطلنطي.

ومن هُنا انطلق المؤرخون والمنظّرون وكتاب السياسة والمفكرون، كل من موقعه وتبعًا لخبراته ومرجعياته المعرفية، يبحث في هذا الكيان المسمى بـ"الولايات المتحدة الأمريكية" لدراسته والوقوف على الأسباب التي ساهمت في إفراز هذه الدولة المهيبة أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، حيث ثارت أقاويل حول تلك الهيبة ومن بين هؤلاء كان الأستاذ الدكتور وود هولتون المتخصص في التاريخ الأمريكي، ووضع مؤلفات عديدة تدرس الحالة الأمريكية، ومنها "الأمريكيون الجوامح" الذي يسعى من خلاله إلى مساعدة القراء في كل مكان على فهم الولايات المتحدة الأمريكية بصورة أفضل.

حرية مفرطة:

يوضح هولتون أنه حتى قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر كان ثمة سجال بين الأمريكيين حول افتقار بلدهم للشعبية في أجزاء كثيرة من العالم، ومنها المنطقة العربية، فيجادل السياسيون اليمينيون عمومًا بالقول إن المتطرفين الإسلاميين يبغضون أمريكا بسبب حريتها المفرطة.. أما الأمريكيون يساريو النزعة فلهم فهم مختلف يرى أن العرب يعارضون أمريكا لا بسبب ماهيتها، بل بسبب ممارساتها السياسية ولا سيّما تدخلها العسكري في مناطق عدة من العالم.

هاتان السمتان أي ليبرالية أميركا القصوى وقوتها العسكرية الجبارة تعود أصولهما إلى نهايات القرن الثامن عشر، وهذا الكتاب يحاول ضمن أهدافه رصدهما، وذلك من خلال دراسة الطريقة التي تشكل بها الدستور الأمريكي والسباقات والصراعات التي قادت إلى ذلك التخصص في دراسة التاريخ الأمريكي.

يعود بنا هولتون إلى الفترة التي سبقت إعلان الدستور الأمريكي وتحديدًا إلى عام 1776، حين انسلخت ثلاث عشرة مستعمرة عن الإمبراطورية البريطانية.

يقول هولتون: إن ذلك لم يكن التاريخ الحقيقي لميلاد العملاق الأمريكي، وبالفعل فتاريخ أغنى دولة في العالم وأقواها لم يبدأ قبل صيف 1787 خلال المؤتمر التأسيسي الذي انعقد في فيلادلفيا، وقد انتحل الثوار في العالم كله الكثير من مضامين إعلان الاستقلال.

لكنّ الناجحين منهم، أي أولئك الذين تمكنوا من قلب النظام الاجتماعي وتأسيس أنظمة خاصة بهم، لا يستوحون هذا الإعلان بل يستوحون الدستور وينبغي على كل من يطلب بحق معرفة الأصول الحقيقية للولايات المتحدة أن يبدأ فيسأل لماذا قرر السكان الأحرار في المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة بعد عقد تقريبًا من إعلان كل واحدة منها عن دولتها المستقلة أن يجمعوا هذه السيادات الثلاث عشرة معًا ليؤسسوا إمبراطورية خاصة بهم؟

ويلفت الكاتب إلى وجود ما يشبه الإجلال من قبل حكام وسياسيين أمريكيين تجاه القصد الأصلي لواضعي الدستور، وذلك حين صوتت مجموعة من خمسة وخمسين مواطنًا من أكثر مواطني الأمة الأمريكية بروزًا في المؤتمر التأسيسي الذي وضع الدستور الاتحادي في صيف 1787، لصالح الحفاظ على السرية الأكثر صرامة وحال دون مختلسي السّمع بالحفاظ على أبواب الغرف كريهة الرائحة ونوافذها مغلقة.

نزاعات رهيبة:

أشارت متون التدريس في التأريخات الشعبية إلى حجم النزاعات الداخلية الرهيبة التي سبقت إعلان ذلك الدستور، وهددت بتمزيق المؤتمر الاتحادي شر تمزيق، غير أن التسويات البارعة التي عاودت الجمع بين المندوبين مرة بعد أخرى، ودارت حول مدى إمكانية أن يصبح لكل ولاية العدد نفسه من الممثلين في الكونجرس، أم هل ينبغي أن يكون التمثيل مرجحًا لصالح الولايات الأكثر كثافة سكانية؟

فكان الحل: التمثيل النسبي في مجلس النواب وتساوي الولايات في مجلس الشيوخ.

وهل ينبغي السماح للحكومة القومية بإبطال الإتجار بالعبيد الأفارقة؟ والجواب كان: نعم لكن ليس قبل 1808.

وهل ينبغي -في توزيع نسب تمثيل الولايات في الكونجرس - اعتبار الأمريكيين المستعبدين بشرًا يحصل مالكوهم بسببهم على المزيد من الممثلين؟ وماذا عن توزيع العبء الضريبي بين الولايات، هل ينبغي أن يُعد العبيد فيه بشرًا؟

وتم حسم الجدالين بطريقة: فليحسب كل عبد ثلاثة أخماس شخص (حر) واحد.

وعبر كثير من مثل هذه المواقف والتباينات ظهر ما يعرف بـ"معجزة فيلادلفيا" أو "المؤتمر العظيم" الذي أفضى إلى إعلان دستور الأمبراطورية الأمريكية.

ويوضح هولتون أن التأريخات الشعبية قدمت بصورة مفاجئة صك غفران هشّا للدوافع التي حركت واضعي الدستور، وفعلًا فإن ما يكاد أغلبها يقوله هو أن التجربة العسيرة بينت أن الحكومة السابقة بمقتضى بنود الاتحاد (1980 - 1789)، كانت شديدة الضعف، وما يجعل هذا التضخيم غريبًا هو أن أحكام واضعي الدستور ذاتها تبين دافعًا آخر أكثر ضغطًا.

علاج الشرور:

بصورة مبكرة خلال انعقاد المجلس التأسيسي للدستور كان جيمس ماديسون يلح على زملائه بضرورة علاج "الشرور... التي تسود الولايات فرادى وكذلك الشرور التي تؤثر فيها جماعيًّا".

وقد أعلن ماديسون (المعروف بأبي الدستور) بعد قليل من مغادرته فيلادلفيا بأن "التقلب" و"الظلم الكامن" في "قوانين الولايات" قد "ساهما في الاضطراب الذي أنتج المؤتمر وأعد فكر الجمهور لإصلاح عام، أكثر من أولئك الذين يزايدون على خصوصيتنا الوطنية ومصلحتنا من طابع الاتحاد غير الملائم".

وكان انشغال ماديسون بما سمَّاه لاحقًا "الإدارة الداخلية للولايات المتحدة بكل المعاني فريدة من نوعها" فعشية لقاء المجلس التأسيسي كانت التعبيرات عن القلق حيال ضعف الكونجرس رغم كثرتها دون الشكاوى من حكومات الولايات بقدر كبير.

وبعد إرسال الدستور إلى الولايات الثلاث عشرة من أجل المصادقة عليه أكد مؤيدوه أن القصد منه كان علاج بعض أكثر الأمراض فتكًا التي توجد في هذه الولايات ذاتها، والتي امتدت لاحقًا إلى تدخلات لا حصر لها من جانب الولايات ضد ما يضمن الحقوق الخاصة والتوزيع الثابت للعدالة، إلى الحد الذي جعل النواب الممثلين لتلك الولايات يظهرون تسامحًا مفرطًا مع المدينيين ودافعي الضرائب، وأيضًا رفضوا إجبار المزارعين على دفع ما هو متوجب عليهم، كل ذلك خطبًا لأصوات ناخبيهم بغض النظر عن المصلحة العليا للأمة الأمريكية.

وفي ذلك يشير هولتون إلى ما قال به ماديسون في أن تخفيف الضرائب أصاب الحكومة بالكساح بل إنه فعل ما هو أسوأ فقد حال ذلك دون القيام بخدمة الديون العارمة التي تراكمت خلال الحرب، ولما فشل الكونجرس والولايات المتحدة في دفع مقابل سنوات الحرب أو حتى دفع فائدتها أعلن ماديسون أن مالكي السندات لم يكونوا الذين يعانون من ذلك، فهذا "الظلم" الرهيب بما ولده من "عدم ثقة سائدة ومتزايدة" في الالتزامات العمومية (التزامات الدولة) "قضى على حكومات الولايات و(على حكومة) الاتحاد ذاتها".

حكومة وطنية:

هنا يؤكد المؤلف أنه إذا كانت كتابة الدستور بالنسبة إلى رجال مثل ماديسون أشبه باستئناف حكم صدر لغير صالحهم، أمام هيئة قضائية أعلى، فكان استنتاجهم أنه إذا كانت المجالس النيابية في الولايات لا تملك الشجاعة اللازمة للتصدي للمدنيين المتلكئين في سداد ديونهم ولدافعي الضرائب فينبغي خلق حكومة وطنية قادرة على ذلك.

ويشير إلى أن واضعي الدستور اعتقدوا أن السبيل الوحيدة لمنع مجالس النواب في الولايات من التسامح المفرط مع دافعي الضرائب، هي إخراجهم من شأن تحصيل الضرائب العقارية أو عدم تحصيلها، فالبند الأول في فقرته الثامنة أعطى للحكومة القومية ما لم يكن لها أبدًا من قبل وهي السلطة الذاتية لفرض الضرائب، والبند الأول فقرته العاشرة فرضت السلطة الزجرية نفسها على المدنيين من القطاع الخاص، فهي تمنع على الولايات من نجدة مالكي الأرض بطبع عملة ورقية أو بتغيير "التزامات العقود" أو باستعمال أي حيلة من الحيل التي اكتشفوها خلال ثمانينات القرن الثامن عشر، (وكانت إدارات الولايات في مرحلة ما قبل الدستور تلجأ إلى طباعة أوراق نقدية دونما رصيد أو احتياط كافٍ من الذهب، من أجل مساعدة المدنيين على قضاء ديونهم، غير أن ذلك في واقع الأمر من أشد أنواع الخداع، لما له من أسوأ الأثر في الفت في عضد الاقتصاد الأمريكي ككل وارتفاع نسب التضخم بشكل مبالغ فيه).

ونتيجة لما تحققه هذه الفقرة العاشرة من حماية للدائنين اعتبرها مزيد من الناس "أفضل فقرة في الدستور من أي فقرة أخرى في هذه الوثيقة، حتى أن هذه الفقرة تقدم في أغلب الأحيان باعتبارها "روح الدستور".

معايير القوة:

بمتابعة متروية للكيفية التي صدر به الدستور الأمريكي وسيطرة فكر أصحاب رؤوس الأموال وذوي المصالح الاقتصادية الكاملة على المبادئ العامة المشكّلة للدستور، وفي الوقت نفسه قبول مندوبي الولايات المختلفة ممن كانوا في السابق يدافعون عن حقوق المدنيين والمزارعين فقط أملًا في كسب أصواتهم.

المتابع لذلك، يكتشف أن المبادئ التي أرساها واضعو الدستور الأوائل، هي التي انتشلت الولايات المتحدة من مشاكل اقتصادية وصراعات مريرة، ويسَّرت لها الانطلاق لتصبح كيانًا قويًّا، يعمل على حفظ مصالح جميع أفراده بالاستناد إلى معيار حقيقي للقوة، وأيضًا من خلال تيسير سبل النجاح مما جعل هؤلاء الشاكين قبل سنوات قلائل من أعباء الديون، يتمتعون بمستويات معيشية مرتفعة ومريحة، ولا يمكن مقارنتها بأي حال من الأحوال بالأوضاع التي كانت سارية قبل إعلان الدستور.

خاصة وأن من بين هذه الآراء من قال بأن الإفراط في الديمقراطية الممنوحة للشعب الأمريكي، هدد في وقت من مراحل تكوينه بالقضاء عليه، غير أن هذا لم يمنع من التعامل مع الطبيعة الخاصة للمجتمع الأمريكي وأفراده القادمين من أصول

مختلفة، وفي الوقت نفسه وضع المصلحة العليا للأمة فوق كل اعتبار، وهذا ما ساهم في النهاية في تقوية البنيان الأمريكي وتعاظمه حتى أيامنا هذه.

لغة الجسد:

كان الأمريكيون الذين يستعملون التهديد بالعنف أحيانًا للحصول على تخفيف في الضريبة والدين يقابلهم الموظفون العموميون بدورهم باستعمال تهديدات تخصهم، والنتيجة كانت في حالات كثيرة رقصًا معقدًا من التخويف المتبادل، ويوجد مثال جدير بالاعتبار هو الشغب في المحكمة في 27 أبريل 1785 في دارة كامدن من ساوث كارولينا، فلا المزارعون الذين كانوا يحاولون غلق محكمة المنطقة في ذلك الأربعاء ولا القاضي جوف ف. جرمكي الذي كان مقرًّا العزم على إبقائها مفتوحة، لا أحد منهما أراد اللجوء إلى القوة، فالقاضي لم يكن مسلحًا إلا بتهديد الإيقاف والجماعة لم يكن بوسعها إلا أن تهدد بالعنف.

"مزرعتك" و"مزرعتنا:"

إن قطاع المجتمع الأمريكي الذي يبدو أنه نال أكثر من غيره ثقة بنفسه خلال حرب الثورة هو الحرائر من النساء، فآلاف منهن أصبحن رئيسات لمنازلهن عندما كانت واجبات أزواجهن قد اقتضت بقاءهم بعيدًا عن المنزل لمدد طويلة، ورغم أن أغلبهن قد وجدن التجربة محبطة فإن الكثير منهن أصبحن مقتنعات بأن بوسعهن أن ينجحن في ما كان يعد عالم الرجال، فماري بارتلات زوجة أحد الموقعين على إعلان الاستقلال وأبيجايل أدامز كلتاهما كانتا تعودان إلى زوجيهما في البداية بواسطة رسائل توجهها الواحدة لزوجها فتخاطبه بالكلام على "مزرعتك" ثم انتهت إلى الكلام على "مزرعتنا".

"اللقاء المعقد بين الغرب المتعدد والإسلام المتنوع"

العلاقة بين عالم الغرب والإسلام متداخلة بصورة مطردة، وهناك أحداث مأساوية عديدة ألقت بظلالها على تلك العلاقة، وهو ما أدى إلى ظهور الخوف من الحركات الإسلامية الذي ينتاب الغربيين، وعلى الجانب الآخر الخشية من الهيمنة التي تؤرق المسلمين.

بين هذا وذاك، انطلق الباحث والبروفيسور فيليس داسّيتو المحاضر بجامعة لوفان البلجيكية، عبر كتابه "اللقاء المعقد بين الغرب المتعدد والإسلام المتنوع"، محاولًا الإحاطة السوسيولوجية بهذا اللقاء الذي يتم في الوقت الحاضر بين الإسلام والغرب بكل تعقيداته وأبعاده، ويسعى إلى التقاط عناصر الجد فيه من أجل التطلع إلى انفراجات مستقبلية، مشيرًا إلى موضوعات النزاع الكبرى بين الغرب المتعدد والإسلام المتنوع، ليس من أجل أن يحكم بالمواجهة المحتمة، وإنما من أجل أن يحدد العقبات التي تحول دون لقاء لا مفر منه.

انزلاق ومواجهة:

يعمد المؤلف إلى استكشاف الأوجه المتعددة التي يطل بها الإسلام على الغرب، وفي المقابل يحاول أن يلتقط مختلف الأشكال التي يتراءى فيها الغرب للإسلام، هنا يحاول داسّيتو أن يستخلص دور أوربا ومكانتها، وهي الجزء من العالم الغربي الأقرب إلى قلب العالم الإسلامي، هل تراها تتوصل إلى بلورة سياسة خاصة بالعالم الإسلامي؟ هل تلعب دورًا فاعلًا أم تستمر في الانزلاق نحو المواجهة؟ كثير من الأسئلة والطروحات التي جاء بها المؤلف ويسعى إلى تبيان إجابتها وإمكانية الخروج من إشكالية العلاقة المتداخلة بين الغرب والإسلام اعتمادًا على التفكير المتعمق في العلاقات الراهنة والمستقبلية وتضمينها العمق الحضاري المتبادل.

وعن الأصل في وصف الغرب بالمتعدد والإسلام بالتنوع يقول المؤلف بأن الغرب الذي هو في الأساس تسمية جغرافية للمكان الذي تغرب فيه الشمس، تحول منذ العصور القديمة إلى مصطلح محمل بالمعاني يدل على مجموعات بشرية وعلى مدى الزمن تجمعت في هذا الغرب ترسبات ثقافية واجتماعية كبرى، أولها الإرث اليوناني والروماني والمسيحي الذي طبع تاريخ أوربا الطويل، ومن ثم خلال الهجرات تاريخ الولايات المتحدة، والراسب الثاني يتمثل بالفكر الفلسفي المتعلق بالطبيعة والسفر والسياسة، والذي نجم عن المسار الممتد لقرون والذي بدأ حوالي القرن الخامس عشر وازدهر في الحقبة المعروفة بـ"عصر التنوير".

الراسب الثالث يعود للتكنولوجيا والعلوم التي تطورت منذ القرن الثامن عشر معطوفة على الديناميات الاجتماعية التي نشأت عن الرأسمالية والثورة الصناعية، وفي النهاية المكون الأخير يتمثل بهيمنة القوى السياسية الغربية على سائر أنحاء العالم والتي بلغت حدتها من خلال حركات الاستعمار والإمبريالية الجديدة.

وتبعًا لما سبق يؤكد داسيتو على أن كلمة غرب تحمل كل هذه المضامين والأبعاد المختلفة، ومن ثم جاء وصف "الغرب المتعدد".

أما الإسلام المتنوع فيرجع وفقًا لداسيتو إلى أن هناك مليار مسلم يضمهم عالم الإسلام وهذا العالم يتكون من عشر مجموعات كبرى، والتي وإن انتمت إلى معتقد واحد، فإنها تشكل فضاءات وتراثات ثقافية ولغوية مختلفة نسبيًّا، وهي موزعة من الناحية الدينية إلى مجموعتين كبيرتين، الأولى وهي السنة وتمثل غالبيته المسلمين والثانية أقلية شيعية، وهناك تباين في النظر إلى الأمور الروحية داخل كل تيار، كما أن كل تيار بداخله رؤى وتفسيرات متعددة، وهناك -أيضًا - مناطق متعددة للإسلام وأهمها الجزيرة العربية القلب النابض للإسلام، بلدان المشرق العربي، بلدان شمال إفريقيا، منطقة تركيا والبلقان، إسلام شبه الجزيرة الهندية، العالم الفارسي بغالبيته الشيعية، ومن هنا جاء وصف المؤلف للعالم الإسلامي بالمتنوع.

يقول داسّيتو: بداية لا بدَّ من التذكير بأن هذين العالمين، كما سائر العوالم يعيشان اليوم تحولات عميقة يتشاركان فيها بكل الأحوال، وهذا ما يفرض أنهما متأرجحان

جزئيًّا، ويفتشان عن توازنات جديدة ويتعرضان لتوترات ناشئة عن هذه التغيرات التي أمكن التحكم بها إلى حد ما.

تحولات مشتركة:

يشير داسيتو إلى مجموعة تحولات قوية تنطلق من الغرب وتؤثر في العالم بأسره؛ لذا يمكن اعتبارها تحولات مشتركة وفيها:

1- ظهور مقياس جديد للعالم، من خلال تعميم نموذج الحداثة المعاصرة الذي يمر بنشر أنماط حياة وتنظيم اجتماعي ووسائل اتصال وتنظيم مديني، وهكذا يصبح العالم شيئًا فشيئًا متشابهًا، وهذه المرحلة الجديدة للحداثة اصطلح على تسميتها بـ"العولمة" وأبرز ما فيها أن يحدث في نقطة معينة من العالم يكون له انعكاساته بسرعة قياسية في الطرف الآخر من الأرض.

2- تعميم تكنولوجيا جديدة على العالم وهو ما أدى إلى حدوث تغييرات في العالم وهذا التغيير منذ قرنين يُقولِب ويعيد تأطير المجتمعات وطرائق حياتها وسكنها واليوم يسعى لتشكيل العالم بأسره.

3- التراتبيات الجديدة في العالم أي حدوث تراتبيات وتفاوتات مختلفة خاصة في مجال توزيع الثورات والتوجهات المستقبلية.

أما عن العالم الإسلامي فيوضح داسيتو أن التجربة الإسلامية التي امتدت لما يزيد على أربعة عشر قرنًا وما صاحبها من انطلاق الدعوة ومن ثم تنظيم المجتمع وإنشاء الدولة فأعطت زخمًا لقيام مجتمع جديد وحضارة جديدة، وهذا ما تجسد لاحقًا في دول وممالك عرفت الازدهار، ونعمت بالرخاء والبذخ وأثرت العلوم والمعارف وتمكنت من التوسع وبسط النفوذ، فمن العباسيين إلى الأمويين في الأندلس، ومن المغول إلى العثمانيين، كان الإسلام أساسًا لبنى مجتمعية أكدت حضورها في العالم، وبالرغم من كل النوائب تمكنت المجتمعات الإسلامية من أن تشكل نقطة حضارية مضيئة على امتداد ألف سنة.

غير أن الغرب صار الآن يواجه هذا الفضاء الجديد، فبعد أن عرف الغرب مرحلة طويلة من الانحطاط مقابل صعود القوى الإسلامية، استعاد زخمه، وبرز ابتداء من القرن السادس عشر تفوقه السياسي والاقتصادي والتكنولوجي، واستطاع لاحقًا استعمار معظم مناطق العالم الإسلامي، ومنذ ذلك التاريخ والمسلمون يتساءلون عن سبب الكارثة التي حلت بهم، وظهرت رؤيتان مغايرتان تسعيان إلى النهوض بحال الأمة الإسلامية، الأولى تنادي باتباع سبيل الغرب لاستعادة نهضة الأمة، والثانية تشدد على ضرورة العودة إلى جذور الإسلام والابتعاد عن المسار الغربي كسبيل وحيد للارتقاء بالعالم الإسلامي.

اللقاء الصاخب:

يعرض الكاتب إلى خمس محطات كبرى في اللقاء الصاخب بين العالم الإسلامي والغرب، وهي:

1- المواجهة المبكرة: وكانت مع الفتوحات الإسلامية التي وصلت إلى مدينة بواتيه الفرنسية، أعقبها بعد ذلك ما عُرف بالحروب الصليبية ثم حروب الاسترداد في إسبانيا التي انتهت عام 1492.

2- إمبراطوريات وجيوسياسية القوة: وهذه المحطة ارتبطت ببروز الإمبراطورية العثمانية بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر، وشهد فيها الإسلام تبدلًا في القيادة بعد أن انحسر الثقل العربي لصالح السيطرة التركية، واتخذت العلاقة بين السلطنة العثمانية وأوربا وكذلك روسيا شكل المواجهة السياسية أكثر من المواجهة الدينية.

3- صدمة القرن التاسع عشر والاستعمار: والتي بدأت بوصول حملة نابليون إلى مصر، ومثلت محطة فارقة في تاريخ العالم الإسلامي الذي أدرك الضعف الذي وصل إليه وتخلفه عن الغرب الذي تجسّد أمامه في جيش نابليون، وتلك كانت بداية لحلقات استعمارية غربية شملت أرجاء العالم الإسلامي، وانتهت بزوال الدولة العثمانية من الأساس.

4- الاستقلال والإسلام: وهي المرحلة التي ظهر أفقها في أربعينيات القرن العشرين واشتملت هذه المرحلة على زخم تباييني من الأفكار والاتجاهات حول العلاقة بين الدول المستقلة وبين الدول الغربية، انتهت بظهور أشكال متعددة لتلك العلاقة.

5- عولمة وتردد: في التسعينيات من القرن الماضي بدأت محطة خامسة من العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب بمختلف وجوهه، فيها توجب على عالمين غير مستقرين ويعيشان حالة من التحول أن يتلاقيا ويتواجها، فبالرغم من أن الغرب بمختلف مكوناته لم يعرف فترة ثراء ولا سلم بين دوله كما عرفها الآن، إلا أن عدم الاستقرار المالي والأزمات الاقتصادية والهزات العنيفة التي تحدث هناك بين حين وآخر، كل ذلك أدى إلى انتعاش خطاب اليمين المتطرف وخلق حالة من التوتر الدائم، فكان الدخول إلى الألفية الثالثة بمثابة منعطف وهمي يتم في أجواء قاتمة.

أما من جهة الإسلام فيزيد من قلقه على مستقبله على الساحة الدولية وجود حركات متشددة وإرهابية ليس بمقدور السلطات القائمة ولا المجتمع المدني ولا الهيئات الدينية من إيقاف اندفاعاتها، خاصة أن آثار حرب الخليج وهجمات 11 سبتمبر وحرب العراق تركت الأبواب مفتوحة لكل الاحتمالات، فبنظر الكثيرين من المسلمين يمكن قراءة هذه التدخلات على أنها مرحلة جديدة من هيمنة الغرب على الإسلام يحجبها الخطاب حول العولمة، أو الأمن والتحرر من الأنظمة الديكتاتورية.

مسار مأساوي:

ينتقل داسّيتو إلى الحديث عما أسماه بـ"المسار المأساوي القريب العهد للعلاقة بين الإسلام والغرب" وذلك من خلال 5 محددات وهي:

أولًا: 11 سبتمبر وأطروحة هنتجتون، بمعنى أن الأطر المعرفية المستخدمة لتفسير أحداث 11 سبتمبر استندت إلى تحاليل هنتجتون في كتابه "صدام الحضارات" (1997)، وفي ذلك يقول داسّيتو: إن عنوان كتاب هنتجتون شكّل، شئنا أم أبينا، إطار مرجعي أكثر من مضمون الكتاب، وفي أغلب الأحيان بُسطت الأطروحة المعقدة لهذا الكتاب لتقتصر على توقع مستقبل العالم من زاوية الصدام أو الحرب المحتمة بين الحضارات، وعلى وجه الخصوص بين الغرب والإسلام، وأتت تفجيرات 11 سبتمبر لتعطي البرهان على صحة هذه النظرية، وعلى الصراع الجوهري الذي تخفيه العلاقات بين هاتين الحضارتين.

ثانيًا: صياغة العلاقة من جديد؛ والتي جاءت من آثار 11 سبتمبر، حيث تحولت العلاقة بين الإسلام المتنوع والغرب المتعدد إلى علاقة مواجهة بين إسلاميين متشددين وإرهابيين من جهة، والدول الغربية ومن يدور في فلكها من جهة أخرى.

ثالثًا: جورج بوش وتوني بلير، أبعد من هنتنجتون؛ حيث قرر الأمريكيون والبريطانيون التصويب إلى قلب العالم الإسلامي بالذات، ليس من أجل مواجهة مرجعياته الدينية، وإنما من أجل استهداف أماكن المقاومة للنموذج الحضاري الغربي، فالمطلوب هنا هو عكس ما نادى به هنتنجتون، أي مطابقة للحداثة العالمية على النموذج الحضاري الغربي، وإذا اقتضى الأمر ينبغي إزالة العقبات من أجل نشر هذا النموذج وخلق الظروف الملائمة لكي تتمكن الحداثة الغربية من إثبات نفسها دون أي معوقات.

مواضيع خلافية:

يعرّج داسيتو إلى المواضيع الخلافية التي نشأت بين الغرب المتعدد والإسلام المتنوع في العقود الأخيرة، ومنها:

1- النزاع حول الفرد؛ بمعنى أن الجماهير المدفوعة بالحماس والمتحلقة حول زعيم أو مدفوعة بحدث، والتي تضخم وسائل الإعلام ردات فعلها، تثير في الغرب هلعًا من طرائق السلوك المصاحبة لذلك، بينما المسلمون ينظرون من جهتهم إلى هذه التظاهرات الجماهيرية بالذات على أنها تأكيد على الهوية وتعبير عن الانتماء.

2- النزاع حول النساء والرجال؛ أي الخلاف حول النظرة إلى دور الجنسين وخاصة دور المرأة.

3- النزاع حول النظام وما يرتبط من خلاف حول نمط بناء المجتمعات وموقع العامل الديني في تأسيس المجتمعات.

4- النزاع حول الموقع في العالم، فالحضارة الغربية تسعى لأن تكون وتصبح في المستقبل، وتفرض نفسها على أنها الحضارة الكونية، ولم يعد لديها عمليًّا أي خصوم على الصعيد الأيديولوجي، غير أن العالم الإسلامي هو المكان الوحيد في العالم منذ نحو عشرين أو ثلاثين سنة الذي نسمع فيه الخطابات التي تعلن مواجهة أيديولوجية شاملة، وبرغم أن هذا النوع من الخطاب لا يبدو متماسكًا، إلا أنه

موجود فعلًا ويتنامى ويفرض أجندته، فهو يفرض نفسه بالصوت العالي وباستعمال القوة والعمل المسلح الذي يلقي الرعب في الغرب.

ثم يفيض الكاتب في شرح أبعاد العلاقة الملتبسة بين الإسلام والغرب وما بها من تأثيرات متبادلة، ساعيًا إلى التوصل لتقديم البرهان على أن مرحلة اللقاء الراهنة بين الحضارات في عالم يتعولم ويتداخل، يجب أن تطرح بمصطلحات جديدة، داعيًا إلى التخلي عن نماذج التفكير القديمة والسعي إلى إحياء التوازنات المفقودة ومعالجة نقاط الاحتكاك الملتهبة، بما يؤدي في النهاية إلى ابتداع طريقة جديدة لبناء علاقات بين عوالم تتلاقى.

☆ ☆ ☆

اقتصاد

"الصين في إفريقيا شريك أم منافس؟"

في كتابه "الصين في إفريقيا شريك أم منافس؟" يسعى كريس ألدن إلى تحليل العلاقات الصينية الإفريقية وتناولها من عدة منظورات، محاولًا فك رموز تلك العلاقات الناشئة بين الصين وإفريقيا لتحديد ما إذا كانت هذه العلاقة ستكون علاقة شريك في التنمية أم منافس اقتصادي، أم نوعًا جديدًا من الهيمنة.

تآكل الموارد:

في بداية الكتاب يتحدث ألدن عن سياسة الصين الجديدة تجاه إفريقيا التي بدأت تأخذ منحنى جديدًا مع بدايات القرن الواحد والعشرين مشيرًا إلى الطفرة الهائلة في التجارة البيئية بين القارة والصين والتي تحولت من مليار دولار أمريكي عام 2000 إلى 5 مليار دولار مع نهاية 2006.

وهو ما يجعل الصين التي كانت قابعة في مدارها الآسيوي، تصبح ثالث أكبر شريك تجاري مع إفريقيا في ظرف تلك السنوات القلائل.

وفي الوقت نفسه ما من دليل يرمز إلى أهمية إفريقيا للاقتصاد الصيني، أكثر من تحول أنجولا إلى أكبر مصدر للنفط إلى الصين، متفوقة بذلك على المملكة العربية السعودية عام 2006.

كما أن سياسة الصين الخارجية تجاه إفريقيا تطورت بشكل لافت، استنادًا إلى رؤية الزعيم الصيني دنج شياوبينج التي مفادها "لاحظ بهدوء وأمّن موقعنا. لا تكشف قدراتنا وانتظر فرصتنا. كُن ماهرًا في التصرّف دون لفت الانتباه ولا تدّعي الزعامة أبدًا".

وبناءً على هذه السياسة سعت الصين وبنجاح إلى الحصول على مصادر جديدة للطاقة والموارد الطبيعية في إفريقيا، بعدما بدأت مواردها الطبيعية في التآكل تحت ضغط تزايد حاجات الصين، وكذا بعض أوجه القصور التكنولوجي وسوء الإدارة في عقود ماضية.

عقود الإذلال:

كما يتحدث المؤلف -أيضًا - عن استحضار الماضي الذي يؤطر العلاقات الإفريقية الصينية، فكل من طرفي العلاقة يسعى إلى توظيف التاريخ بما يؤدى لتعزيز تلك العلاقات، فزعماء الصين يرون في إفريقيا أنها كانت الحلبة الأهم في الصراع الإيديولوجي إبان الحرب الباردة، واعترافهم بدور الأهمية العددية للدول الإفريقية داخل الجمعية العامة في لحظات تاريخية بالنسبة للصين، والقدرة على التعامل معه جيدًا ما أدى في النهاية إلى إزالة جمهورية الصين (الاسم السابق لتايوان) من

مركزها الرسمي كعضو يحتل مقعدًا دائمًا في مجلس الأمن عام 1971، وفي الوقت نفسه فإن النخبة الإفريقية لا تجد وراء الوجود الصيني في قاراتهم أي مخاوف، مثل تلك التي تركتها عقود الإذلال على يد القوى الاستعمارية والولايات المتحدة.

ويلفت إلى أن الصين اعتمدت في سياستها الخارجية تجاه إفريقيا على ما يعرف بالمساعدة الإنمائية التي من خلالها نجحت الصين إلى حد كبير في تأمين موارد جديدة لها وكسب حلفاء دبلوماسيين، ومن ذلك ما قدمه مصرف الصين للتصدير والاستيراد EXIM لدعم المشروعات الإفريقية عام 2005 والذي بلغ 15 مليار دولار أي أكبر بثلاثين مرة من أقرب منافس لها في دعم مشروعات ماثلة.

مبيعات السلاح:

كذلك يدلف الكاتب إلى التعاون العسكري ونمو مبيعات الأسلحة باعتبارهما جانبين هامين من العلاقات مع بعض الحكومات الإفريقية، لا سيّما تلك التي تعيش في ظل التهديدات بسبب الحرب الأهلية أو التمرد أو المعارضة المحلية ولكنها مُنعت من الحصول على أسلحة من مصادر غربية تقليدية، فلم يكن لها سوى الصين التي سارعت بإمداد تلك الدول بأسلحة أثبتت أهميتها الكبيرة في بعض أكثر الصراعات دموية في إفريقيا، خاصة في القرن الإفريقي، حيث وفرت الحرب الأهلية المتواصلة منذ عقود في السودان وإثيوبيا سوقًا ترحب بتجار الأسلحة الأجانب.

ومن أوجه التعاون المميزة في هذا الصدد ما يعرف بمبادرات ما دون الدولة، ولامركزية اتخاذ قرار الاقتصاد الخارجي التي انتهجتها الصين مع نهاية سبعينيات القرن الماضي، وأتاحت حصول سلطات المقاطعات والسلطات البلدية في الصين على امتيازات خاصة واسعة داخل إفريقيا نتيجة اتفاقيات أبرمتها تلك المقاطعات والبلديات مع مؤسسات ومدن عديدة في إفريقيا.

أعاجيب الصين:

ويرى الكاتب أن ردة الفعل الإيجابي من قبل الحكومات الإفريقية على توسع التواجد الصيني في هذه القارة، لهو شهادة على فعالية هذا النهج الجديد في السياسة الخارجية الصينية، كما أن إعجاب الزعماء الأفارقة والمسؤولين الحكوميين ومدراء الشركات والصحفيين بأعاجيب الصين الجديدة بعد القفزة التكنولوجية والاقتصادية التي حققتها في السنوات الأخيرة، والتي كانت بمثابة مفاجأة غير متوقعة و"مريحة"، بالنسبة لهم وهو ما ترك انطباعًا بأن احتكار الغرب للتنمية قد كُسر إلى حد ما.

ومن المنظور الصيني، فإن تلك العلاقات الناشئة مع إفريقيا هي علاقات مثلى بما وفرته من تكاملات اقتصادية بين وفرة الموارد والانفتاح النسبي للأسواق على سلعها ومناخ مساعد على الاستثمار بشكل مدهش.

ثم يستعرض كريس ألدن الكيفية التي وُجدت بها الشركات الصينية الكبرى منها والصغرى في السوق الإفريقية، وسياستها الاقتصادية في تلك الدول وآثارها سواء على الشركات ذاتها أو في محيط عملها الإفريقي، موضحًا أن من هذه الشركات من صار يضطلع بمسؤولية اجتماعية وصار ينتهج سياسات تراعي وباهتمام الصحة والسلامة والبيئة، ومنها -وهو كثير - مؤسسات صينية صغيرة ومتوسطة يتعمد بعضها الاستهزاء بمعايير العمل والبيئة فضلًا عن الأنظمة المحلية في سعيها وراء الربح.

مخاوف غربية:

وهنا يعتبر الكثير من النقاد الأفارقة الحكومة الصينية ملومة أو على الأقل مسؤولة عن تصرفات هذه الشركات، رغم أن هذه الشركات في الأصل هي نتاج مبادرات تابعة لمقاطعات أو مبادرات فردية، وهي تعكس المصالح والممارسة المستمدة من البيئة المحلية في الصين التي تشهد العديد من مثل هذه التصرفات اللامسؤولة من قبل هذا النوع من الشركات بحيث تعجز الحكومة الصينية عن الوقوف في كثير من الأحيان ضد هذه السلوكيات.

ولكن تصرفات هذه الشركات أفرزت طائفة متنوعة من ردود الفعل المحلية التي قد تدفع الصين بشكل أو بآخر إلى التخلي عن مبدأ الصين الرسمي وعدم التدخل، ويتم جر بكين سواء أرادت ذلك أو لا إلى داخل السياسات الإفريقية للحفاظ على مصالحها الوليدة.

ويعرج بنا الكاتب إلى الحديث عن المخاوف الغربية من هذا التواجد الصيني الجديد في القارة السمراء فالغرب يسعى دائمًا لربط هيمنته التجارية السائدة بجدول أعمال طموح لإحداث تغيير هيكلي للقارة.

وعلى النقيض من ذلك دخلت الصين إفريقيا ببساطة لتغذية نهم الجوع الذي يشعر به اقتصاد السوق حديث النشأة لديها، وليس لها اهتمام يذكر بمشاكل إفريقيا الداخلية أو سياساتها.

فكانت النتيجة تهافتًا جديدًا على الموارد الإفريقية، بدت فيه مصالح القوى العظمى تتخذ لونًا أيديولوجيًّا وتضع رؤيتين لشراكة أجنبية مع إفريقيا وجهًا لوجه.

فكان هذا بالنسبة إلى القادة الأفارقة بمثابة نعمة غير متوقعة ترمي بشريان حياة لاقتصادات السوق المتعثرة والطغاة المتمردين على حد سواء وتعرض لهم فرصًا جديدة لجذب رؤوس الأموال الأجنبية وتعزيز نظام الأمن.

أجندة تحويلية:

وفي خضمِّ هذه المداولات حول وضع إفريقيا بالنسبة لكل من الغرب والصين، قال توني بلير رئيس الوزراء البريطاني الأسبق عام 2005 عبارته التي لا تنسى:

"إفريقيا ندبة على ضمير العالم"، وذلك قبيل انعقاد قمة الدول الثماني الاقتصادية الكبرى في العالم، وأعلن إلى جانب مستشار خزانته آنذاك جوردون براون (رئيس الوزراء البريطاني الأسبق)، أنهم ملتزمون بالأجندة التحويلية للقارة من تقديم دعم حافل لها وعملًا على ضمان إسهام القادة الغربيين والمنظمات غير الحكومية والشركات في تشكيل برنامج التغيير من خلال عملية مشاورات واسعة النطاق.

وأسفرت هذه الجهود عن التزام الجهات المانحة في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية برفع مستويات مساعدتها الخارجية حتى تبلغ الضعف بحلول عام 2010، ولكن هذه الشراكة الجديدة التي عمد الغرب على تأسيسها مع إفريقيا قوبلت بعدم رغبة القادة الأفارقة في دعم تلك العملية بإجراءات ملموسة، خاصة وأن آلية العقاب للمخالفين غير واضحة، وكان من المثير هنا أن هناك بلدان كثيرة لم تسارع للانضمام إلى هذه الآلية رغم أنها بلدان تتسم بنظم ديمقراطية واقتصادات مزدهرة مثل بوتسوانا.

جذب النخب:

وهذا التجاهل من قبل الدول الإفريقية لمبادرة مجموعة الدول الثماني يعتبره المؤلف عقبة كبيرة أمام تحقيق طموحات تلك الدول في إفريقيا، وهو ما جعل التغلغل الصيني في إفريقيا مصدر قلق عميق لدى الغرب؛ لأن الدور الذي تلعبه الصين يستند إلى اعتبارها مصدرًا بديلًا للاستثمار الأجنبي والدعم الدبلوماسي للحكومات الإفريقية التي سئمت كل أشكال التدخل الغربي، وهو ما عبر عنه وزير الخارجية الصيني تشوو نتشونج بصراحة عام 2004: "أنتم الغرب حاولتم فرض اقتصاد السوق والديمقراطية متعددة الأحزاب على هذه البلدان التي لم تكن مهيأة لذلك، ونحن -أيضًا- ضد الخطر الذي حاولتم استخدامه ضدنا".

ويشدد ألدن على أن المثير للقلق في سياسة الصين الخالية من الشروط هو أنها نجحت في جذب النخب الإفريقية بسهولة بغض النظر عن افتقارهم إلى الطابع الديمقراطي، وهذه الحالة أدت إلى وجود شكل واضح من التحدي الصيني للغرب في إفريقيا.

وفي نهاية الكتاب تحدث المؤلف عن توطيد العلاقات الصينية الإفريقية، موضحًا أن جهود الصين في هذا الاتجاه، سواء كانت محفزة للتنمية في ربوع إفريقيا، أو تقولبت، لتكون ممثلة لقوة خارجية تسعى لتحقيق مصالح ذاتية ضيقة، فهي مسألة تكشفها الأيام، وعلى أي حال، وعلى خلاف ما حدث في الماضي، الأفارقة هم من سيحدد طبيعة وعمق تغلغل الصين في الشؤون الإفريقية.

☆ ☆ ☆

"المخبر الاقتصادي"

تتبع أهمية كتاب "المخبر الاقتصادي" لمؤلفه تيم هارفورد، من كونه قبل أن يشرع في تأليف الكتاب عمد إلى الإلمام بواقع الاقتصاد العالمي عن قرب من خلال استعانته بالكفاءات والخبرات الموجودة لدى مؤسسات اقتصادية كبرى تعد بدورها رموزًا للاقتصاد العالمي، ولها إسهاماتها المباشرة وغير المباشرة التي تلقي بتأثيرها على مقدرات ذلك الاقتصاد، ومن هذه المؤسسات البنك الدولي، شركة شل، جريدة فاينانشيال تايمز.

ألغاز ورموز:

يسعى هارفورد من وراء هذا الكتاب إلى مساعدة الأفراد العاديين على رؤية العالم مثلما يراه الخبير الاقتصادي متناولًا قضايا اقتصادية مهمة نقابلها في حياتنا اليومية ولكنها مليئة بالألغاز، محاولًا مساعدة القارئ على فك رموز تلك الألغاز، وهو يفعل ذلك من منظور مبسط وميسر مما يجعل علم الاقتصاد سهلًا ومستساغًا بالنسبة للكثيرين، بحيث يرى القارئ المسائل الاقتصادية في نهاية الأمر بعين المخبر الاقتصادي لا عين الإنسان العادي، ويعمد تيم هارفورد في بداية الكتاب إلى طرح سؤال مبسط: من يدفع ثمن قهوتك؟ ومن خلال إجابته عن السؤال وشرحه للكيفية التي تُدار بها كبريات المحال في العالم، ضاربًا المثل بشركة كبرى لإدارة المقاهي على مستوى العالم. يعرف القارئ كيف يتم تحديد سعر المشروب، ولماذا تنجح بعض المقاهي ويفشل البعض الآخر، كما يعرف القارئ -أيضًا - كم العمليات التي تتم قبيل وصول مشروب القهوة بهذا الشكل السلس والممتع وهو يحتسيه في أحد شوارع المدينة الكبرى التي يقطنها.

قوة الندرة:

من ذلك يدلف هارفورد إلى الحديث عن قضايا الندرة والحدية لافتًا إلى أن "الندرة هي أهم مصادر القوة التفاوضية وكلما كانت السلعة أو الموارد أكثر ندرة كان حائزها أقدر على التفاوض وإجبار الطرف الآخر على السعر الذي يريده"، كما يتناول الحدية قائلًا: إن حدية السلع أو الموارد نسبية، ما قد يكون حديًّا اليوم، قد يكون أكثر جاذبية غدًا سواء للبائع أو المشتري، والحدية هنا يقصد بها تساوي الفوائد التي تعود من استغلال مورد ما مع سلبيات عدم استخدام ذلك المورد، ويتناول واحدة من أهم المشكلات التي تواجه الفرد كي يكون مخبرًا اقتصاديًّا وعالمًا ببواطن الأمور، فيقول إن تلك المشكلة تنحصر في كيفية التفرقة بين السلع باهظة الثمن بسبب قدرتها الطبيعية وبين السلع باهظة الثمن بسبب أسباب مصطنعة مثل التشريعات أو اللوائح أو الخداع؟ خاصة وأن كثيرًا من الصحف تتحدث عن الأرباح التي تجنيها الشركات وكأنها تعتبر هذه الأرباح علامة على أنها تغش

المستهلك. يقول: "إن هذه الصحف ليست محقة دائمًا لأن هناك سببين دائمًا ربما يدفعان متوسط الأرباح التي تجنيها صناعة مثل صناعة البنوك إلى الارتفاع، فلو كان العملاء يقدرون حقًّا قيمة الخدمة الممتازة، والسمعة الطيبة، فسيجني البنك المعني كثيرًا من النقود والأرباح وسيكون عندئذ بوسع الكتاب في الصحف أن يشتكوا من الكسب المفرط لهذا البنك أو ذاك".

صحفيون صامتون:

لو كان العملاء لا يهتمون بالخدمة الممتازة من المؤكد أن أرباح تلك البنوك لن تكون مرتفعة مقارنة بغيرها من البنوك التي تقدم مستوى أقل من الخدمة للجمهور؛ عندئذ سيصمت الصحفيون رغم عدم تغير دوافع واستراتيجيات الصناعة حيث إن الأمر الوحيد الذي تغير هو أن العملاء أصبحوا يهتمون بالخدمة الممتازة بقدر كبير، وهكذا فليس لدينا سارق ولا مسروق وإنما يُكافأ البنك ذو الخدمة الأرقى لأنه يعرض شيئًا يتميز بالندرة والتقدير في آن واحد، ومع ذلك يشير الكاتب إلى أن تلك الأرباح العالية لا تتحقق دائمًا على نحو عادل، فأحيانًا يكون غضب الصحف له ما يبرره، فقد تكون هناك ممارسات احتكارية من قبل بعض الشركات والتي قد تتمتع بتأييد وحماية حكومية لهذه السلوكيات الاحتكارية.

التجارة العادلة:

في الفصل التالي يتحدث الكاتب عن (ما لا تريد منك المتاجر أن تعرفه)، فيوضح في بادئ الأمر أن الندرة رغم أنها تعطيك القوة ولكنها ليست قوة بلا حدود، ربما كنت تمتلك متجرًا في موقع مميز جدًّا وهذا يعطيك قدرًا كبيرًا من الندرة ونظرًا لأن الموقع مميز فإن صاحبه يؤجره بسعر مرتفع وبالتالي تقوم أنت برفع أسعار منتجاتك، ولكن في النهاية ربما لا تجد إقبالًا من الزبائن على أسعارك المرتفعة تلك، فتحدث لك خسائر أو على الأقل لا تعطيك قدر الأرباح الذي تتوقعه، في مثل هذه الحالة تلجأ كبريات الشركات لكثير من الحيل للتغلب على تلك المشكلة وكسب مزيد من الزبائن ضاربًا المثل بواحدة من المقاهي المشهورة عالميًّا ولها أفرع عديدة منتشرة في أنحائه، حيث عمدت سلسلة المقاهي تلك إلى وضع علامة التجارة العادلة على منتجاتها ومن ثم قامت برفع أسعارها باطمئنان لأن الزبائن يعتقدون فعلًا أن تلك الأموال ستذهب لمساعدة مزارعي البن الكادحين، ولكن الشواهد أثبتت أن كل تلك الأموال تقريبا لم تكن تذهب إلى أي مكان سوى خزينة ذلك المقهى الكبير، ومع ذلك فهذا المبلغ القليل نسبيًّا قد يضاعف دخل مزارع البن في بلده الأصل، والذي غالبًا يكون بلدًا فقيرًا.

استراتيجيات الأسعار:

إن نسبة 90٪ من المبلغ الإضافي الذي كان يدفعه رواد ذلك المقهى لم يكن يذهب للمزارعين، وإنما يتم تبديد تلك الأموال عن طريق التكلفة العالية أو تدخل ضمن أرباح الشركة التي تدير المقهى، فجمعيات تجارة البن العادلة تقدم وعودها للمنتجين وليس للمستهلكين، فإذا اشتريت قهوة أو أي منتج يحمل علامة التجارة العادلة تكون ضمنت بذلك أن منتجي القهوة سيحصلون على سعر جيد، ولكن لا يوجد ما يضمن حصولك "أنت" على سعر جيد. ومن التجارة العادلة يتحول الكاتب إلى الحديث عن الاستراتيجيات التي تتبعها الشركات لتحديد أسعار منتجاتها، وهي: 1 - استهداف الفرد، أي تقييم كل مستهلك على حدة ثم نحصل منه على الثمن وفقًا للمبلغ الذي يكون قادرًا على دفعه، وهي لا تلقى رواجا بالنسبة لكثير من المنتجات. 2 - استهداف الجماعة، وتعني تقديم أسعار مختلفة إلى أفراد جماعات محددة، وهي طريقة لم تلقَ اعتراضًا كبيرًا من الناس. 3 - "إدانة الذات" وهي الأكثر شيوعًا وقبولًا، وتعني إدخال الزبائن في فخ أنهم ليسوا حساسين تجاه الأسعار، ولجعل هؤلاء المستهلكين يكشفون عن أنفسهم بعرض المقهى على سبيل المثال منتجات تختلف على الأقل عن بعضها اختلافًا طفيفًا، أو تقوم بتغيير المنتج بتغيير الموقع، مثلًا الساندويتش الذي يباع في كشك بمحطة المترو ليس بجودة ذلك الساندويتش الذي يباع في أحد المتاجر الكبيرة التي تقع خارج المدينة والذي يشبهه تمامًا من الناحية الشكلية فقط؛ في هذه الحالة لن تكون المطالبة بسعر أعلى هي الاستراتيجية التي تجعلني أدين نفسي بعدم حساسيتي للأسعار، ولكن المقهى يجعلني أتحمل تكاليف نفقاته، ومع ذلك يقول الكاتب "أعتقد أنه من الأسلم القول إن الشركات تتحفز دائمًا للطرق التي تحقق لها أقصى استفادة ممكنة من أي من قوى الندرة التي تملكها وتحديد سعر مستهدف يعد أكثر الطرق التي تستخدمها الشركات شيوعًا في سبيل تحقيق ذلك".

الهوس الإلكتروني:

يعرج الكاتب إلى الحديث عن عالم التجارة الإلكترونية محاولًا شرح آلياته للقارئ في فصل بعنوان "الجنون العقلاني" موضحًا أن جراهام بيلي وهو شريك في إحدى شركات الاستشارات الإدارية قال في العام 1998 "أتخيل أنه في غضون سنوات قليلة سيكون هناك بوابتان فقط أو ثلاث بوابات إنترنت كبيرة يدخل إليها كل مستخدمي الإنترنت، ثم يتم توجيههم من خلالها إلى ما يريدون تصفحه عبر الشبكة، سيجلب هذا مئات المليارات من الدولارات فإذا أردت أن تنجح يجب أن تكون أحد هذه البوابات". يقول المؤلف إنه لم يصدق تلك المقولة حين سمعها، لكن بالفعل شهد عام 1998 تصاعد موجة الهوس بشركات التجارة عبر الإنترنت، وواحدة من أشهر هذه الشركات مكتبة بيع الكتب على الإنترنت "أمازون دوت كوم" التي بدأت في بيع الكتب عام 1995 وفي عام 2003 وصل حجم مبيعاتها إلى ما يزيد عن خمسة مليارات من الدولارات.

معرفة الأسباب:

يقول هارفورد: "قفز في عام 1999 سعر سهم الشركة إلى أكثر من 100 دولار عندما شاع حينها أن قيمة الشركة قد قُدرت بما يزيد عن قيمة كل المكتبات التقليدية لبيع الكتب في العالم، ولكن خلال عام 2000 تراجع سعر الأسهم لتصل إلى 18 دولارًا للسهم بل أقل، وفي صيف عام 2001 كان السهم يباع مقابل حوالي ثمانية دولارات، وفي عام 2002 نشرت آراء إيجابية في حق الشركة في عدة مقالات في الصحف الاقتصادية ومع ذلك فقد استمر سعر الأسهم أقل من سعر طرحها للاكتتاب عند 18 دولارًا وبعد ذلك أخذت الأسهم تستعيد قوتها منذ ذلك الحين ووصل سعر السهم إلى 40 دولارًا" فأيهما كان السعر الخطأ؟ 100 دولار أم ثمانية دولارات أم كلاهما؟ ومن خلال إجابة المؤلف على هذا التساؤل يتبين للقارئ العديد من الأدوات التي تحكم تجارة الأسهم والتجارة الإلكترونية باعتبارهما من أهم مجالات التجارة في عالمنا المعاصر، إضافة إلى غيرها من القضايا الاقتصادية التي يسعى المؤلف إلى تبسيطها لقرائه كي يصبح القارئ بمجرد قراءة الكتاب بمثابة مخبر اقتصادي يعرف الأسباب الظاهرة والباطنة لكثير من الظواهر الاقتصادية التي يعايشها في حياته اليومية..

"الجذور العربية للرأسمالية الأوربية"

يكشف جين هيل في كتابه "الجذور العربية للرأسمالية الأوربية" عن دور الإسلام في إطلاق النهضة الاقتصادية الأوربية في القرن الثاني عشر، ويظهر -أيضًا - قدرة المسلمين على تحقيق إنجازاتهم التجارية الباهرة في القرون الوسطى المبكرة، لافتًا إلى أنهم كانوا فائقي البراعة في أقلمة عقائد ديانتهم وتركيبها وفق ما يمليه عليهم الواقع الاقتصادي، وهو ما انعكس على الحياة الاقتصادية الأوربية في فترات لاحقة، ويستند هيل في رؤيته تلك على حجج وقائع تاريخية مهمة، منها:

1- لم يكن المسلمون سببًا وراء دخول أوربا الغربية في العصور المظلمة من القرن الأول حتى الثالث الهجري (8 -9 الميلادي) كما ادعى بعض المؤرخين، بل إنهم بعد عدة قرون من القرن الخامس حتى السابع الهجري (11-13 الميلادي) أمّنوا الطلب الاقتصادي الأساسي بالإضافة إلى العديد من الأدوات التجارية التي ساهمت في انتشال القارة الأوربية من العصور المظلمة، ومن خلال قيامهم بذلك نُقلت إلى الغرب العديد من أدوات الرأسمالية الحديثة.

2 - ازدهرت الدولة الإسلامية، بينما باتت أوربا الغربية الكارولينجية غارقة في مستنقع النظام الإقطاعي في القرون الوسطى، لا سيّما أن الفقهاء المسلمين كانوا أكثر مهارة فكريًّا من نظرائهم المسيحيين في تطوير أساسات منطقية تأويلية تكيف عقائدهم الدينية الفردية مع المعاملات الرأسمالية التي تدفع الفائدة (المصنفة عند كليهما تحت خانة الربا) من أجل مواكبة المتطلبات التجارية المعاصرة.

3 - حين خرجت أوربا المسيحية أخيرًا من العصور المظلمة كان خلاصها في جزء كبير منه عائدًا إلى المتطلبات المتزايدة لتجارة المسلمين، وذلك لأن التجار الأوربيين استعاروا التركيبات المشتركة والأدوات المصرفية والمعيارية الأخرى التي ابتكرها الفقهاء المسلمون ليكيفوا تحريمهم للربا مع متطلبات السوق في التجارة المتطورة باستمرار، بالتالي نقلت هذه التجارة أول أدواتها الرأسمالية إلى النهضة الأوربية، ويؤكد الكاتب أن هذا النقل للتكنولوجيا التجارية ولّد بدوره تحولًا اقتصاديًّا ضخمًا، ومع استعادة اقتصاد أوربا الغربية لدافع الربح عند تجارة المحليين انطلق في القرن الخامس حتى السابع الهجري (11 -13 الميلادي) في هيمنة بارزة سهلتها أدوات التجارة الشرقية الأولى التي تحولت لاحقًا إلى أدوات تجارية غربية حديثة، ويوضح هيك أن تلك الإنجازات التي حققها المسلمون لم تكن عرضية ولكن هناك أساسات اجتماعية واقتصادية وجوهرية هي التي جعلت تلك الإنجازات الهائلة ممكنة وهو ما يحاول كاتبنا تفسيره عبر صفحات الكتاب، فنجده يخرج أولًا إلى حالة الركود في أوربا المسيحية خلال العصور الوسطى ويعمد إلى تفسير العوامل التي دمرت روح العمل في بلاد الغال في العصور الوسطى، ويحددها في ما يلي: عوامل اجتماعية واقتصادية، مع بداية القرن الثالث الميلادي شهدت الدولة الرومانية تطورات مأساوية على الصعيدين السياسي والمادي، إذ بدأ الوهن والطاعون والحرب الأهلية والتعديات البربرية بإضعاف البنى في كل أنحاء

الإمبراطورية فأصبح العمل نادرًا للغاية، وترك العمال أعمالهم بسبب انعدام الأمن وتراجعت معظم النشاطات التجارية، وفي الوقت نفسه تطلب الأمر جيشًا ضخمًا ليكبح التهديدات المتصاعدة على الأمن الخارجي، وهو ما يتطلب زيادة الضرائب بأسلوب متزايد السرعة فأصبحت عبئًا مرهقًا.

عاصمة جديدة:

ويضيف الكاتب: فضلًا عن كل ما سبق فقد تلقى اقتصاد الإمبراطورية الرومانية الضربة القاضية على يد قرار قسطنطين الأول في أواسط القرن الرابع الميلادي بإنشاء عاصمة جديدة في القسطنطينية، فبالتالي قسم الإمبراطورية السابقة إلى قسمين أخذ معه بعض أغنى المقاطعات، منذ ذلك الوقت أصبح سقوط روما مسألة وقت لا أكثر. وفقًا لذلك، وكما يشير الكاتب بحلول القرن الأول الهجري، السابع الميلادي كانت الإمبراطورية الغربية القديمة في المراحل الأخيرة من تفككها السياسي والاقتصادي فقد دُمرت قاعدتها الصناعية بالكامل وبلغ غطاؤها التجاري حالة يرثى لها، ويعرج جين هيك إلى أن دور الكنيسة في ذلك التدهور قد بدأ عندما صارت الأمور في الكنيسة الغربية خاضعة لتشارلز مارتيل في القرن الثامن الميلادي، هذا الخضوع أدى إلى هلاك أوربا الغربية بعدما بدأت الكنيسة تدريجيًّا تلعب دورًا أكثر قيادية في إدارة الشؤون الدنيوية للدولة، وهذا أدى إلى ظهور دراماتيكي للثيوقراطية في أوربا المسيحية، ما كان له آثار وتداعيات اجتماعية واقتصادية على مستوى القارة بأسرها، حيث مثلت تلك الثيوقراطية أساسًا عقائديًّا للخراب الاقتصادي القائم على التزام الكنيسة بفضائل الفقر الدائمة وغيرها من النظريات التي أتت على البقية الباقية من الاقتصاد الأوربي، ويستعرض الكاتب بالتحليل النشاطات الاقتصادية الرنانة التي شهدتها الإمبراطورية الإسلامية آنذاك ومفردات الحياة الاقتصادية والتراكمات الكبيرة للرأسمال السائل داخل الأراضي التي تم فتحها مع بروز عدد ضخم من اليد العاملة المنتجة والاقتصادية واحتشاد التجار في المراكز المدينية المتوسعة بسرعة فائقة كل هذا أدى إلى نشوء هياكل أساسية للتسهيلات الصناعية بهدف سد الاحتياجات المتزايدة إلى الأسلحة والأدوات والسلع المنزلية، كما ظهرت الحاجة الماسة إلى المواد الغذائية ما أدى إلى امتلاك العقارات والخوض في مشاريع زراعية تنطوي على المجازفة، بالإضافة إلى ذلك استفادت خدمة التجارة الداخلية كثيرًا، حيث تم شراء كميات هائلة من السلع الزراعية بالجملة من منتجين ريفيين من أجل بيعها لاحقًا بالمفرق لأعداد المدنيين المتزايدة. ويعمد جين إلى تناول تطور التجارة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ثم الأمويين انتقالًا إلى ذروة التجارة في العصر العباسي، حيث مثلت بغداد نقطة التقاء التجارة العالمية وكانت في موقع مثالي لتشكل مركز ترانزيت ضخمًا، ومركز حكم آمنًا في آنٍ معًا، حيث احتوت الدولة الإسلامية في ذروة العصر العباسي على واحدة من أكبر وحدات الأراضي الواقعة تحت إدارة واحدة وتحت حكم العباسيين. وفي ذلك الوقت انتشرت سريعًا شبكة تجارة دولية ضخمة انطلاقًا من بغداد، وقامت على إرث العقائد الاقتصادية الإسلامية التي أنتجت

حصيلة اقتصادية حيوية مكنت دار الإسلام لاحقًا من أن تكون الدولة التجارية الأكثر ديناميكية وتأثيرًا التي عرفها العالم حتى اليوم. ثم يتحدث هيك عن التطبيق العملي لعقيدة السوق الحرة الإسلامية لافتًا إلى أن هناك أدلة مذكورة تؤكد أن دافع الربح كان القوة الفعلية الأولى خلف النجاح المنقطع النظير للهجوم التجاري الإسلامي العالمي، وهو إلهام بشري جوهري يتميز بالرغبة في الحصول على ملكيات خاصة وتحقيق ربح رأسمالي بحسب ما يقول المؤلف، وبسبب هذه الديناميكية التحفيزية الأساسية ازدهرت مجموعة من الأدوات المالية الإبداعية التي تقوم على الشريعة الإسلامية وكانت في حالة تطور مستمر منذ عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد أثرت المبادرة الفطرية عند مسلمي القرون الوسطى التي خففها التحريم الديني للعمليات الأولية التي تحمل الفائدة في الارتقاء التجاري لدولتهم أكثر من أي دافع آخر. في ذات السياق يحدثنا المؤلف عن علاقة الإسلام بالانتعاش المسيحي محللًا النهضة الاقتصادية الأوربية في القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي. حيث شهدت هذه الفترة تغيرات عميقة وتدريجية في النظام الاقتصادي الذي قامت عليه حضارة أوربا الغربية، فلم تتوسع تجارتها حول حوض المتوسط فقط، بل إلى أبعد من ذلك بكثير فيما ازدادت كميات السلع المتاجر بها ازديادًا ملحوظًا وتبعًا للتحليل الذي انتهى إليه المؤلف فإن المسلمين لجؤوا إلى أوربا نظرًا لحاجتهم إلى موارد استراتيجية في ذلك الوقت، لكي يجمعوا المداخيل التي يحتاجونها لتجهيز آلاتهم الحربية والصناعية. يضيف جين هيك: ولكن لهذه التجارة بدورها تأثيرات اقتصادية انعكست على عديد من الدول، ما أدى إلى تغييرات شديدة الأهمية في الثراء النسبي وأساسات القوة التجارية والسياسية في جميع أنحاء المنطقة المتوسطية، وحفزت التجارة المزدهرة مع الدول الإسلامية بشكل كبير، الاقتصاديات الأوربية الغربية المحتضرة آنذاك، فقد أدت حاجة هذه الاقتصاديات إلى المواد الخام إلى قدوم السفن الغربية إلى المرافئ الشرقية وعوضًا عن العودة إلى موطنهم صفر اليدين، أخذ هؤلاء التجار معهم السلع المصنعة والمنتجات الثمينة وسلع الرفاهية. ثم يستعرض الكاتب التحولات الكبرى التي شهدتها التجارة الغربية، اعتمادًا على الممارسة التجارية الشرقية ويوضح ذلك قائلًا: إن التقنيات التجارية الجديدة جدًّا التي شهدتها أوربا في القرون الوسطى، ترجع إلى انتصار الأفكار والمصطلحات التجارية التي كان يستخدمها المسلمون، وهو ما يبرهن عليه بأن كثيرًا من المفردات التجارية وأسماء السلع الأساسية هناك قد تم تغريبها بما أدى إلى سيادة المفردات والأفكار التجارية العربية، ثم يعود الكاتب ليؤكد أن الشواهد على دور المسلمين في بعث وتجديد النشاط الاقتصادي في أوربا ماثلة أمام كل من يهتم بدراسة أو قراءة تاريخ أوربا في العصور الوسطى، وانتقالها إلى النظام الرأسمالي حتى لو تغافلت ثلة أو كثرة من المؤرخين عن ذلك سعيًا لتحقيق أغراض معينة.

☆ ☆ ☆

تاریخ

"الصراع على سيادة أوربا: 1818 – 1918"

يعد كتاب "الصراع على سيادة أوربا: 1818 - 1918"، لمؤلفه أ. ج. ب تايلور أحد المآثر المجيدة لكتابة التاريخ التي صدرت في القرن العشرين، ومن خلال كتابه سعى تايلور إلى تسليط الضوء على كيفية قيام ميزان القوة المتغير بتحديد مسار التاريخ الأوربي خلال المرحلة الأخيرة من مراحل كون أوربا مركزًا للعالم.

يقول تايلور إنه في عام 1848 مع بداية أحداث هذا الكتاب لم يكن قد مضى على سعي نابليون لامتلاك السيادة سوى ثلاثين سنة، وقد شاع افتراض أنه من شأن فرنسا أن تجدد المحاولة، وعملية تأسيس الإمبراطورية الثانية بدت مسوّغة لهذا الهاجس غير أن نابليون الثالث لم يكن يتمتع بأي شيء ملكي أو إمبراطوري عدا الاسم، إضافة إلى أن توازن القوى نجا من تحديه دون أن يصاب ولو بخدش، وما لبث العرض الفرنسي أن انتهى في 1870.

توازن القوى:

ثمة توازن جديد أعقب ذلك، لكن مُضي أكثر من 30 سنة من السلام بدا كافيًا لتقوم ألمانيا باحتلال موقع فرنسا بوصفها القوة المحتملة القاهرة لأوربا، فالحرب العالمية الأولى لم تكن من وجهة نظر أعداء ألمانيا بدافع هزيمتها سياسياً وعسكرياً. بل حربًا للحفاظ على (أو لاستعادة توازن القوى)؛ غير أن هذا التوازن لم تتم استعادته رغم إلحاق الهزيمة بألمانيا لأنه لو بقيت الحرب محصورة بأوربا لفازت ألمانيا، كون الأخيرة لم تهزم إلا لأن الولايات المتحدة دخلت الحرب.

ويشير تايلور إلى أن تقديم التاريخ الدولي بوصفه مجرد سجل لتوازن القوى أقدمت على قطعه تحديات غازٍ منفرد هو "أمر خاطئ"، انطلاقًا من أن الناس ظلوا يحاولون التعويل على قانون أخلاقي شامل قدر تعويلهم على القوة المسلحة الطاغية للتحكم بالدولة السيادية، وظلوا يسعون إلى امتلاك "أيديولوجيا تحل محل عبادة الطاغوت"، وقد تمثلت تلك الأيديولوجيا في نهاية القرن الثامن عشر بأفكار الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان، غير أن الأيديولوجيات بقيت عنصرًا ثانويًّا في موازين القوى في السنوات السبعين الممتدة من 1848، 1918، ويؤكد تايلور على ذلك بالقول إن توازن القوى يفعل فعله المحسوب بدقة، وبدا هذا التوازن مكافئًا سياسيًّا للقوانين الاقتصادية على صعيد الحركة الذاتية، وإذا سعى كل شخص إلى تحقيق مصلحته فإن الجميع سيزدهرون، وإذا سعت كل دولة إلى تحقيق مصلحتها فإن جميع الدول ستكون سالمة وآمنة.

مواطن الخلل:

يرى تايلور أن الحرب العالمية أبرزت مواطن الخلل في قوانين كل من الاقتصاد والسياسة، حيث تعطلت القوانين ذاتية الحركة وسارعت الاجتماعات الاشتراكية الأممية إلى إعلان أخلاق جديدة تكف في ظلها الدول السيادية عن الوجود، وما إن نجح البلاشفة في الاستيلاء على السلطة في روسيا، حتى ارتدت هذه المنظومة الأخلاقية ثوبًا عمليًّا، إلا أن الليبراليين أنفسهم ما لبثوا أن توقفوا هم أنفسهم عن احترام القوانين التي كان النظام الليبرالي في أوربا قد تسيد على أساسها وتمامًا مثلما قاموا بتدوير زوايا نظامهم الاقتصادي بتدابير الأمن الاجتماعي ودولة الرخاء، عقدوا الآمال على تدوير زوايا السيادة بنوع من المرجعية الدولية القائمة على الموافقة لا على القهر أو على أيديولوجيا كونية شاملة، وتمثل رمزا هاتين النظريتين الجديتين في كل من لينين وولسن، حيث سارعت كل من الأممية الشيوعية، وعصبة الأمم إلى إعلان نهاية توازن القوى، وبات السؤال الوحيد متمثلًا بما إذا كان سيطاح بهذا التوازن بالثورة أم أنه سيتلاشى شيئًا فشيئًا دونما جلبة؟

ويعود تايلور ليؤكد أن التوازن الأوربي بقي نافذًا من دون إعاقة على امتداد السنوات السبعين الممتدة بين تاريخ سقوط ميترنيخ وسلسلة التنصلات الصادرة عن لينين وولسن من هذا التوازن، ومع ذلك فإن أوربا لم تكن مدينة بسلامها لتوازن القوى وحده، فمع أن أوربا كانت فارضة هيبتها على العالم ومالكة للحضارة الخلاقة الوحيدة، فإن الأوربيين ظلوا يتطلعون إلى خارج قارتهم. حتى إسبانيا وفرنسا كانتا قد انشغلتا بطموحات في ما وراء البحار أيام الفتوحات الأوربية، أما في القرن التاسع عشر فكانت كل من بريطانيا العظمى وروسيا ستفضلان أن تديرا ظهريهما إلى أوربا وكثيرًا ما فعلتا ذلك، وقد كانت جوائزها في الهند وإفريقيا كما في تجارة العالم كله، بالنسبة للأولى، وفي آسيا الوسطى أولًا إضافة إلى شرق آسيا بعد ذلك، بالنسبة إلى الثانية بقيت فرنسا متطلعة نحو شمال إفريقيا، ثم ما لبثت إيطاليا أن قلدتها.

أما ألمانيا فهي مدينة بانتصاراتها بتحررها من مثل هذه الانشغالات، وراحت تحلم هي الأخرى بأن تصبح قوة عالمية. وحدها الإمبراطورية النمساوية كانت بريئة من الانشغال بخارج أوربا، ولم يكن هذا دليل قوة بل علامة ضعف، وبالإجمال يمكن القول بأن علاقات أوربا مع العالم الخارجي لا تظهر أهميتها إلا حين تكون مؤثرة في العلاقات بين القوى العظمى ومعدّلة للتوازن في ما بينها.

صعود وهبوط:

يلفت تايلور إلى أنه بالرغم من أن القوى العظمى بقيت هي نفسها فإنها عاشت حالات من الصعود والهبوط، ففرنسا كسبت أرضًا في 1860 وخسرت مزيدًا منها في 1871، خسرت النمسا في 1859 و1966 مساحات أكبر مما كسبتها في 1878، أما روسيا فقد استعادت في 1878 ما كانت قد خسرته في 1856.

ونجح الجميع، باستثناء النمسا والمجر، في كسب مساحات واسعة من الأراضي خارج أوربا في السنوات الثلاثين التي أعقبت مؤتمر برلين، وبعد ذلك حدثت تغيرات أبطأ وأقل لفتًا للأنظار مهدت لحصول انقلاب جذري في توازن القوى، وتمثلت في التغييرات في مجالات مختلفة مثل السكان، والموارد الاقتصادية، والبنية الاقتصادية، والتي كانت تجري جميعًا على قدم وساق.

وهذه المقدمة تحاول رسم الإطار الخلفي الذي كانت السياسة تصول فيه وتجول، وكما يشي الاسم فإن القوى العظمى لم تكن إلا منظمات قائمة على القوة، أي على الحرب كملاذ أخير، قد تكون ذات أغراض أخرى مثل رفاهية شعوبها أو جلال قدر حكامها، غير أن المحك الأساسي لكونها قوى عظمى بقي متمثلًا بقدرتها على شن الحروب وخوضها غير أنه في الحقبة التي أعقبت 1848 بقي هذا المحك محكًا بسيطًا، فعلى الرغم من تطور سلاح المدفعية، بقي سلاح المشاة هو العامل الحاسم في تحديد حصيلة المعركة، وهذا بلا شك يرتبط بالحجم السكاني لكل دولة.

تغيير مدهش:

يُبين تايلور أن التغير الأكثر إثارة للدهشة، في هذه الفترة التاريخية، هو الطارئ على وضع فرنسا، التي بقيت على امتداد قرون من الزمن البلد الأغنى سكانًا في أوربا وحتى في 1850 كانت متفوقة على سائر القوى العظمى سكانيًّا باستثناء روسيا، أما مع حلول 1910، صارت البلد الأفقر سكانًا بعد إيطاليا، كانت تشكل 14 في المئة من أوربا سنة 1850، ثم باتت أقل من 10 في المئة بعد خمسين سنة، ومقابل ذلك فإن بروسيا كانت 5 في المئة سكانيًّا عام 1850، وكانت ألمانيا 15 بالمئة في 1915، هذه الأرقام منطوية على نوع من المغزى النفسي.

راح الناس يفكرون من منطلقات إحصائية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقوة فرنسا المتضائلة ساهمت في مضاعفة فقدان الثقة الذي ربما كان السبب، وبالفعل فإن الأرقام كانت أكثر إثارة للكرب من الواقع ففرنسا ذات معدلات الولادة المتدنية كانت متمتعة بكتلة سكانية أكثر توازنًا، وعلى الصعيد النسبي خصوصًا، بعدد أكبر عن الرجال في سن الخدمة العسكرية من ألمانيا مما أبقاها قادرة على سوق أعداد تكاد أن تكون موازية إلى ساحات المعارك مع تحمل أعداد مكافئة تقريبًا من الإصابات.

هنا يشير تايلور إلى أن الناس كانوا قد بدؤوا سلفًا يفترضون أن المنحنى الإحصائي كان سيدوم بعناد، وهو افتراض قلما أكدت الأحداث صحته، ذلك ما جعل مستقبل فرنسا يبدو ملتبسًا غير أن الألمان كانوا -بينما بقي الفرنسيون عاكفين على مقارنة مستقبلهم بمستقبل ألمانيا - مشغولين بمستقبل روسيا السكاني، ففيما كانت أوربا كلها شاعرة بتفوق ألمانيا، لم تكن الأخيرة ترى سوى الشبح الروسي الأبعد، وراح ألمان كثيرون يفكرون باستباق الخطر الروسي وقطع الطريق عليه على نحو من الجدية كادت توازي جدية تفكير آخرين دأبوا على التخطيط للتضافر من أجل التصدي لألمانيا، ثم يشير الكاتب إلى مفارقة أخرى هامة في معادلات وموازين القوى في

ذلك الوقت، وهي أن الأسلحة البحرية أغلى من الجيوش البرية، وكانت جيوش المتطوعين أغلى من الجيوش المؤلفة من المجندي؛ ذلك هو السبب الكامن وراء ظهور بريطانيا العظمى بوصفها الأكثر عسكرة بين القوى العظمى.

التحكم بالعالم:

يعرج الكاتب إلى الحرب العالمية الأولى باعتبارها كانت أوضح المحكات لاختبار موازين القوى العظمى في ذلك الوقت، بحيث يتم تقويم الموارد الاقتصادية انطلاقًا من أهميتها إلى جانب الموارد البشرية، فيتناول تاريخ القوة الصناعية في أوربا منذ 1850 وحتى 1919 قائلًا إنه "في العام 1850 كانت بريطانيا العظمى القوى الصناعية الوحيدة ذات الشأن، أما فرنسا فكانت الدولة الأوربية الوحيدة التي كانت الصناعة تعني فيها شيئًا، ومع حلول 1870 تمكنت ألمانيا من التفوق على فرنسا في إنتاج الفحم على الرغم من أن الأخيرة ظلت محافظة على مكانتها في مادتي الحديد والفولاذ".

من وجهة النظر الاقتصادية كانت الحرب الفرنسية الروسية حربًا بين ندّين، أما في عهد بسمارك بين 1971، 1890، فإن الألمان صاروا سابقين لفرنسا، باتوا على مستوى بريطانيا العظمى في العقد الأخير من القرن، فيما نجحت صناعتهم الثقيلة في تجاوز نظيرتها البريطانية في القرن العشرين.

ويستعرض تايلور في استعراضه لموازين القوى والصراعات التي سادت أوربا حتى يناير 1918، في ذلك الوقت توقفت أوربا عن أن تكون مركز العالم، وذابت المنافسات الأوربية في بوتقة حرب عالمية، كما كانت حروب البلقان من قبل قد فتحت الطريق أمام الصراع فيما بين القوى العظمى. جميع الطموحات والمطامع القديمة، بدءًا بالإلزاس واللورين وانتهاءً بالمستعمرات، باتت تافهة وثانوية، مقارنة بالصراع الجديد من أجل التحكم بالعالم، حتى الهدف الألماني المتمثل بالسيطرة على أوربا أصبح باليًا ولى زمانه.

تقزيم أوربا:

أدى بروز قوتين عالميتين؛ الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، وهما متنافستان عنيدتان وإن على نحو لا شعوري، إلى تقزيم أوربا. كان هذا أكثر من مجرد منافسة بين قوتين؛ كان تنافسًا بين مثاليتين. كان الطرفان، كلاهما، يحلمان بـ"عالم واحد"، عالم بات خاليًا من الصراعات في ما بين الدول. الثورة العالمية الشاملة من ناحية والنقاط الأربع عشرة من الناحية المقابلة مثلتا برنامجين طوباويين (حالمين) لتحقيق سلام دائم. منذ تعرُّض الثورة الفرنسية للهزيمة كانت أوربا قد دأبت على إدارة شؤونها بمجرد التوفيق بين مطالب الدول السيادية في ما بينها لدى بروز هذه المطالب على السطح. في 1914 شعرت ألمانيا بأنها متوافرة على ما يكفي من القوة لتحدي هذا النظام وكانت قد استهدفت إبداله بهيمنتها على الآخرين. كانت

أوربا، وفق تايلور، ستحقق وحدتها في إهاب ألمانيا كبرى، الطريقة الوحيدة التي كان من شأنها أن تجعل من القارة قوة عالمية، قادرة على الصمود في وجه الآخرين. على الرغم من أن ألمانيا قد هُزمت بهامش ضيق، فإن التركة التي أورثتها محاولتها تجسدت متمثلة بكل من البلشفية من جهة ونزعة التدخل الأمريكية في أوربا من جهة ثانية. أيُّ توازن قوة جديد، إذا ما تسنى له أن يتحقق، كان من شأنه أن يصبح شاملًا للعالم؛ كان من شأنه ألا يبقى مسألة حدود أوربية. حيث تم تجاوز أوربا؛ وفي يناير 1918 ثمة منافسة انطلقت بين الشيوعية والديمقراطية الليبرالية ظلت متواصلة إلى منتصف القرن الماضي، وأثرت بشكل بالغ على موازين القوى داخل القارة ومن ثم على كافة أرجاء العالم الذي ما زال يدور في الفلك الغربي.

المسألة الإيطالية:

ظلت المسألة الإيطالية تقض مضجع نابليون منذ توليه منصب رئاسة الجمهورية في 1848، وكانت هذه، في جزء منها، مسألة مشاعر. كان الفرنسيون يعرفون إيطاليا؛ أما ألمانيا فكانت غريبة وغير محببة بنظرهم. ظل تحرير إيطاليا يدغدغ مشاعر الفرنسيين أكثر حتى مما كان يفعل استرجاع ضفة الراين اليسرى، والتشديد على إيطاليا كان -أيضًا - مسألة حسابية بالنسبة لنابليون فقد كان مؤمنًا بأن وضعه لن يكون آمنًا بالمطلق "ما لم تكن الإمبراطورية قد سيطرت على علتها الأصلية، الوراثية، المقدَّرة سلفًا، علة الرد على معاهدات 1815". تصور، أو زعم أنه فعل، أن من شأنه تسوية 1815، ما إن يطاح بها في إيطاليا، أن تتهاوى في أمكنة أخرى في أوربا دون أي حروب جديدة، ونظرًا لأن مترنيخ كان متبنيًا القناعة ذاتها، فإن هذه كانت نظرية مقبولة بل وحتى معقولة. قبل إطلاق التطور الهائل للصناعة الألمانية منتصف القرن التاسع عشر، ومن المؤكد أن إيطاليا كانت أكثر من مجرد قوة توازن أوربية مقارنةً مع حالها في ما بعد.

مكان تحت الشمس:

تمخض سقوط مترنيخ في الثورات التي اكتسحت أوربا في 1848 عن تدشين حقبة قومية غير مسبوقة تكللت بانهيار أسر هابسبرج، رومانوف وهوهنزولرن الحاكمة في نهاية الحرب العالمية الأولى. وعلى امتداد فترة الأعوام السبعين الفاصلة التي هي موضوع هذا الكتاب، شهدت حدود أوربا تغيُّرا مسرحيًّا مثيرًا عمّا كانت عليه تلك المقررة في فيينا سنة 1915 حيث تولى كافور ريادة حركة الريزورجيمنتو (Risorgimento) في إيطاليا؛ ونجح بسمارك في إنجاز توحيد ألمانيا؛ في حين بقيت القوى العظمى متزاحمة على مكان تحت الشمس في إفريقيا.

☆ ☆ ☆

"المسلمون في التاريخ الأمريكي: إرث منسي"

يقدم كتاب "المسلمون في التاريخ الأمريكي: إرث منسي"، لمؤلفه جيرالد ف. ديركس صورة شاملة ومتوازنة لتاريخ المسلمين في الولايات المتحدة بشكل خاص والأمريكيين بشكل عام، ويعود إلى بدايات الإسهام الإسلامي في اكتشاف الأمريكتين، فيرجع بذلك إلى ما قبل كولومبس، ويؤرخ لاستمرار الحضور الإسلامي من خلال الأفارقة والمستعبدين لعدة قرون، وينتهي إلى العصر الحديث حيث يبرز المشهد الإسلامي في الولايات المتحدة بأفراده وتنظيماته ومشكلاته، معتمدًا في ذلك على مصادر عديدة وموثوقة، ما يجعل من كتابه مرجعًا مهمًّا لمن يريد التعرف على إسهامات إسلامية يقل من يعرفها ومجتمعات إسلامية يجدر بالجميع أن يعرفوها.

يسعى إلى تحقيق عدة أهداف يأتي على رأسها توسيع فهم الجمهور الأمريكي (كونه أمريكيًّا ويعمل مدرسًا في إحدى جامعات أمريكا) للدور الأساسي الذي لعبه المسلمون عبر التاريخ الأمريكي، خاصة أن تاريخ الإسلام في أمريكا هو للأسف حكاية منسية إلى حد كبير، موروث يمكن إعادة تركيبه فقط عبر بحث متأنٍ ومن خلال عملية نخل لتفاصيل تاريخية وأثرية كثيرًا ما تتعرض للتجاهل.

قطع متناثرة:

يقول ديركس إن الصورة التي تتجلى أمامنا من بين القطع المتناثرة توحي بتاريخ مركب من العلاقات الداخلية المتكررة بين المسلمين والأمريكيين، علاقات تمتد زمنيًا إلى نهاية القرن التاسع حين قامت أول رحلة موثقة من الأندلس المسلمة إلى الأمريكتين.

ولم يتوقف الاتصال الإسلامي بأمريكا لقرون عديدة منذ ذلك الحين، إلى رحلة كولومبس والاستكشاف الإسباني للأمريكتين، حيث أبحر المسلمون مع كولومبس وكانوا جزءًا أساسيًّا من الاستكشاف الإسباني في ما بعد، ومع ذلك فإن التواريخ المعاصرة قلما تهتم بالإشارة إلى أن الكثير من أولئك المستكشفين "الإسبان" كانوا مسلمين من أصول عربية وبربرية، بيد أن المسلمين سواء كانوا مستكشفين أو تجارًا أو مستوطنين لم يكونوا وحدهم الذين جاؤوا بالإسلام إلى أمريكا.

ويشير المؤلف إلى أن معدل الحضور الإسلامي في أمريكا ارتفع على نحو استثنائي مع جرائم الإتجار بالعبيد ما بين إفريقيا وأمريكا، ابتداء من أوائل القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر، حين استطاعت تجارة العبيد الإلقاء بملايين الأفارقة المسلمين في قيود العبودية على الشواطئ الأمريكية، ومن بين تلك الملايين من المسلمين المستعبدين الذين سجنوا وعذبوا على التراب الأمريكي، ربما

يكون الأشهر هو كونتاكنتي، الذي كان من مسلمي الماندنيكا الذين خلدهم أليكس هيلي في روايته "الجذور".

طقس كنسي:

يوضح ديركس أن أولئك المسلمين المستعبدين تعرضوا في معظم الوقت لاضطهاد شديد بسبب دينهم ومنعوا من نقل ذلك الدين إلى أولادهم، ومع ذلك فإن بقايا من العقيدة الإسلامية ظلت حية تنتقل من جيل إلى جيل بين أحفادهم من الأفارقة الأمريكان، بل إن من تلك البقايا الإسلامية ما انعكس على الأقل في طقس كنسي تطور لاحقًا وهو ما تنفرد به الديانة المسيحية في صورتها الإفريقية الأمريكية.

ويلفت إلى أن كثيرًا من تلك المجموعات الإسلامية ممن سبقوا كولومبس من مستكشفين وتجار ومستوطنين "إسبان" وعبيد أفارقة، تبدو وقد اتصلت في الغالب من خلال التزاوج مع قبائل الهنود الأمريكيين وفي بعض الأحيان امتصت في تلك القبائل، في حين أن القليل من الطقوس والمعتقدات الدينية الإسلامية استمر عند أولئك الهنود الأمريكيين الذين عرف أجدادهم الإسهامات الإسلامية، فإن عددًا من الكلمات التركية والعربية والماندينكاوية صارت جزءًا من مفردات لغة هندية أمريكية متنوعة.

ويؤكد المؤلف أنه من السهل التعرف على بعض الأسماء الإسلامية التي بقيت عند الهنود من قبيلة الشيروكي حتى القرن التاسع عشر، هذا القرن الذي شهد أول موجة من الهجرات الإسلامية الحديثة إلى الولايات المتحدة قادمة من الولايات العربية ضمن الإمبراطورية العثمانية، وأولئك المهاجرون كانوا من مناطق صارت في ما بعد دولًا حديثة عرفت بسوريا ولبنان والأردن إلى آخر ذلك، ثم توالت موجات من المهاجرين المسلمين من الشرق الأوسط وشبه القارة الهندية، وأماكن أخرى طوال معظم سنوات القرن العشرين.

اعتناق الإسلام:

في القرن العشرين أدت الهجرات الإسلامية المستمرة إلى الولايات المتحدة إلى بناء المساجد الأمريكية وإقامة عدد من المؤسسات الإسلامية، منها مثلًا الهلال الأحمر، الذي يقابل الصليب الأحمر والذي أسس في ديترويت عام 1920، وهذه الهجرات أشعلت الاهتمام مرة أخرى ما بين الأمريكيين الأفارقة لاكتشاف جذورهم الإسلامية.

ويبين المؤلف أنه ترافق مع اكتشاف الأمريكيين الأفارقة جذورهم الإسلامية واستعادة تلك الجذور أن أمريكا في القرن العشرين شهدت -أيضًا - ظاهرة التحول إلى الإسلام، وبأعداد كبيرة من الأمريكيين المولودين على الأرض الأمريكية، في حين كان اعتناق الإسلام أكثر وضوحًا بين الأمريكيين الأفارقة، فقد وجد الإسلام -

أيضًا - عددًا آخر من المقبلين عليه بين الأمريكيين الأوربيين، والأمريكيين اللاتينيين والهنود الأمريكيين.

ويبرز المؤلف أنه نتيجة لعاملي الاعتناق والهجرة صار الإسلام في نهاية القرن العشرين أسرع الأديان نموًّا في أمريكا والثاني من حيث الحجم، وعلى الرغم من غياب التسجيلات الدقيقة، فإن تقديرات عدد المسلمين في أمريكا تتراوح بين مليونين وثمانية ملايين، وقد أشارت إحدى الدراسات على الأقل إلى أن عدد المسلمين في الولايات المتحدة تضاعف ما بين عامي 1990، 2001، وصارت المساجد والمراكز الإسلامية موجودة في كل المدن الأمريكية تقريبًا.

ومنظمات الطلاب المسلمين منتشرة في غالبية الكليات والجامعات الكبيرة، يضاف إلى ذلك أن العائلات المسلمة غالبًا ما تعيش وتعمل دون ضجيج في معظم المدن الصغيرة عبر العمق الأمريكي، أحيانًا دون علم جيرانهم بانتمائهم الديني الإسلامي، وهو ما يثبت أن الحضور الإسلامي صار جزءًا من التركيبة الأساسية لإناء الذوبان الذي تعرف به أمريكا.

مسلمو الأندلس:

يعود الكاتب تفصيلًا إلى بدايات رحلات مسلمي الأندلس والتي شهدت أول اتصال إسلامي مع الأمريكيين، وهذه الرحلة تمت في عهد الخليفة عبدالله بن محمد (888 - 912)، الحاكم الأموي على الأندلس، في عام 889 أبحر خشخش بن سعيد بن أسودا أحد سكان قرطبة الأندلسية، غربًا عبر المحيط الأطلسي مع مجموعة من البحارة المسلمين من ديلبا (بالوس)، وهو الميناء الذي أبحر منه كولومبس بسفنه بعد ستمئة عام، وبعد رحلة طويلة وجد خشخش عالمًا جديدًا عرف لدى المؤرخين بـ"الأرض الجديدة" عاد خشخش من رحلته التاريخية ومعه، حسب ما ذكر، غنيمة ضخمة حصل عليها كما يفترض من التجارة وفتحه للأمريكتين.

كما أورد المؤلف رحلتين تاليتين أكدتا وجود مسلمي الأندلس في الأمريكتين وكانتا في عهد الخليفة هشام الثاني وكانت الرحلة على يد أبي فروخ والرحلة الأخرى كتب عنها الإدريسي الجغرافي والطبيب العربي الشهير، وقامت بها مجموعة من ثمانية بحارة مسلمين من شمال إفريقيا أبحروا نحو الأطلس من شمال إفريقيا قادمين من لشبونة من البرتغال التي كانت حينئذ جزءًا من الأندلس، وكانت رحلتهم معبأة من المؤونة بما يكفيهم لعدة أشهر.

وبعد أن أبحروا لمدة لا تقل عن 31 يومًا وصل القارب إلى جزيرة غير معروفة من ضمن جزر الكاريبي، وهناك تعرضوا للأسر على يد قبيلة من الهنود، فقيدوا واحتفظ بهم أسرى لمدة ثلاثة أيام إلى أن ظهر مترجم في اليوم الرابع يعرف العربية، ورتب نقلهم إلى قبيلة أخرى من الهنود.

أوهام العبودية:

يقول المؤلف إنه من المدهش في قصة الإدريسي ظهور مترجم يعرف العربية بين الهنود، وهو ما يعني حضور شخص يوحي بتاريخ طويل، وإن كان منسيًّا من الاتصال الإسلامي بالهنود الذين كانوا يقطنون الأمريكتين؛ لأن العربية لغة يصعب امتلاكها ووجود هندي يتحدث العربية يشترط وجود اتصال بين أولئك الهنود والمسلمين العرب الذين ربما كانوا تجارًا من غرب إفريقيا.

ومن المسلمين المستكشفين للعالم الجديد في ما وراء المحيط الأطلسي، يذهب بنا المؤلف إلى العبيد المسلمين المذكورين في التاريخ الأمريكي غير أنه يكشف عن حقائق تاريخية مهمة، ربما هي المرة الأولى التي يتطرق فيها باحث أمريكي إليها، يقول ديركس، من التصورات النمطية المؤسفة والتي عاشت طويلًا في الولايات المتحدة هي أن الأفارقة العبيد الذين أحضروا إلى هذه البلاد لم يكونوا أكثر من متوحشين أميين غير متعلمين وبلا حضارة.

وهذا التصور النمطي الخاطئ تم تكريسه ليدعم الادعاء الذي لا يقل ضلالًا وهو أن العيش في العبودية الأمريكية كان أفضل للعبيد الأفارقة من العيش في الحرية الإفريقية، وعلى الرغم مما في تلك التصورات من أوهام في تصوير العبيد الأفارقة بشكل عام، فإنها تصبح أكثر إيهامية وسوء نية حين تطبق على العبيد المسلمين.

الحقيقة الكبرى:

الحقيقة الكبرى في هذا السياق تتمثل في أن التعاليم الإسلامية جعلت من التعليم قيمة كبرى في غرب إفريقيا، فكانت تمبكتو (الموجودة في مالي حاليًا) واحدة من مراكز غرب إفريقيا الأكاديمية الكبرى، وكانت مزدانة بالعديد من المكتبات والمدارس إلى جانب جامعة شهيرة اسمها "الجامعية"، وكانت موجودة في مسجد سانكور، حيث اجتذب طلابًا وباحثين من مناطق لا تقل بعدًا عن شبه الجزيرة العربية.

ولم تكن تمبكتو نجم التعليم الوحيد الذي زين سماء غرب إفريقيا المسلمة، في كانو بنيجيريا كان ما يقارب ثلاثة آلاف معلم عند نهاية القرن الخامس عشر، وكانت قبيلة الفولاني في بندو (السنغال) حاليًا قد أسست مدرسة في كل مدينة، وبنهاية القرن التاسع عشر كان 60 في المئة من السنغال يستطيعون القراءة بالعربية.

ويخلص الكاتب إلى أنه طوال فترة الإتجار بالعبيد عبر الأطلس، كانت أكثرية مسلمة في غرب إفريقيا متعلمة ومثقفة، ومن ذلك ما يقارب من 20 في المئة من النساء المسلمات، أكثر من ذلك كان معظم أفراد قبيلة الماندينكا تقريبًا يقرؤون ويكتبون، وبالمقارنة مع وضع التعليم الناجح في غرب إفريقيا الإسلامي إبان الفترة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر، كانت الأغلبية الساحقة من الأوربيين والأمريكيين أميين تمامًا، يضاف إلى ذلك أن نسبة القراءة والكتابة بين الإناث الأوربيات والأمريكيات كانت تقريبًا غير موجودة في حين كانت أقل من 20 في المئة بين النساء المسلمات في غرب إفريقيا، وبالإجمال كان المسلمون المستعبدون الذين أحضروا إلى أمريكا أناسًا ذوي تعليم عالٍ بمقاييس ذلك الوقت.

التمسك بالدين:

ويتناول الكتاب كيفية استعباد هؤلاء الأفراد من ذوي الثقافة المرتفعة، ومنهم من كان يشتغل بالبحث والأسفار ومنهم من كانوا أفرادًا وضباطًا عسكريين، وقادتهم مغامراتهم جميعًا لارتياد المجهول إلى الوقوع في الأسر أثناء أسفارهم الطويلة.

ثم يفصّل حياة المسلمين المستعبدين في الأمريكتين ويخلص منها إلى أنه على الرغم من الضغوط الهائلة التي تعرضوا لها في الأمريكتين، تشير السجلات التاريخية إلى أنه لم يتخل أحد منهم عن دينه الإسلامي ومع ذلك فإن أولئك المسلمين المخلصين لم يستطيعوا في بعض الحالات أن ينقلوا دينهم لذريتهم.

ومن هنا فقد قدر أن الإسلام الحقيقي الذي وصل الأمريكتين من إفريقيا لم يستمر بعد وفاة آخر الأفارقة المعتقلين حوالي 1920 - 1930، ومع ذلك فإن هؤلاء المسلمين تركوا أثرًا مهمًّا داخل المجتمع الأفرو – أمريكي بثقافته وحياته الدينية.

ويعرج الكاتب بعد ذلك إلى الحديث عن دور المسلمين في ثورات العبيد العديدة التي قامت في الأمريكتين والذي يتمثل في المهارات التنظيمية والمعرفة العسكرية والقدرة على الاتصال سرًّا بعضهم ببعض عبر المسافات الطويلة، وهو دور بالغ الحيوية، وبما أن المستعبدين المسلمين أوردتهم بعض كتب البيض موضحين كيف كانوا على قدر عالٍ من الثقافة والتعليم والعديد من المواهب التي لم يعجزهم عن استغلالها سوى الوقوع في أسر الاستعباد، ومن هؤلاء مسلم بول - كنتاكنتي - ما هوميت (محمد) - المغاربي - فيليب الفولا - سامبو - لامين كيب - محمد كايا - عبد أندرسون.

في ظلال النسيان:

بالنظر إلى العدد الكبير من المسلمين والموريسكيين في إسبانيا والبرتغال وبالنظر إلى التفرقة التي رعتها الدولة ضد أولئك، فإنه من غير المدهش أن يختار العديد منهم مغادرة شبه الجزيرة الآيبيرية، وفي حين أن الكثير بحثوا عن الملجأ في شمال إفريقيا وأن عددًا قليلًا ذهب إلى جنوب فرنسا، فإن عددًا لا بأس به منهم تطلعوا إلى الفرار إلى أراضٍ أبعد، ومن تلك الأمريكتين، لكن هؤلاء المسلمين والموريسكيين الذين جاؤوا إلى العالم الجديد مستكشفين ومستوطنين يظلون للأسف وحتى اليوم في ظلال النسيان، ومما يؤسف له أكثر أنهم حين يتذكرون، فإنهم يبدون عادة مغامرين "إسبانيين".

جدول متدفق:

سيظل عدد الذين اعتنقوا الإسلام نتيجة لمحاولات المسلمين في مرحلة ما قبل كولومبس في الأمريكتين، على افتراض وجود أحد من أولئك، مسألة تخمين في المقام الأول، غير أن السجلات المحفوظة من القرن السادس عشر توثق مخاوف

إسبانية من أن المسلمين المستعبدين في الكاريبي كانوا يحققون تقدمًا في دعوة العبيد غير المسلمين من إفريقيا والهنود المحليين إلى الإسلام، ومع ذلك فإن تاريخ اعتناق الإسلام بين غير المسلمين في الأمركيتين تاريخ يظل غائمًا في أفضل الحالات حتى نهاية القرن التاسع عشر، منذ ذلك الحين انطلق جدول متدفق من المعتنقين للإسلام من كل مجالات الحياة، من كل طبقات المجتمع الأمريكي ومن خلفيات إثنية شديدة التنوع.

☆ ☆ ☆

"النظم البريدية في العالم الإسلامي قبل العصر الحديث"

يتميز كتاب "النظم البريدية في العالم الإسلامي قبل العصر الحديث" لمؤلفه آدم ج. سيلفر شتاين، بفرادة موضوعه وتناوله لونًا مختلفًا من ألوان الكتابة والتأريخ لم يُتطرق إليها من قبل في منطقتنا العربية الإسلامية، من جانب كتاب المشرق أو المغرب على حد سواء.

سعى شتاين، الباحث المتخصص في دراسات الشرق الأوسط والأدنى، عبر صفحات الكتاب إلى تقديم وصف دقيق لأساليب الاتصال الرسمية التي وُظفت في الشرق الأدنى منذ عصور ما قبل الإسلام، وحتى العصر المملوكي، موضحًا أن الحكام وضعوا النظم البريدية كي يبقوا سيطرتهم على أصقاع واسعة من الأرض.

كما لفت شتاين إلى أن هذه النظم، التي ظهرت قبل قرون من اختراع تحركات البخار أو السيارات، مكنت تدويرًا سريعًا وفاعلًا لبضائع مختلفة من البشر والأحصنة إلى الفواكه الغريبة والثلج، إضافة إلى مهمتها الرئيسة في نقل الأخبار والرسائل.

تقارير سرية:

بما أن الإرسالية المنقولة عادة ما كانت تحتوي تقارير سرية من ولايات الحاكم، فقد تضاعفت هذه النظم التي أصبحت شبكات تجسس تصل من خلالها الأخبار للسلطات المركزية بسرعة تكفي للقيام بإجراء كبح للأحداث، ولم يُلقِ شتاين الضوء على دور تقنية الاتصالات في التاريخ الإسلامي فحسب، بل تعداه ليتناول كيفية مساهمة الثقافة العربية في بناء إمبراطورية كبرى في الشرق الأدنى، كما تعرض للطرائق التي ميزت من خلالها الدولة الإسلامية الناشئة نفسها عن الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الساسانية (الإيرانية) اللتين سبقتاها، مع الإشارة إلى أثرها الواضح في بنية النظم البريدية في الدولة الإسلامية.

وهنا يستهل شتاين مؤلفه بالحديث عن النظم البريدية قبل الإسلام من خلال النظم التي كانت موجودة في هاتين الإمبراطوريتين (الساسانية والبيزنطية).

في ما يتعلق بالساسانية يؤكد شتاين أن موضوع الاتصالات في الإمبراطوريات التي وجدت في إيران قبل العصر الإسلامي جزء لا يتجزأ من أي نقاش يتناول التاريخ القديم للبريد لسببين اثنين، أولًا: ضمت معظم الخلافة كثيرًا من الأراضي التي كانت سابقًا تحت الحكم الساساني؛ لذلك ومن أجل فهم الظروف الفريدة التي شكلت الاتصالات الخلافية في هذه البقاع، لا بدَّ من إدراك كيف تعامل الحكام

الأوائل مع التحديات التي خلقتها هذه المنطقة للسلطات في هذه الرقعة الواسعة من الأرض.

ثانيًا: نسب كتّاب العصر الإسلامي قبل الحديث كلمة "بريد" والمؤسسة التي تمثلها إلى الإيرانيين قبل العصر الإسلامي.

العصر الأخميني:

يعرج شتاين إلى الحديث عن البريد في العصر الأخميني "الإيراني القديم" وأثره، فيشير إلى ما كتبه المؤرخ والقائد العسكري اليوناني هو زينوفون حين تناول النظام البريدي في الحقبة الأخمينية عبر السيرة التي كتبها عن سايروس العظيم (529 - 559ق.م)، قد ورد في كتابه "لقد لاحظنا لسايروس أداة أخرى -أيضًا - يتعامل من خلالها مع إمبراطوريته المترامية الأطراف، فقد كان يكتشف بواسطة هذه المؤسسة شؤون ولايته بسرعة، بغض النظر عن بعدها عنه، فقد قام بتجارب ليعرف كم يستطيع حصان قوي أن يقطع من المسافة في يوم واحد عندما يقاد حتى تستنزف طاقته ولكن دون تعريضه للهلاك، وقد نصب بعد ذلك محطات البريد عند هذه المسافات وزودها بأحصنة ورجال يعتنون بها، ففي كل محطة كان هناك مسؤول معين لاستلام الرسائل المسلمة ثم إرسالها، وأن يستقبل الأحصنة المنهكة والخيالة ويرسل غيرها، وقد قالوا -أيضًا - إن موكب السعاة السريع لم يكن يتوقف طوال الليل أحيانًا، إلا أن رسل الليل كانت تلحق رسل النهار في الإبدال، وعندما يحدث هذا، فإنه كان منطلقًا على الأرض أسرع من طيور الكركى.. وإن لم تكن قصصهم صحيحة حرفيًّا، فلا أحد يستطيع الإنكار أن هذا النظام كان الأسرع على وجه الأرض في ذلك الزمان وأنه لشيء رائع أن يكون ثمة أخبار فورية عن كل شيء كي نتمكن من التحضير لها بالسرعة الممكنة".

ويستعرض شتاين عددًا من المفاهيم المرتبطة بالنظم البريدية في تلك الفترة ومنها:

- الرسل: هناك نوعان من الرسل الرسميين تبعًا للمصادر التاريخية، أولهما: المبعوث الرسمي الذي ينتقي لتأدية مهمته بناء على صفات محددة تؤهله أن يكون ممثلًا مقبولًا للحاكم، أما الثاني: فهو الساعي البسيط مجهول الهوية ويحل محله ساعٍ آخر لحظة وصوله إلى المحطة، وترافق كلا النوعين قوة حماية ترشد المسافر من محطة إلى أخرى، وتنتهي مهمة القوة المرافقة عند كل محطة.

- المخبرون: كان هدف النظام البريدي لزينوفون إيجاد مخابرات عاجلة عن كل شيء من أجل الاستعداد لها بأقصى سرعة ممكنة، وهو ما امتد أثره في ما بعد إلى الدولة الإسلامية وظهر في أواخر الدولة الأموية ما يعرف بـ"عيون وجواسيس" لجمع الأخبار والمعلومات وإرسالها إلى الخليفة.

إشارات نارية:

- وسيلة الاتصال: وكانت عن طريق السعاة البشر سواء كانوا عدّائين أو رسلًا يمتطون البعير أو الحمير، أو البغال أو الأحصنة، وكان إرسال الرسائل مع السعاة الراكبين هي وسيلة الاتصال الأكثر شيوعًا، حيث كانت هناك وسيلة أخرى لبث الرسائل من خلال شبكة إشارات بصرية أو شفوية منفصلة وتتمثل في إشارات نارية أو سمعية وكانت تستخدم للأغراض العسكرية فقط.

- الإدارة: حيث كان يتم ختم الوثائق الرسمية وإرسالها بأكياس بريدية جلدية منذ أمد بعيد يعود إلى العصر الأخميني، وامتد ذلك إلى قرون عديدة بعد الميلاد.

ويخلص كاتبنا مما سبق إلى نتيجة مؤداها أن النظم البريدية الإيرانية قبل الإسلام وثيقة الصلة بالنظم البريدية في الإسلام، وهو ما يظهر عبر ثلاث نقاط هي:

أولًا: عندما هزم المسلمون الولايات الساسانية في الشرق الأدنى كانوا ورثة منطقة مغرقة في الخبرة والأعراف البريدية.

ثانيًا: كان الكتّاب المسلمون في العصور المتوسطة مدركين بوعي تام بالأصل الإيراني قبل الإسلام للبريد في زمن الخلافة.

ثالثًا: حقيقة أن كثيرًا من مصطلحات البريد يمكن تعقبها إلى إيران قبل الإسلام تشهد على درجة التواصل المباشر من عصر ما قبل الإسلام إلى عصر الخلافة.

وبعدما يتطرق المؤلف إلى النظام البريدي لدى الدولة البيزنطية ينتقل بنا إلى الاتصالات في شبه الجزيرة العربية قبل العصر الأموي، ويرى أن هناك ثلاثة أسباب للاهتمام بوسائل الاتصال هناك في تلك الفترة الزمنية وهي:

"أولًا: العرب كانوا يمتلكون مهارة امتطاء الأحصنة والجمال والانطلاق بسرعة عند حملهم رسالة ما.

ثانيًا: هناك أدلة على أن الساسانيين والبيزنطيين استخدموا العرب في صراعهم التنافسي الطويل رسلًا وجواسيس.

ثالثًا: عندما احتاج العرب إبان الفتوحات الإسلامية الأولى إلى نظام اتصالات سريع وموثوق، كانوا قادرين على تبني نسخة بدائية من النظم الإمبراطورية التي عهدوها سلفًا.

ويدلف شتاين إلى الجزء الأهم في الكتاب والمتعلق بالنظام البريدي في بدايات الإسلام، ويذكر أن البريد في منتصف القرن التاسع الميلادي تكوّن من شبكة مترابطة من الطرق والمحطات ورؤساء بريد، ومدراء بريد عامين، كان يدفع لهم كلهم من موارد الخليفة، حيث ينتقل بنا شتاين بين مرحلة تبني خدمة السعاة البدائية في عصر الفتوحات، وبين ذروة النظام البريدي في القرن التاسع.

تطور البريد:

يستشهد المؤلف بما قاله سهل العمري (1351 - 1344) حين وصف تطور البريد في شرح مباشر ومتتابع.. فأما أول من وضع البريد في الإسلام فمعاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه - لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس، وأهل أعمال الروم وعرّفهم ما يريد فوضعوا له البُرُد واتخذوا لها بغالًا بأكف، كان عليها سفر البريد، وقيل إنما فُعل ذلك زمن عبدالملك بن مروان حين خلا وجهه من الخوارج..

وكان الوليد بن عبدالملك يحمل عليه الفسيفساء، وهو الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق.. ثم لم يزل البريد قائمًا والعمل عليه دائمًا حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينقض، ولحبلها أن ينتكث فانقطع ما بين خراسان والعراق لانصراف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية، ودام الأمر على هذا حتى انقرضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وملك السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، والبريد لا يشد له سرج ولا تلجم له دابة، إلى أن جاء عصر هارون الرشيد، فأمر وزيره يحيى بن خالد بإعادة أحوال البريد إلى ما كانت عليه أيام بني أمية.

ويذهب شتاين بشكل أكثر تفصيلًا إلى حقبة البريد السفياني، فيذكر أن البريد إبان العصر السفياني كان يعمل على نطاق ضيق مقارنة بنظيره في العصور اللاحقة ويستند في رأيه هذا إلى ثلاثة أسباب.

1 - كثير من مناطق الدولة الإسلامية لم تكن فتحت بعد.

2 - ورد القليل عن إمكانات معاوية الإدارية والقيادية.

3- مقارنة بالحكام المسلمين اللاحقين، يبدو أن السفيانيين حموا بشكل متراخٍ غير مترابط، وعادة ما عُدّ حكام من مثل: زياد بن أمية الحلقة الأخيرة في سلسلة السيطرة والقيادة في مناطقهم.

ثم يربط شتاين بين انهيار البريد الأموي وسقوط الدولة الأموية نفسها، لافتًا إلى أن الأمويين أهملوا أدواتهم البريدية والإخبارية، وهو ما أتاح الفرصة للعباسيين لاستغلال هذا الوضع في الإطاحة بالحكم الأموي.

نكبة البرامكة:

ينطلق مؤلفنا إلى البريد العباسي واصفًا إياه بأنه كان يستخدم للمراقبة الداخلية بدرجة غير مسبوقة، فالمنصور تحديدًا قد منع ما اعتبره البعض استخدامًا مفرطًا للبريد في التجسس على رعاياه، وقد اتسمت الحقبة العباسية بأحداث مثيرة لعب فيها البريد دورًا كبيرًا، وليس أدل على ذلك من أن علو شأن البريد وأهميته ارتبط طرديًّا بأحداث البرامكة ونكبتهم الشهيرة في التاريخ، حيث اعتمد هارون على البرامكة في تنشيط أعمال البريد في أرجاء الخلافة تحت إمرة جعفر بن يحيى، وانحدر هذا البريد بشكل سريع عقب النكبة التي ألمت بهم.

كما يشير الكاتب إلى أن البريد لعب دورًا بارزًا في الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، وحقيقة أن الأخير احتفظ بسيطرته على النظام البريدي في خراسان (كما اشترط في وثيقة هارون لاعتلاء العرش) أغضبت الأمين، الذي لجأ إلى إرسال عملاء بريد خاصين به إلى المنطقة.

أما عن طرق ومحطات البريد في عصر الخلافة العباسية، فيشير المؤلف إلى ثلاث حقائق مؤثرة في تلك الطرق وهي:

1- الحاكم قبل العصر الحديث كان تحت رحمة الطبيعة من جبال وصحارٍ وأنهار بما قد يعيق حركة البريد والسفر.

2- هشاشة البنية التحتية البريدية كانت تتكشف بسهولة أمام أولئك الراغبين في قطع طرق الاتصال بالحاكم.

3- شبكة الطرق أفادت المسافرين غير المخولين باستخدام النظام البريدي ذاته، فتشييد وصيانة الطرق والفنادق والأمان على الطرق كانت كلها جزءًا من المسؤوليات المنتظرة من الحاكم العادل في الشرق الأدنى منذ العصور الغابرة وصولًا إلى العصر الإسلامي.

ويتنقل الكاتب بين أحوال البريد في مختلف الحواضر الإسلامية لينقل لنا صورة واضحة وجديدة تمامًا تتناول هذا الجزء الخفي ذي التأثير الحيوي في مجريات الأمور في بقاع العالم الإسلامي في الفترة التي سبقت العصر الحديث.

نصائح بريدية:

رغم أن محمود (998 - 1030 تقريبًا) ومسعود (1030 - 1040 تقريبًا) هما السلطانان الغزنويان اللذان ارتبط بهما النفوذ والقوة الغزنوية، فقد كان والد محمود سيبو كتيجن: هو من أرسى دعائم الحكم الغزنوي، وهو من قيل إنه ألف وصية نصائح لولده أكد فيها أهمية الاحتفاظ بنظام بريد وأخبار، ويخبر سيبو كتيجن ولده في هذه الوصية أنه: "من المهم أن تبقى مطلعًا على حالة الجيش، رواتبهم ومخصصاتهم اليومية، يجب أن تعرف عن ظروفهم، كما ترتل "قل هو الله أحد" كل يوم.. يجب أن تبقي دائمًا جاسوسين يجلبان لك أخبار الممالك الأجنبية والجيوش، والمدن البعيدة، في مملكتك ومدنك، يجب أن تحتفظ بصاحبي بريد أمينين ليبقياك على اطلاع بظروف الناس، وبعدالة وحسن سلوك عما لك، عليك كل يوم وقبل أن تصلي العشاء أن تكون قد اطلعت من خلال معلومات مفصلة على حال بلدك لكي يعلو شأنك".

بين الدعابة والتخويف:

أسهمت النظم البريدية في نشوء واستمرار دول على مساحات جغرافية واسعة في العالم الإسلامي قبل العصر الحديث، أما طبيعة هذه المساهمة فلها مستويان: أدت

النظم البريدية دورًا مستترًا في الدعابة والتخويف، فالانتشار الواسع "للأساطير البريدية" في تاريخ الشرق الأدنى قبل العصر الحديث، يشهد على حقيقة أن الناس العاديين كانوا ينسبون قدرات خارقة لهذه النظم، التي شكلت بدورها رادعًا لمن تسول له نفسه إثارة القلاقل، من خلال الاعتقاد أن دواب البريد كانت لها حوافر محفوفة، وتمت إزالة طحالاتها، وكانت مضمرة تفسر للعامة كيفية نجاح النظم البريدية في نقل المواد سريعة التلف للحاكم من مسافة آلاف الكيلومترات، فلا جرم أن ثمة اعتقادًا ساد بين العامة أن المنصور -بسبب انشغاله التام بتقارير البريد - كان يمتلك مرآة سحرية تريه صورة محدثة لشؤون العالم من جهة، ومن جهة أخرى فقد أدت النظم البريدية دورًا فاعلًا حقيقيًّا في مطاردة المتمردين، وبث الأخبار العسكرية، وتوصيل أي شيء -الشخصيات المهمة والشعراء والسجناء والمراسلات والثلج والنفائس - من جانب الإمبراطورية إلى الجانب الآخر.

☆ ☆ ☆

"تاريخ تركيا المعاصر"

يلقي كتاب "تاريخ تركيا المعاصر" الضوء على تاريخ تركيا الحديث والمعاصر ويكشف حقائق قد تغيب عن الكثيرين، ويقول مؤلف الكتاب حميد بوزرسلان، إنه على الرغم من القطيعة والمواقف التركية الداعمة لإسرائيل لم يقف العالم العربي موقف العداء من تركيا، بل كان الشعور العربي هو شعور "استهجان" المواقف التركية، ومع الفورة النفطية كانت أبواب العالم العربي مُشرعة للمهنيين ورجال الأعمال وشركات النقل التركية، وهو أمر أسهم في إنعاش الاقتصاد التركي في مرحلة من أسوأ مراحل ترديه، ثم شهدت العلاقات التركية - العربية تغيرات متسارعة مع وجود رجب طيب أردوجان في السلطة، لتعود تركيا للتواصل مع العالم العربي، وتتبدل سياسة الدعم غير المشروط لإسرائيل إلى سياسة اقتصادية للسياسة الإسرائيلية القائمة على التطرف والمذابح وعدم إقرار الحقوق.

بعد 400 سنة من السيطرة التركية على العالم العربي، يقول مؤلف كتاب "تاريخ تركيا المعاصر" حميد بوزرسلان، إنها أعقبت بـ 100 سنة تقريبًا من الابتعاد، تبنت تركيا خلالها أيديولوجية ترى في الإسلام "عبئًا ودينًا مغلقًا غير قادر على الاستفادة من التاريخ"، وترى في الشعوب العربية شعوبًا "جاهلة وجاحدة"، وتعتقد أن الهزائم الكثيرة التي تعرضت لها السلطنة كانت بسبب الشعوب والقوميات التي تشكلت منها الإمبراطورية، والتي عملت على إضعافها وبالتالي لا بدَّ من استعادة سيطرة العرق التركي، فكان هذا مقدمة لـ"التتريك" والذي انتهى بسيطرة كمال أتاتورك المطلقة على السلطة من غير منازع، حيث سعى إلى القضاء على ما رآه سببًا في انهيار الإمبراطورية التركية ألا وهو التعدد العرقي والديني الذي كوّن الإمبراطورية المنهارة.

وخلال 100 عام من عمليات تطويع قادها الجيش التركي أصبح هو السلطة الفعلية في تركيا، والتي سارت صوب السياسة الكمالية المتعصبة للأتراك، وذلك عبر سحق الإثنيات والأقليات المختلفة المتضمنة في الكيان التركي. ومع كل هذا التاريخ المليء بانتهاكات حقوق الإنسان وبعصابات قتل مدعومة من السلطة العسكرية مثل "الذئاب الرمادية"، فإن كثيرًا من الكتابات تحدثت عن أن تركيا هي الدولة الوحيدة العلمانية و"الديمقراطية" في العالم الإسلامي، وتم النظر إلى النموذج التركي باعتباره نموذجًا مميزًا يستحق الدعم الذي يأتي غالبًا من الولايات المتحدة الأمريكية.

عقال الحرية:

يعود المؤلف إلى القرن التاسع عشر، والذي يصفه المؤرخ إيلبر أورتايلي بـ"القرن الأطول في تاريخ أوربا" نظرًا لكثرة الاضطرابات والتقلبات العديدة التي شهدها وهو ما أثر بالتالي على الإمبراطورية التركية في ذلك الوقت، في هذا القرن وجد

القصر العثماني وبيروقراطيته وكذلك مختلف مكونات المجتمع العثماني أنفسهم عاجزين عن إعادة إنتاج النظام الإمبراطوري مثلما كان مؤسسًا ومنظمًا منذ قرون عدة، وهو ما تجلى في اغتيال السلطان عبدالعزيز الذي خلفه مراد تاركًا الحكم لمرضه العقلي إلى السلطان عبدالحميد الثاني الذي سرعان ما جوبه بخطر حرب جديدة مع روسيا، مصحوبة بتوترات وقلاقل عديدة شهدتها الساحة التركية الداخلية ما حدا به إلى مركزة السلطة بإفراط في محاولة منه ليسيطر على عقال الحرية الذي صار يراه منفلتًا في تركيا ومتجهًا نحو الغرب، فعمل على ترسيخ عقيدة محافظة جدًّا أسماها البعض بالإسلاموية.

وأظهر عبدالحميد الثاني أنه كان مهتمًّا بالانتقادات الصادرة من المعارضات الإسلامية المختلفة كالوهابيين والسلفيين، ولكن "نزعته الإسلامية" كانت تشكل درعًا استراتيجيًّا، وكانت المؤشرات توحي بأنه يدرك أن إمبراطوريته ستنكمش في النهاية داخل الأناضول، فكانت عقيدته تهدف إلى خلق تجانس في هذه "النواة الصلبة" وحمايتها بدائرة تضم الجماعات المسلحة ولكن غير التركية مثل الأكراد والعرب.

النخبة العسكرية:

يشير بوزرسلان إلى أن عبدالحميد، وعلى الرغم من نجاحه في إشاعة الاستقرار في الإمبراطورية، إلا أنه فشل في التغلب على الشرخ بين القصر والنخبة العسكرية والمدنية الجديدة التي أفرزتها الإصلاحات التي حدثت في المجتمع التركي، وهو ما أدى إلى صعود جماعات سياسية جديدة كان أبرزها جمعية الاتحاد والترقي التي تمكنت من الوصول إلى السلطة في تركيا، وتم خلع السلطان عبدالحميد الثاني وأحل محله السلطان محمد الخامس حيث بدأت الجمعية في إخضاع السلطان الجديد بحسب اتجاهاتها ومبادئها وما تنادي به من إعلاء للنزعة القومية التركية، وصارت تركيا تتحول تدريجيًّا إلى نظام الحزب الواحد، وانتهى الأمر بدخوله الحرب العالمية الأولى.

في هذا الإطار، يلفت بوزرسلان إلى أن القرار الاتحادي بدخول الحرب دون أي سبب يستدعي ذلك ورغم أن باريس ولندن دعتاه للبقاء على الحياد، كان قرارًا مُلغزًا، ولكن يمكن تفسيره بجملة من العوامل منها في المقام الأول كانت الحرب تتيح تعزيز نظام الحزب الواحد ومنع التعبير بشكل دائم عن كل مشروع سياسي آخر غير الذي يمجده الأيديولوجيون القوميون، وفي المقام الثاني كان لدى أطراف جمعية الاتحاد والترقي ثقة كاملة بالتفوق العسكري الألماني وبقدرته على تحقيق النصر سريعًا. أي أن الدخول في الحرب كان يعطي فرصة مثالية لقطع علاقات التبعية التي وضعت الإمبراطورية تحت الوصايا الاقتصادية لبريطانيا العظمى وفرنسا ولإلغاء إدارة الموارد الجمركية التي كانت هي الأخرى تحت سيطرتهما، وأبعد من الاهتمام بالاستقلال الاقتصادي كانت الحرب تقدم فرصة للانتقام التاريخي من روسيا واحتلال آسيا الوسطى، أرغنكون القومية التركية، المهد

الأسطوري للأمة (أرغنكون: وادٍ في آسيا الوسطى يعتبره القوميون الأتراك المهد الأسطوري للأتراك الأوائل).

نتيجة مؤلمة:

الحرب وكما يوضح بوزرسلان انتهت بنتيجة مؤلمة بالنسبة لتركيا، فبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وتوقيع ما يعرف بـ"هدنة مودرس" تم احتلال ما تبقى من الإمبراطورية العثمانية، وتقسيمها فعليًّا، حيث استولت بريطانيا العظمى على كامل ولاية الموصل (كردستان "العراق حاليًا") واستولت إيطاليا وفرنسا على جزء من منطقة المتوسط من تركيا الحالية واستولت اليونان على سميرنا.

ثم كرست معاهدة سيفر (15 أغسطس 1920) التي أكرهت الحكومة العثمانية على توقيعها تجزئة الإمبراطورية، بل والأخطر من ذلك تجزئة الأناضول، وفرضت سيطرة دولية على المضايق، وأخيرًا كانت المعاهدة تنص على إقامة دولة أرمينية ومنطقة كردية ذات حكم ذاتي من الممكن أن تفضي إلى الاستقلال.

ويلفت بوزرسلان إلى أن الفترة الأولى لمقاومة هذه السلسلة من الاحتلالات كانت ضعيفة بقيادة الجنرال كاظم قرة بكر قائد جيش الشرق، إلا أن هذه المقاومة اشتد ساعدها بوصول مصطفى كمال أتاتورك، الجنرال الذي لفت الأنظار في الدردنيل وفي سوريا أثناء الحرب العالمية الأولى، إلى الأناضول في أغسطس من عام 1919، حيث قاوم مصطفى كمال احتلال القوات المتحالفة، ورفض مشروع فرض انتداب أمريكي على ما تبقى من الإمبراطورية، وهو المشروع الذي كان بعض القوميين يعتبرونه الفرصة الوحيدة لإنقاذ الأمة التركية، وتطورت جهود أتاتورك إلى حرب استقلال شاملة انبثقت عنها نواة مركزية لدولة تزعمها مصطفى كمال أتاتورك.

تساقط الرؤوس:

يعرج الكاتب على عام 1923 حيث أُعلنت الجمهورية التركية التي أصبح كمال أتاتورك أول رئيس لها، ووضع أتاتورك المبدأ الذي سيسري منذ ذلك الحين في تركيا الثورية حينما قال "الآن ثارت الأمة وعزمت على أن تستعيد بنفسها ممارسة السيادة، إن الأمر يتعلق بحقيقة ناجزة لن يكون بوسع أي شيء الوقوف في وجهها، سيكون من المناسب أن ينضم كل واحد من أعضاء هذا المجلس إلى وجهة النظر المستندة إلى الحق الطبيعي، وبخلاف ذلك لن تتغير وقائع الحقيقة المحتمة، ولكننا قد نرى رؤوسًا تسقط".

وينتقل بوزرسلان إلى الحقبة التي عاشتها تركيا بين 1950 -1983 والتي شهدت تقاربًا ملموسًا مع الغرب، وهي السنوات التالية لقرار إينونو (الذي تولى رئاسة تركيا في ما بعد) إعادة توجيه السياسة الخارجية التركية في عام 1949، حيث انضمت تركيا إلى مجلس أوربا وأظهرت أولى علامات التحالف مع واشنطن

الحكومة الديمقراطية المعجبة بـ"النموذج الأمريكي" والراغبة في جعل تركيا "أمريكا مصغرة"، وانضمت تركيا إلى حلف شمال الأطلنطي، وفي السنة ذاتها أرسلت قوات إلى كوريا، كما شكّلت المستودع الرئيسي للمعدات الاستراتيجية الغربية والأمريكية في شرق أوسط مزعزع بأزمات متعاقبة، كما اتبعت سياسة التقارب مع الغرب في الميدان الاقتصادي حيث أصبحت تركيا عضوًا في البنك الدولي، ومنذ تأسيس هذه المؤسسات استطاعت أنقرة أن تستفيد من قروض مباشرة وغير مباشرة، منحت غالبًا بسخاء، وكذلك من الرساميل (جمع رأس مال) الخارجية التي رغم أنها ظلت متواضعة، ساهمت في الحيوية الاقتصادية للبلاد وخلال عقود، غدت تركيا مع إسرائيل البلد الوحيد الصناعي فعليًّا في منطقة الشرق الأوسط.

ويشير الكاتب إلى أنه بدءًا من عام 1983 وحتى عام 2002، ظهر ما يعرف بـ"عقود الأزمة" والتي بدأت مع حكم حزب الوطن الأم لمدة ثماني سنوات انتهت عام 1991، حيث قدمت سلطة الحزب نفسها على أنها المدافع عن الدعامة المركزية وهو التعبير المجازي المستخدم للحديث عن الطبقات الوسطى، ولأنها محافظة جدًّا سعت إلى بلوغ الأسهم الرابحة للنظام العسكري الذي كان قد حرم السياسيين السابقين من حقوقهم المدنية وفي الوقت نفسه كان حريصًا أيما حرص على مبادئ الدولة الكمالية.

عقد الأزمات:

مع أن تورجوت أوزال رئيس الدولة التركية آنذاك، كان من أصل كردي، إلا أنه أراد أن يكون بطل القومية التركية وباني دولة قوية قادرة على فرض القانون والنظام، وفي ظل هذه الأجواء أخذ الوضع الاقتصادي يتحسن بعد مرحلة الإفقار في عقدي السبعينيات والثمانينيات، وأخذت البلاد تخرج من ركود النظام العسكري الذي جمد الرواتب وحظر الاضطرابات من عام 1980 إلى 1983، ثم كانت الحرب العراقية - الإيرانية، التي أتاحت بما يسرته من برامج واسعة لتشييد البنية التحتية في بلدان الخليج لعدد من المهنيين والمقاولين والخبراء الأتراك التحرر من ضغوطات سوق داخلية ضيقة والوصول إلى إيراد منتظم من العملة انعكس إيجابًا على مجمل الاقتصاد.

أما الفترة من 1991 وحتى 1999 فيصفها المؤلف بأنها "عقد الأزمات المتواصل" على الرغم من أن انتخابات 1991 عبرت عن ولادة تركيا مستقرة، قادرة على حلّ المسألة الكردية ودمج مختلف حساسياتها السياسية ولعب دور يساهم في الاستقرار في ما وراء حدودها، حيث يتعرض المؤلف لكثير من العلاقات المتداخلة في المجتمع التركي ما بين السلطة وكل من الأكراد والعلويين، وكذا صعود ما يعرف بالإسلام السياسي، وهي جميعًا عوامل أدت إلى ظهور هندسة جديدة للسلطة في الدولة التركية تبلورت مظاهرها في نوفمبر عام 2002 حيث أزيح شيوخ السياسة

التركية من أمثال أجاويد وأربكان ودفعت الطبقة السياسية ثمن الفضائح الخانقة وقضايا الفساد المتواصلة التي سويت دائمًا على أنها قضايا عائلية.

صراعات متعددة:

هذه المعطيات دفعت الناخبين في ذلك الحين إلى ترجيح كفة الشاب رجب طيب أردوجان رئيس بلدية إسطنبول والمنشق عن حزب "أربكان" وذلك عبر تأسيسه لحزب العدالة والتنمية مطلع الألفية الثالثة، الذي لم ينفِ أهمية المرجعية الإسلامية في برنامجه وطرح نفسه كضامن للديمقراطية والعلمنة في تركيا مقابل المؤسسة المعادية لأوربا، وجعل بوضوح من الخيار الأوربي أولوياته، غير أن أردوجان الذي كان محرومًا من حقوقه المدنية آنذاك، لم يستطع أن يصعد إلى هرم السلطة فكانت من نصيب رفيقه عبدالله جول الذي تولى قيادة الحكومة إلى أن تم رفع الحظر المفروض على الزعيم الفعلي في أعقاب تغيير في القانون، وانتخب في مارس 2003 وأصبح رئيسًا للوزراء وعين جول وزيرًا للخارجية.

وسرعان ما وجدت الحكومة الجديدة نفسها في مواجهة أزمتين إقليميتين: انضمام قبرص إلى أوربا، ثم حرب الخليج وتبعاتها، غير أن هذه الفترة أيضًا 2002 -2006 شهدت بداية عملية اندماج تركيا في الكيان الأوربي، وإن كانت غير مؤكدة، بسبب بعض التحفظات التي كانت ولا تزال لدى كل من الاتحاد الأوربي، وتركيا كل من جهته، ولا تزال هذه الخلافات ووجهات النظر المتباينة بين الطرفين الأوربي والتركي ويدور رحاها في تلك الصراعات العالمية المتعددة، والتي تتخذ من منطقة الشرق الأوسط ملعبًا لها، وبطبيعة الحال تركيا لاعب رئيس في هذا الفلك، وهو ما يجعل وجود تركيا وعلاقاتها في هذا الحيز من العالم، أمرًا بالغ التعقيد وينبغي التعامل معه بقدر عالٍ من حسابات المصالح، والاستفادة من القدرات الموجودة في حوزته، والتي يمكن لأي طرف يجيد قواعد السياسة ولغتها أن يفيد منها إلى مدى بعيد.

☆ ☆ ☆

فكر وفلسفة

"الفلسفة ببساطة"

يعد كتاب "الفلسفة ببساطة" لمؤلفه برندان ولسون، والذي نقله إلى العربية آصف ناصر، بمثابة مقدمة للفلسفة، تضم على نقيض معظم المقدمات حجة للنقاش، والحجة هي أن المشكلات التي نحاول حلها في الفلسفة مشتقة غالبًا من التغيرات التي توالت على أفكارنا حول العلّة بدءًا من العلل كغايات ومرورًا بالعلل كحوافز، ثم إلى الأسباب كروابط، وذلك على امتداد خمسة وعشرين قرنًا، ونجد أن ولسون يتناول العديد من القضايا الفلسفية من منظور سببي عبر صفحات الكتاب، فيبدأ بالحديث عن التقدم قائلًا: "هناك طرحان متناقضان للتقدم العلمي، فبحسب صورة العرف الشائع، يقوم العلماء بجمع المعلومات أولًا، ثم يستنبطون نظرية لتفسيرها، ولكن هذا النموذج للمعلومات قد تم تحديده قبلًا على يد كارل بوبر(الذي يعرف بفيلسوف العلم).

وقامت حجة بوبر على أن العلماء غالبًا ما يستنبطون النظرية أولًا، وحينئذ فقط ينصرفون إلى البحث عن معلومات وبيانات لاختبارها، وهنا تظهر الإشكالية: هل المعطيات قبل النظرية؟ أم النظرية هي التي تسبق المعطيات؟

قضية العلل:

يدلف الكاتب إلى قضية العلل، فيناقش مسألتين حول السببية، الأولى: ما هو المعنى الدقيق للقول: إن (س) علة (ص)؟ والثانية: إلى أي مدى يكون الاعتماد على الأخذ بالعلل معقولًا؟ وهذا يستلزم أن نبين بجلاء معنى كل "المعطيات" أو الشواهد من ناحية، و"النظرية" أو التفسير من ناحية أخرى، فقد كانت قوانين كيبلر في حركة الكواكب نظرية أو تفسيرًا بالنسبة الى تيكوبرا، ولكن هذه القوانين نفسها لم تكن إلا معطيات بالنسبة إلى نظرية نيوتن في الجاذبية، ثم يتناول الكاتب مفهوم العلة بقوله: إذا قلنا إن (س) هي علة (ص) فنحن نعني عادة أن (س) قد جعلت (ص) تحدث ونتصور من ذلك أن (س) قد أجبرت (ص) على الحدوث. ولكن هيوم، بحسب ما يقول المؤلف يشير إلى أننا لا نشاهد هذا الإلزام أبدًا، وأننا لا نشاهد في الواقع إلا أن (س) تتبعها (ص) ثم نشاهد بعد حين شيئًا يشبه (س) يتبعه شيء يشبه (ص) وهلم جرّا. إن هذه الأمور كلها نشاهدها جلية تمامًا، ومتفرقة منفصلة عن بعضها كما يقول هيوم.

التفكير السببي:

بما أن هيوم كان تجريبيًّا بكل معنى الكلمة، فأراد في هذا السياق أن يبين أن كل مفاهيمنا نابعة من تجاربنا الحسية، وهذا أمر مقلق لأنه يعتمد على تصورنا المألوف الذي نتعلق به، وهو في الغالب تصور قاصر ولا بدَّ من تغييره؛ إذًا وكما يقول

الكاتب: إذا كان هيوم محقًا، علينا أن نتوقف عن القول بعد الآن إن (س) قد جعلت (ص) تحدث، ومن العلل ينتقل إلى الاحتمال قائلًا: إن المعطيات يمكن أن تؤدي إلى النظرية بطريقة أو بأخرى، ويدعي بوبر -وقد أقنعه تحليل هيوم الرائع والمقلق - بأن المعطيات يمكن أن تبين منطقيًّا خطأ النظرية ولكنها لا يمكن منطقيًّا أن تبين صحتها أو حتى كونها محتملة، ويتبع من ذلك أن التفكير السببي (أي حدوث الأشياء تبعًا لأسباب معينة)، إذا كان منهجًا منطقيًّا كما نريده جميعًا أن يكون، فلا بدَّ من أن يكون عمله بابتكار نظريات ومحاولة بيان بطلانها، والمنهج الأساس في العلوم، كما يذهب إلى ذلك بوبر نفسه، يبيح لنا أن نقبل بالنظرية ولو كان قبولها على سبيل التجربة، إذا حافظت النظرية على بقائها في وجه المحاولات الكثيرة لدحضها.

العقل والجسم:

في موقع آخر من الكتاب يتحدث ولسون عن الفكرة الحقيقية، بحيث يعمد إلى إثبات الصلة بين السببية والوجود الواقعي، ويحاول الربط بين تصور العلة وتصور الواقع ولا سيّما واقع الفكر، فيقول، إن الشيء إذا أمكن أن تؤثر فيه الأشياء الأخرى تأثيرًا عليًّا كما يمكن أن يؤثر فيها بدوره فيكون هذا الشيء عندئذ حقيقيًّا، أي أن الشيء الحقيقي يجب أن يكون له دور سببي. ويستشهد برأي أرسطو، الذي بين أن "معظم الأشياء تميل بطبيعتها إلى حالة نهائية معينة، وعندما ندرك ماهية هذه الحالة النهائية، نفهم عندئذ أي شيء تكون بأفضل طريقة ممكنة". ثم يسعى الكاتب إلى التحقق من قيام الصلة بين السببية والوجود الحقيقي باتخاذنا حقيقة أفكارنا كحالة اختبارية، فنتبين كيف أن التحول من حالة العلل باعتبارها غايات على العلل باعتبارها دوافع، وهذا بدوره حمل ديكارت على أن يذهب مذهبًا جديدًا مشوبًا بإشكالية عميقة في واقعية العقل، وهو ما يظهر من خلال استعراض المؤلف لمعادلة ديكارت حول ثنائية العقل والجسم، ومحاولة فهم إمكانية وجود علاقات عليّة بين العقل والجسم.

الحتمية والحرية:

ويعرج الكاتب إلى الحديث عن العليّة (السببية) الكونية موضحًا أن هناك عواقب مهمة للتحول من العلّة باعتبارها غاية إلى العلّة باعتبارها دافعًا، وهنا يطرح سؤالًا: إذا كان لكل شيء علّة (بالمعنى الآلي الناجم عن الدفع) فهل يمكن اعتبار أي فعل من أفعالنا حرًّا؟ للإجابة عن هذا التساؤل يستعين ولسون بمذهب الحتمية، قائلًا: "إن المبادئ الجبرية تنتقص كثيرًا من حرية الفعل التي يعتقدها كثر". ويتابع حديثه عن الحتمية، لافتًا إلى ضرورة التفريق بين الحتمية وبين مسألتين أخريين متناقضتين على السواء لحرية الإنسان، الأولى هي مسألة الجبرية (التسليم بالقضاء والقدر) والأخرى مسألة الإيمان بما هو مكتوب سلفًا، ومن الحتمية ينتقل إلى الحديث عن معنى الحرية، موضحًا أن "الحرية ليست أساسية لمسؤوليتنا الخلقية فحسب، بل إنها أمر تفترضه مشاعر مختلفة غير المشاعر الخلقية ومنها مشاعر

الخيبة والإحباط والأشياء، ومن الناحية الإيجابية مشاعر الثقة بالنفس والأمل والطموح، فهذه كلها وغيرها من المشاعر تفترض بداهة أن يكون لجهودنا التي يمكن لنا بإرادتنا أن نقوم بها أو ندعها أثر مميز".

الغايات والفضائل:

يدلف برندان ولسون إلى استعراض نتيجتين إضافيتين من نتائج العلل باعتبارهما دوافع، الأولى وهي أن الغايات إن لم تكن عللًا فلا يمكن تفسير الأفعال بها، والأخرى أن الفضائل إن لم تُفهم على أنها صراع بين الغايات السامية والمؤثرات العلية للدوافع والشهوات الدنيا، فما هي عندئذ إلا قضية مصالح ذاتية محتسبة. وبقراءة باقي صفحات الكتاب نستطيع أن نفهم وبعمق مبدأ السببية كمبدأ إرشادي ومدخل جديد إلى علم الفلسفة يساعدنا على فهم تاريخ الفلسفة ورؤيته من خلال تسلسل واضح وطبيعي للأحداث عبر الفترات الزمنية المختلفة، وكذلك نكتشف عمق الروابط بين مشاكل العلم والعقل والحقيقة والحرية والمسؤولية والمعرفة واللغة والحقيقة والدين.

☆ ☆ ☆

"ألوان شيطانية ومقدسة"

يعد كتاب "ألوان شيطانية ومقدسة" لمؤلفه هيرمان بلاي بمثابة بانوراما فكرية وفلسفية ومعرفية عن الألوان ودلالتها عبر التاريخ، حيث يتناول المؤلف جدلية الألوان ورمزيتها لدى المذاهب الفكرية والكهنوتية والحركات الفلسفية والدينية والفنية منذ العصور الوسطى وحتى أواخر القرن العشرين.

يبدأ هيرمان بلاي من العصور الوسطى حيث كان الناس يعتقدون أن أي محاولة لتلوين الكلمات هي عمل شيطاني محض، انطلاقًا من أن الألوان هي خدعة الشيطان المفضلة لديه ولدى زبانيته الذين يعملون على قدم وساق من أجل تضليل البشرية التي تسعى للوصول إلى طريق الخلاص المحفوف بالصعاب والشدائد.

عين الريبة:

كان أنصار هذه النظرية ينظرون إلى الألوان بعين الريبة، بل يعتقدون في ارتباط الألوان بالخطيئة الأولى وسقوط الإنسان من الجنة واستقراره في عالم الزوال والماديات، ولذلك فالألوان بالنسبة لهم ما هي إلا لعبة من ألاعيب الشيطان.

ثم يشير المؤلف إلى أن مذاهب عبادة الألوان انتشرت في العصور الوسطى، وكان المؤمنون بهذه المذاهب يعتقدون أن الألوان هي نتاج للضوء الإلهي المقدس الذي منح الحياة كينونتها المادية، حيث إن نشأة الخليقة اقتضت من الرب أن يفيض بنوره على الأرض، ويتضح أن الألوان كانت تعبيرًا عن قوى الرب الخلاقة حتى لو كانت زائفة وغير ملموسة.

ويلفت بلاي إلى أن قدرة الألوان على الخداع البصري كانت دومًا برهانًا على أن الألوان ليست سوى ظواهر خارجية للأشياء، لا تمثل جوهرها ولا تعبر عن حقيقتها، ولم تستطع الوسائل العلمية التقليدية أن تحول الألوان إلى أدوات ملموسة لقياس المسافة أو الاتساع أو التذوق أو الرائحة، ولذا يمكننا إدراك الألوان باعتبارها ظاهرة ضوئية متغيرة، ويمكن لهذا الإدراك أن يتبدل مع مرور الزمن، فالمرء يتعامل مع الألوان بشكل مختلف مع اختلاف الظروف والأحوال، وفي الوقت الراهن يميل الناس إلى الإيمان بأن الألوان لا تستقر على حال واحدة، وبسبب تقلباتها وتغيراتها يعتقدون بأنها مجرد أشياء سطحية، وإن كان هذا التصور راجعًا إلى رغبة البشر في الاستخفاف بالأشياء التي لا يستطيعون إدراكها، مثلما فشل العلم المعاصر في التوصل إلى حقيقة كثير من الأشياء.

فان جوخ:

يضرب بلاي المثال التالي "إذا نظرنا إلى اللون الأحمر ومن خلفه سطح أسود فسوف يبدو لنا مختلفًا عما إذا نظرنا إليه وخلفه سطح أبيض، ولكن كيف يتسنى لنا

أن نعرف بأننا نتحدث عن لون أحمر واحد؟ ففي رسالة إلى أخيه "ثيو" في مطلع عام 1885 أشار خبير الألوان فنسنت فان جوخ إلى أن إدراك الألوان يعتمد على المشاهد وما يشاهده من أشياء"، وذكر في الرسالة ما يلي "أنا متأكد أنك لو طلبت من كل من "ميليه" و"بوبجني" و"كوروت" أن يرسموا مشهد سقوط الثلج دون استخدام اللون الأبيض، فسيتمكنون من ذلك وسيبدو الثلج في لوحاتهم وكأنه أبيض اللون".

ويذهب الكاتب إلى ما صرح به برنارد كليرفو، مؤسس المذهب البندكتي في القرن الثاني عشر، وكان معارضًا لزينة الحياة الدنيا ويدعو إلى أن يكون التزين البشري غير متكلف، بأن "الألوان تسبب لنا العمى" وتحولت هذه الكلمات إلى شعار في القرون اللاحقة. ويخلص المؤلف إلى أن إدراك الألوان ليس أمرًا ثابتًا لا يتغير على مر العصور، فالألوان لها تاريخ، وهي عرضة لتفسيرات وتأويلات متعددة، فالنظرة إلى لون معين قد تتغير بسبب تغير أماكن الإقامة والعصر والمركز الاجتماعي.

ألوان صارخة:

تشير بعض الدراسات إلى أن أكثر من 50% من شعوب العالم الغربي يعشقون اللون الأزرق ويأتي اللون الأخضر في المركز الثاني حيث يفضله نحو 20% من عدد السكان يليه الأبيض والأحمر بنسبة 10% من سكان الغرب، ولكن الناس لا يقبلون كثيرًا على اللون الأصفر أو البني أو الرمادي، أما في إسبانيا فإن اللون الأحمر يأتي في المقدمة وله شعبية جارفة في هذه البلاد، كما اكتشفوا أن الأطفال يختلفون في نظرتهم إلى الألوان من مكان إلى آخر ما يؤكد أن الألوان ظاهرة ثقافية وليست مسألة غريزية أو فطرية؛ لأن العوامل الثقافية هي التي تحدد اختيار وتفضيل الألوان.

ويبين بلاي أن الألوان لعبت دورًا محوريًّا في العصور الوسطى مقارنة بدورها في الوقت الراهن، ويتضح ذلك من الهوس بالألوان والرسومات الذي اجتاح أوربا في العصور الوسطى، حينذاك كان يجب تلوين كل شيء أو أي شيء. الطعام والمنسوجات، الفُرش، الأخشاب، الشمع، النقوش، التماثيل، الشعر البشري، اللحى. ولم يؤدِ هذا الهوس بالألوان إلى استخدام ألوان هادئة تناسب المواد التي يتم تلوينها، ولكن سادت نزعة قوية نحو استخدام الألوان الصارخة بقدر المستطاع أو استخدام عدد من الألوان المتباينة والصارخة في آنٍ واحد.

قدرات إلهية:

الولع بالمظاهر أثناء العصور الوسطى كان يستند إلى اعتبارات أخلاقية وجمالية وطبية وعلمية، وحسب المعتقدات السائدة آنذاك فإن كل هذه الاعتبارات تندرج تحت عباءة علم اللاهوت الذي يضم عددًا من التخصصات المختلفة والمتنوعة،

وفي إطار المعتقدات السائدة فإن كل شيء يحدث على الأرض يعد جزءًا من الوحي الإلهي ويتم تفسيره في ضوء سفر الروحيات حيث تعامل الناس مع كل شيء على هذا الأساس اللاهوتي، واعتمادًا على ما سبق يؤكد بلاي أن الناس كانوا يعتبرون الألوان جزءًا لا يتجزأ من خلق الرب المبدع الذي أودعه في الطبيعة، وبسبب قداسة الألوان وقدرتها الإلهية على التعبير ارتبطت بعض الألوان بطبقات اجتماعية معينة وبفئات عمرية محددة وكان الناس يرتدون الملابس الملونة من أجل التعبير عن أوضاعهم الاجتماعية ومكانتهم سواء كانوا في الشوارع أم في الكنائس.

وأدى الإفراط في ارتداء الملابس الملونة إلى خلخلة النظام الاجتماعي لأنها أثارت الغيرة بين الأوساط الفقيرة والمغلوبة على أمرها والتي تُعرف من مظهرها ومن ملابسها الباهتة، وغير الملونة، فضلًا عن ذلك تعالت أصوات رجال الكهنوت من المعادين للألوان الذين يعتبرونها أداة من أدوات الشيطان يسعى من خلالها إلى تشويه خلق الرب. وبسبب هذه الحملات المعادية للألوان تنامت شعبية اللون الأزرق باعتباره لونًا سماويًّا وربانيًّا مقدسًا تسعى البشرية إلى التفاخر به لأنه مرتبط بالأمجاد السماوية، وبعد ذلك تبعه اللون الأسود ذو الشعبية المتنامية كونه يعبر عن نكران الذات.

محاربة الشيطان:

مع نهاية العصور الوسطى دأب الأمراء على ارتداء الملابس ذات اللونين الأزرق والأسود، ولذلك أصبح اللونان يرمزان للطبقة الأرستقراطية التي تسكن المدن والحضر. يقول بلاي: "تدريجيًّا أصبحت الألوان البراقة ترمز للملذات الدنيوية التي يجب على كل من يخشى الرب أن يتجنبها ويبتعد عنها، وظلت ملابس السهرة سوداء، كون الألوان الأخرى مقتصرة على الأغنياء ومن يتولون تسلية الناس والترفيه عنهم، وظلت الألوان هكذا على اختلافها سائدة منذ العصور الوسطى وحتى الوقت الراهن، وأصبح اللون الأسود والأبيض والأزرق الغامق من الألوان التي تستخدم في محاربة الشيطان بعدما تجردت هذه الألوان من خصائصها".

أما عن العصر الحالي، فيبين الكاتب أن الألوان البراقة أصبحت جزءًا من الثقافة الجماهيرية ومن ثقافة قضاء العطلات في الأماكن المشمسة وأماكن التسوق ومن إعلانات التلفاز، كما أن الوسائل الإلكترونية الحديثة ساعدت على إنتاج جميع ألوان الطبيعة بشكل أكثر صدقًا وقربًا من الطبيعة، ومع ذلك فهذه العملية معقدة ومكلفة ولا تؤدي إلى النتائج المطلوبة، ورغم أن عملية إنتاج الألوان قد دخلت في جميع المجالات وحدثت طفرة كبيرة في عالم الألوان، إلا أن ذلك خلع هيبة ووقارًا على اللونين الأبيض والأسود اللذين أصبح لهما مكانة مرموقة في عالم الموضة والأزياء.

الصبّاغ السيئ:

يتناول الكاتب عالم الألوان من منظور الأدب في القرون الوسطى، موضحًا أنه تم تصوير الصباغين بأنهم الأسوأ مقارنة بأصحاب الحرف الأخرى، ومن ذلك أن بروجي (صاحب كتاب الملح والطرائف المدرس) المتداول آنذاك في القرن الرابع عشر بكل من فرنسا وهولندا يُحدد مراتب الطبقات العاملة مصورًا سلوكيات الصباغين السيئة "لقد انتقل إلياس الصباغ حديثًا من محل إقامته القديم، ولذا فإنه استغرق وقتًا أطول من اللازم في صباغة ملابسي وسأكون ملزمًا بأن أدفع له أكثر في المقابل". إذن فإلياس يهدر الوقت سدى لأنه يتقاضى أجره عن كل ساعة عمل، والدليل الدامغ على صدقه اشتباه معاصريه في سلوكه لانتقاله إلى منزل جديد، فالمواطن الجدير بالثقة لا يغير محل إقامته أبدًا، وإن غادره وهجره فتلك علامة تيقنه من الحاجة إلى الفرار منه قدر الإمكان إيثارًا للسلامة.

ثم يعرّج إلى الألوان في الحياة اليومية في تلك الفترة خاصة في بلاط الملوك والأمراء، لافتًا إلى أن كل بلاط ملكي كان عامرًا بسائر الألوان، فهناك الفرسان بشاراتهم التي تحمل نذر الوعيد، والدبلوماسيون بشعارات النبالة الخاصة بهم، وحاملو الرسائل والرسل في بزاتهم المميزة، ومتعهدو المؤن بثياب ذات ألوان تميز نقاباتهم، كل هؤلاء كانوا يضعون عليهم ملابس لافتة الألوان صممت وصنعت للتعريف بهوياتهم والإعلان الصريح عن حضورهم، وكان بوسع المرء أن يمتع عينيه برؤية هذا الزخم اللوني في الأعياد العامة والدينية والمبارزات وغيرها من المناسبات.

وكان ثمة مذيع أو معلن يبذل قصارى جهده للتعريف بالشارات وتفسير العلامات وبالتبعية تنظيم وترتيب المشاركين، وكانت ثورة الألوان تلك في القصور الملكية من سعة الانتشار ومن انطوائها على دلالات ومعانٍ بعينها، بحيث لم تقتصر على كونها سمة فارقة لأجواء حياة القصور والفرسان والمبارزات والمعارك فحسب، بل تخطت ذلك لتصبح عاملًا مهمًّا في إدراك طبيعة الألوان.

اختراع الألوان:

يؤكد بلاي على حقيقة أخرى، وهي أن العصور الوسطى أسهمت بشكل جذري في اختراع الألوان الحديثة؛ لأن الألوان كانت قبل ذلك مملة وكئيبة، فالألوان التي كانت منتشرة يومئذ هي الأزرق المائي والبني المائل للحمرة والأصفر الباهت والرمادي وكلها ألوان رتيبة خاصة وأنها انتشرت عبر فترات زمنية طويلة فتحولت إلى ألوان تصيب الناس بالملل والرتابة.

وكانت الألوان اللامعة والبراقة موجودة على الساحة ولكنها كانت نادرة لأنها تفقد بريقها ولمعانها مع مرور الوقت، وحينما كان يسعى الرسامون لمزج ألوان معدنية لإنجاز لوحاتهم، كان هذا الخليط يسبب مشكلات حيث تتصدع الألوان وتتكسر في بعض أجزاء اللوحة.

وعلى حين غرة وفي القرن الخامس عشر استطاع الرسامون الفلمنكيون أن يستخدموا الألوان الزيتية ذات الملمس الناعم والألوان البراقة التي تتدرج من الفاتح

إلى الغامق والعكس، ويرجع فضل اختراع الألوان الزيتية إلى جان فان آيك، صحيح أن الألوان الزيتية كانت موجودة بالفعل، ولكن آيك استطاع أن يطوّر طريقة جديدة لاستخدامها حيث كان يقوم بطحن المكونات بطريقة علمية استطاع من خلالها أن يجعل الألوان تجف دون تعرضها لأشعة الشمس، وقد أثبتت الألوان الزيتية قدرتها على التحمل وقابليتها للجفاف بسرعة ومقاومتها للتصدع، وكان باستطاعة الرسامين إنتاج لوحات ذات درجات لونية متعددة وألوانًا أكثر جمالًا وأكثر تناسقًا وتباينًا باستخدام الألوان الزيتية، ولم يمر وقت طويل حتى استطاع الرسامون في القرن الخامس عشر اكتشاف سر الألوان الزيتية بعدما توصل إليه الفنانون الفلمنكيون الأوائل، ولذلك انتشرت الألوان الزيتية في إيطاليا في بادئ الأمر ثم سادت في جميع أنحاء أوربا.

سر الشعر الأصفر:

عن علاقة الألوان بتزيين النساء وجمالهن، يذكر الكتاب أن النساء في القرون الوسطى كن يصبغن شعرهن باللون الذهبي الأصفر استجابة للموضة وتماشيًا مع ما كان يعشقه الناس حسب وصف شعراء هذا الزمان، وكان عشق الشعر الأصفر سائدًا في شمال أوربا وجنوبها سواء كان الناس في هذه المناطق من ذوي الشعر الأصفر أو دون ذلك، أما في الأماكن التي يعيش فيها السكان ذوو الشعر الأصفر فكان جمال الشعر مرتبطًا بمدى اصفراره، فكلما ازداد الشعر اصفرارًا كان أكثر جمالًا.

وفي الأعراف السائدة آنذاك كان جمال الشعر يتحدد بمدى اقتراب لونه من لون أشعة الشمس الذهبية، وكان المناصرون للون الأصفر الذي كان مكروهًا آنذاك من بعض الطوائف لأسباب عقائدية يعتقدون أن اللون الأصفر الذهبي هو لون سماوي قادم من السماء أو من عند الرب كما كانوا يظنون أن أصحاب الشعر الذهبي من ذوي الحظوة وأصحاب المكانة المميزة لأن أشعة الشمس القادمة من عند الرب صبغت شعرهم بلونها الذهبي وتغلغلت إلى جذوره في فروة الرأس.

وباستثناء لون الشعر، لا توجد أي معايير أو مقاييس ثابتة تُعد نماذج يُقتدى بها للجمال الأنثوي، فالعيون الزرقاء لم تكن دلالة من دلالات الجمال في العصور الوسطى، في حين أنها في عصرنا الراهن مرتبطة بالشعر الأصفر الذهبي، بل كان الناس في العصور الوسطى يكرهون العيون ذات اللون الأزرق لأنها تشبه عيون البرابرة القادمين من الشمال الأوربي والذين غزوا أوربا ونكلوا بأهلها.

ستائر دنيوية:

اعتبر برنارد كليرفو الألوان أحد مظاهر الوجود المادي الزائل، فالألوان حسب رؤيته، ليست سوى ستائر وحجب دنيوية ألقاها الشيطان على مخلوقات الرب من أجل إخفاء حقيقة الخلق عن البشر، ولذلك فالنساء يرغبن في طلاء وجوههن

بالألوان البراقة من أجل السعي الزائف نحو الجمال، أليست النساء هن أدوات الشيطان الرئيسة في الدمار والخراب وهلاك الجنس البشري؟

كانت الألوان الصارخة في ملابس الفرسان تعبر عن الجرأة وروح الإقدام والشجاعة، كما أن هذه الألوان قد حولت المناسبات التي يلتقي فيها الفرسان إلى كرنفالات مبهجة حيث كان الفرسان يلوحون بأعلامهم الملونة معبرين عن تحديهم لكل الظروف وتصميمهم على كسر الملل الذي يحيط بهم في كل مكان في الوجود.

☆ ☆ ☆

"النقد البيئوي"

اتخذ الكاتب جرج جرارد مصطلح "النقد البيئوي" عنوانًا لكتابه، وقد برز هذا المصطلح في مطلع تسعينيات القرن العشرين، معبرًا عن نهج نقدي استمد قوته وشرعيته من حركات حماية البيئة التي نشطت في ستينيات القرن الماضي.

على الرغم من وجود أنماط أخرى من النقد السياسي مثل الماركسية الغربية، والنقد النسوي، ونقد ما بعد الحقبة الاستعمارية التي حظيت كلها بشرعية وانتماء كامل إلى عالم النقد، إلا أن النقد البيئوي ما زال يجابه معارضة شديدة تعترض طريق انضمامه إلى تيارات النقد المتعددة.

البشر والبيئة:

اعتمادًا على منهج النقد البيئوي يحاول جرارد عبر صفحات الكتاب أن يسبر الطرائق التي نتخيل من خلالها العلاقة الكاملة بين البشر والبيئة في مجالات الإنتاج الثقافي كافة، كما يعرج على الحركات البيئية الحديثة ويوجه لها نقده اللاذع، متتبعًا تطور الحركة البيئية ويستكشف أهم الموضوعات التي شغلت النقاد البيئويين مثل: التلوث، البرية، الرؤيا، السكن، الحيوانات، الأرض، في فل التلوث.

يقول جرارد، من المتفق عليه أن علم البيئة الحديث أطلقت شرارته قصة (خرافة للغد) من مجموعة راشيل كارسون القصصية "الربيع الصامت" الصادرة عام 1962، وهذا النص المؤسس للحركة البيئية الحديثة يبدأ بحكاية شعرية رمزية أخلاقية، بالإضافة إلى أنه يتكئ على الأجناس الأدبية للرعوية وسفر الرؤيا، وهي طرائق قديمة تصور علاقة الإنسان بالطبيعة يمكن تعقبها حتى سفر التكوين، أول أسفار الكتاب المقدس.

ويلفت الكاتب إلى أن قصة "الربيع الصامت" نظمت مظاهرة علمية مثيرة لكشف التهديد الحقيقي لهذا النجاح العلمي ضد البشرية، والحياة البرية بشكل عام ومواجهة الادعاءات المثالية التي يروجها علماء الزراعة عن أراضيهم، وقد أثبتت ادعاءات كارسون العلمية -على الرغم من عدم وجود دليل مبيّن على تأثير سمية د. د. ت آنذاك على البشر - بشكل حاسم، فاتحة الباب على مصراعيه لتجسيد الوعي العام بمخاطر التلوث الناتج عن المبيدات الحشرية، والبدء بتطبيق سياسة حكومية أكثر صرامة تجاه هذه المبيدات والعمل على إيجاد مواد كيميائية زراعية أقل سمية.

منهج واضح:

هذه الطروحات البيئية ألقت ظلالًا مؤثرة وقوية على الثقافة والسياسة المعاصرة، ولقيت استجابة بدرجة معينة في أذهان كثير منا، إلا أن طلبة العلوم الإنسانية يمكن ألا يجدوا صعوبة في التعاطي معها على حالها، فالدراسة الجامعية تم تشكيلها بناء

على الحقول المعرفية المستقلة بعضها عن بعض، وأن القضايا العملية تقتضي خبرة ودراسة علمية.

وعلى الرغم من ذلك، فالأساليب البلاغية واستخدام الصور المجازية كالرعوية والرؤيا والتلميحات الأدبية التي وظفتها كارسون لتشكيل مادتها العلمية قد جعل منها مادة مستساغة للتحليل الأدبي والثقافي، وهذا التحليل يلتقي مع ما يسمى بـ"النقد البيئوي"الذي صار منهجًا واضحًا في زمننا الراهن.

ويعرض المؤلف لعدة تعريفات للنقد البيئوي، منها ما يرى أن النقد البيئوي يعني ببساطة النقد الذي يدرس العلاقة بين الأدب والبيئة المادية، فكما يبحث النقد النسوي في العلاقة بين اللغة والأدب من منظور واعٍ للجنس، ومثلما يستحضر النقد الماركسي وعيًا وإدراكًا لأنماط الإنتاج، والطبقة الاقتصادية عند تعامله مع النصوص الأدبية، يتخذ النقد البيئوي منهجًا يرتكز إلى الأرض في تعامله مع النصوص الأدبية.

فالنقد البيئوي إذًا هو تحليل سياسي صريح مثلما تستدعي مقارنته بالنقد النسوي الماركسي، فالنقاد البيئويون عمومًا يربطون تحاليلهم الثقافية صراحة ببرامج سياسية وأخلاقية خضراء.

أفكار نيّرة:

يلتقي النقد البيئوي في هذا التوجه كثيرًا مع التطورات الموجهة بيئيًّا في مجال الفلسفة، والنظرية السياسية، فمن خلال استحضار الأفكار النيرة التي حملتها الحركات النقدية المبكرة وتطويرها، يمكن لدعاة التبيؤ وعلماء الاجتماع البيئويين، ودعاة العدالة البيئية أن يؤسسوا لتركيبة تعني بالقضايا البيئية والاجتماعية، هنا يوضح المؤلف أن البيئوية صارت أداة فاعلة في عملية التحليل الثقافي وأنه يعتمد عليها كثيرًا في مناقشته لمفهوم التلوث، ولذا يقول إن التاريخ البلاغي لمصطلح التلوث اصطف إلى جانب ادعاءات الحقيقة التي يتبناها علماء التبيؤ وعلماء التسمم البيئي، وعلى الرغم من ذلك ففي عالم الازدحام الإعلامي ما بعد الحداثي، يمكن للصيغة المجازية الحديثة (للتلوث) أن تصبح منفصلة -بشكل خطر - عن مرجعيتها بطرق قد لا يتعرف عليها عديد من العلماء.

ويبين جرارد كيف أن الحركة البيئية هي حركة اجتماعية وسياسية وفلسفية شابة نسبيًّا، علمًا بأنه قد ظهر عدد من الفلسفات البيئية المستقلة التي تنافس بعضًا للتجمع في أي توليفة ثورية وكل منهج يفهم الأزمة البيئية وفقًا لمرجعياته الخاصة، مسلطًا الضوء على النواحي التي يسهل حلها بناء لشروطه الملتزم بها، أو تلك التي تهدد القيم التي يعتد بجملها، ونتيجة لذلك يطرح طيفًا من الاحتمالات السياسية المختلفة، إضافة لذلك يمكن لكل منهج أن يهيئ أرضية صالحة لمنهج نقد بيئوي مستقل بتجاذباته وتنافراته الأدبية والثقافية الخاصة.

ثم يتطرق صاحبنا إلى موضوع آخر من الموضوعات التي شغلت النقاد البيئويين ألا وهو "البرية"، فيوضح أن فكرة البرية -التي تشير إلى الطبيعة التي لم تلطخها يد المدينة - هي أكثر صورة ذهنية مقنعة للطبيعة، متوفرة لدى الحركة البيئية في العالم الجديد، وهي صورة حُشدت لمواطن وأنواع معينة، وينظر لها أنها المكان الملائم لإنعاش أولئك الذين تعبوا من تلويث المدينة المعنوي والمادي، فالبرية تحتفظ بحظ من القيمة الروحية القدسية، وتحمل وعدًا بعلاقة مجددة وأصيلة بين البشرية والأرض.

الوحوش البرية:

يعود بنا جرارد إلى البرية في العالم القديم قائلًا إنه إذا ما كان للرعوية أصل مزدوج في الثقافة اليهودية والمسيحية والثقافة الإغريقية الرومانية، فالمعاني التي حظيت بها البرية في بدايات القرن الثامن عشر يبدو أنها ترتكز ارتكازًا كاملًا تقريبًا على التاريخ والثقافة الإغريقية الرومانية.

فكلمة (البرية) مشتقة من الكلمة الأنجلو سكسونية (الوحوش البرية)، حيث وجدت الوحوش خارج نطاق الزراعة، كما تفيد كلمة (بري) في إظهار عوالم الوحوش الكلمة التي لم يتغير إملاؤها ومعناها على مر ألفية ونصف من الزمان، على الرغم من اكتساب الكلمة لظلال دلالية جديدة مع تقهقر الغابات واستعمار البراري.

أما عن برية العالم الجديد، فيستشهد المؤلف بما جاء به ثورو باعتباره آخر محطة رعوية في العالم القديم في الأدب الأمريكي، خاصة وأنه جاء بمثال مبكر لتراث البرية الذي يستعير بلاغة الانسحاب القديمة ويطبقها على أميال لا نهاية لها من المناظر الطبيعية السامية في أمريكا. بعد تسلقه جبل كتادن، يكتب ثورو: "من الصعب أن نفكر بمنطقة يأهلها الإنسان، فنحن نفترض عادة حضوره وتأثيره في كل مكان، ومع أننا لا نرى طبيعة نقية ما لم نرها رحبة، وموحشة وبلا بشر.. كانت الطبيعة هنا شيئًا وحشيًّا ومرعبًا، إلا أنها جميلة. كانت تلك هي نفس الأرض التي سمعنا عنها، مصنوعة من العدم والليل العتيق". ثم يذهب المؤلف إلى توضيح إسهامات تابعي ثورو المتحمسين في تأسيس البرية بوصفها محكًّا للهوية الثقافية الأمريكية، وأساسًا لنشاطات الحماية، ومنهم جون ميور الذي صار يعرف بأنه واحد من آباء الحماية الأمريكية كونه صاحب محاولات لا تعرف الكلل للتأثير على أعضاء الكونجرس من أجل القوانين الخاصة بحماية البرية.

ومن الموضوعات التي شغلت النقاد البيئويين يحدثنا جرارد عن "الرؤيا" محللًا البيئة المميزة للقصص الرؤيوية المؤثرة في كثير من الاتجاهات البيئية في الوقت الراهن والمتعلقة جميعًا بما كانت تعتقده نسب متفاوتة من سكان العالم منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف عام، حول أن نهاية العالم صارت وشيكة، ثم يتبع تلك الاتجاهات الرؤيوية في مختلف العصور وصولًا إلى العصر الحديث، مستدلًّا في ذلك بما قاله بويل: "إن الرؤيا هي أكثر الاستعارات التي يملكها الخيال البيئي المعاصر قوة، وقد استغلت العديد من الكتب الأكثر تأثيرًا في قائمة الكتاب البيئي المعرفية هذا المجاز

أيما استغلال، من "الربيع الصامت" لكارسون مرورًا بالقنبلة البشرية (1972) لبول إيهرلك، إلى "الأرض في الميزان" لآل جور. علاوة على انتشار البيان الرؤيوي في أدب نشطاء (الأرض أولًا)، وكذا التأملات الفلسفية لبيل مكيبن وشعر روبنسون جيفرز، وحتى أن الفكرة الاعتيادية عن (الأزمة البيئية) قد تأثرت بها واحدة من القضايا الهامة المتناولة بيئويًّا هي "السكن". عنها يذكر جرارد أن جميع المجازات التي طرحت كطرائق يمكن من خلالها فهم الطبيعة وتستند إلى وجهة نظر بيئوية نقدية، كلها تُعد خاطئة من جانب واحد، ولم يقدم أحد منها نموذجًا للوجود العملي حقيقة حاضرة، حيث توحي مجازات الرعوية والبرية نمطًا بوجهة نظر سائح المناظر الجميلة، بينما تشفر الرؤيا رؤية الخيال النبوئي.

ومع ذلك فهناك آداب أخرى تستكشف احتمالية المجيء والسكن على الأرض في ما يتعلق بالواجب والمسؤولية، (السكن) ليس حالة انتقالية، بل على العكس إنه يوحي بالتراكب للبشر في المناطق الطبيعية في الذاكرة، والأسلاف، والموت، والطقوس، والحياة والعمل، ولذا يسعى كاتبنا إلى استعراض بعض من نماذج السكن في أدب الزراعة، كما يتحول إلى أمثلة لنماذج بدائية افتراضية لبعض النقاد لتكون ممثلة للسكن الأصلي على الأرض.

ومع قضايا وموضوعات أخرى شغلت النقاد البيئويين تمضي صفحات الكتاب والذي يعد مقدمة نفيسة لواحد من أكثر التطورات إثارة في الدراسات الأدبية والثقافية في العصر الحديث.

علم التبيؤ المتعمق:

من بين الأشكال الأربعة للحركة البيئية، يعد علم التبيؤ المتعمق الأكثر فعالية خارج الدوائر الجامعية، ملهمًا كثيرًا من الناشطين في جمعيات مثل: أصدقاء الأرض، والأرض أولًا، وراعي البحر.

يعد جاري سنايدر (المولود عام 1930) شاعر بلاط علم التبيؤ المتعمق، أما مرشده الروحي فهو أرني نايس، وقد وضع نايس نقاطًا ثماني أساسية لبرنامج علم التبيؤ المتعمق في مجموعة جورج سشنز الإيضاحية (علم التبيؤ المتعمق للقرن الواحد والعشرين 1995).

☆ ☆ ☆

"المدونة الكبرى: الكتاب المقدس والأدب"

يسعى نورثروب فراي في كتابه "المدونة الكبرى: الكتاب المقدس والأدب" إلى دراسة الكتاب المقدس من خلال رؤية ناقد أدبي وإخضاعه لقواعد النقد الأدبي وتحليل علاقته باللغة، حيث نجد أنفسنا أمام نظرية متكاملة عن علاقة اللغة بالفكر، ويشير هنا إلى أن اللغة بمعنى النظام اللغوي، مرت بأطوار ثلاثة، كل طور منها كان يشكل نظامًا معرفيًّا ويملي على العقل الإنساني آليات محددة في التفكير، وهذه الأطوار هي: الاستعاري، الكنائي، الوصفي.

لا يسعى الكاتب في كتابه إلى عمل دراسة أكاديمية عن الكتاب المقدس، كما لا يريد أن يكون عملًا عن اللاهوت، وهذا ما سنلاحظه عبر قراءة صفحات الكتاب؛ حيث يبدأ الكاتب حديثه في الفصل الأول عن علاقة الكتاب المقدس باللغة من خلال نظرة تحليلية، فيقول: "إن الكتاب المقدس في العادة يُكتب بتركيز لغوي كالذي يوجد في الشعر، ولذلك فهو كالشعر يرتبط ارتباطًا وثيقًا بشروط اللغة، ويوضح أن الدراسات المسيحية لم تغفل اللغة على الإطلاق؛ لأن المسيحية في البداية كدين كانت تعتمد على الترجمة، وبالتالي كانت علاقة الكتاب المقدس باللغة والترجمة علاقة وثيقة، ولعل أشهر الترجمات في هذا السياق، هي الترجمة السبعينية، التي قوبلت عند صدورها بحماسة كبرى من قبل العبرانيين آنذاك".

التجريد والتمثيل:

يلاحظ الكاتب في هذا المجال أن لهجة الكتاب المقدس خطابية في جوهرها، وهذه حقيقة من الضروري إدراكها في عصر كان قد ترسخ فيه غياب الثقة بالنوع المغلوط من البلاغة، ولكن الكاتب يشير إلى أن "الكتاب المقدس يفترض تقليديًّا أنه بلاغة الله التي تكيفت بما يتلاءم مع العقل الإنساني، ونزلت من خلال إنسانيين". مع ذلك لا تتطابق النبرة اللغوية للكتاب المقدس مع أي من الأطوار الثلاثة للغة مهما كانت هذه الأطوار مهمة في تاريخ تأثيرها، فلغة الكتاب المقدس ليست استعارية كالشعر، على الرغم من أنها تعج بالاستعارة ويمكنها أن تكون شعرية على أحسن وجه، من دون أن تتحول إلى عمل أدبي حقيقي، وهي لا تستعمل اللغة المتعالية في التجريد والتمثيل، في الوقت الذي يمكن القول إن استعمالها للغة الوصفية والموضوعية يظل عارضًا.

الشكل الرابع:

يخلص الكاتب إلى أن لغة الكتاب المقدس تَعد شكلًا رابعًا من أشكال التعبير وتبنى له مصطلحًا راسخًا وهو "البلاغ"، وفي الاستعمال العام غالبًا ما يقصر هذا المصطلح على كلام الرسل، ولكن لا يوجد فرق كافٍ بين كلام الرسل وبقية كلام الكتاب المقدس في استعمال اللغة كي نتفادى تعميمه على الكتاب بأسره. و"البلاغ" الذي هو وصف الكاتب للغة الكتاب المقدس، يعد نمطًا بلاغيًّا من نوع خاص ومثل البلاغة كلها فهو خليط من الاستعاري والوجودي أو المهموم، ويعتبر حاملًا لما يُسمى تقليديًّا بالوحي، ثم يدلف الكاتب إلى الحديث عن نسق كلمات الكتاب المقدس، مستهلًا ذلك بالحديث عن الأسطورة، موضحًا أنه لا يمكننا مواصلة القراءة في الكتاب المقدس من دون التعرف إلى البنى اللفظية، التي تذكرنا بما يسمى بالأساطير، ويقصد الكاتب هنا بالأسطورة، الميثوس، أو الحبكة، أو السرد، أو على العموم الترتيب المتوالي للكلمات، وبما أن جميع البنى اللفظية تنطوي على نوع من التوالي، حتى لو لم تُقرأ بهذه الكيفية، فإن جميع البنى اللفظية هي أسطورية بهذا المعنى البدائي.

متوالية لفظية:

يوضح نورثروب فراي "أن الاستعمال البدائي لكلمة أسطورة بوصفها متوالية لفظية أوسع من أن يكون مفيدًا بذاته، فالأساطير بمعناها الثانوي والحكايات الشعبية هي على السواء قصص أو حكايات لفظية، وبالتالي فلا يوجد فرق بنيوي متين يفصل بينها، ولذلك لا يوجد فرق جوهري في المحتوى: فالقصص التي تتعلق بالآلهة التي "يعتقد بها" أو التي هي موضوع للعبادة، لا بدَّ وأن تكون أساطير أيضًا، ولكن ليس جميع الأساطير قصصًا عن الآلهة، ثم يبدأ الكاتب في سرد نماذج من تلك الأساطير التي وردت في الكتاب المقدس، مستخلصًا منها سمات الأسطورة، وهي: 1 - النظام الأسطوري ليس بمعطى، ولكنه واقعة في الوجود الإنساني، وهو ينتمي إلى عالم الثقافة والحضارة الذي صنعه الإنسان، وما زال يسكنه. 2 - النظام الأسطوري يتمتع بطبيعة تقديسية، ومحتمل أن يستمر في مجتمع ما بطرق مصطنعة، ويبدأ بإطلاق الأحكام والافتراضات حول نسق الطبيعة تتعارض مع الملاحظة الفعلية التي يوحي بها ذلك النسق، وحين يحدث هذا لا بدَّ من استبدال التفسير الأسطوري بتفسير علمي. 3 - يرى البعض أن الأسطورة تمثل شكلًا من أشكال التفكير الخيالي والإبداعي ولا يمكن أن تتطور مع نمو المجتمع أو التكنولوجيا، بل ربما يلغيانها.

الأدب الدنيوي:

عن علاقة الأسطورة بالأناجيل يقول "نندفع أحيانا إلى أن "ننزع الأسطورة" عن "الأناجيل" كي نجعلها أكثر انسجامًا مع قوانين الموثوقية الحديثة، ومع ذلك لا يمكن للمؤرخ أن ينظر إلى الكتاب المقدس بوصفه تاريخًا؛ لأن ذلك سيربكه ويثير حفيظته". ويضيف الكاتب: لعل تمثيلًا من الأدب الدنيوي يعطينا مفتاحًا لإجرائنا

الإضافي، ومن ذلك حكايات "جرينلاند الآيسلندية" و"إيريك"، التي تمثل نتاجات أدبية، فالمقصود منها أن تكون على هذا النحو، وتتوافق مع أعراف الأدب، ولكن لأنها تلمح إلى رحلات الإسكندنافيين القدماء، واستقرارهم على سواحل أمريكا، فإن مدى انطوائها على عنصر تاريخي عارض يزداد أهمية بالطبع عند كثير من الناس، ومن هنا فقد تمت دراستها باعتبارها وثائق في مشكلة تاريخية، وفي ذلك السياق يصح ما هو تاريخي، أو ما يمكن أن يكون تاريخيًّا، أما ما ينتمي للأسطورة والأدب، فزائف وخيالي.

المجازات اللغوية:

ينتقل الكاتب إلى الاستعارة، فيقول "ما إن ندرك أن الكتاب المقدس ليس أدبيًّا في مقصده بالأساس، حتى يبدو لنا من اللافت أن يكون مملوءًا بالمجازات اللغوية بهذا القدر، سواء في أشكالها التقليدية أو البلاغية، وتصبح الإثارة أقل إذا أدركنا كم من الكتاب المقدس كان معاصرًا للطور الاستعاري للغة، حين لم يكن بالإمكان نقل كثير من مظاهر المعنى اللفظي إلا من خلال الوسائل الاستعارية والشعرية، حيث يكشف النثر داخل العهد القديم بفواصله المنظومة المتكررة، عن صلة قربى قوية مع الخطاب الشعري الذي تتخلله الصور البلاغية، وتظهر التوريات والاشتقاقات الشعبية في كل مكان في النص العبراني، وحتى العهد الجديد لا يخلو بدوره من مثل هذه الصور البلاغية التي تتخلى أحيانًا عن الواقع، مثل التهويل أو المبالغة المقصودة، ومن ذلك ما نجده في النظم الختامي لإنجيل يوحنا "وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع، إن كتبت واحدة، فلست أظن أن العالم كله يسع الكتب المكتوبة".

أطوار الوحي:

في القسم الثاني من الكتاب يتحدث نورثروب فراي عن التنميط في الكتاب المقدس، مستعرضًا أطوار الوحي، بادئًا بطور الخلق، فيتحدث عن قصة الخلق كما جاءت في سفر التكوين، مستعرضًا الاستعارات الموجودة في تلك القصة، كما يتناول أيضًا المعاني الضمنية والكامنة والمصطلحات البلاغية، التي وردت في أطوار الوحي الأخرى وهي، الثورة، القانون، الحكمة، النبوءة، الإنجيل، الرؤيا. ويعرج المؤلف إلى الحديث عن الصورة الفنية للكتاب المقدس بصفة عامة، موضحًا أن "هناك سمة شعرية للصور الطبيعية في الكتاب المقدس، وهناك مستويان للطبيعة، الأول، المستوى الأدنى، الذي يعبر عنه عقد الله مع نوح، وهو يسلم بوجوب طبيعة يجب أن يسيطر عليها الإنسان ويستغلها، والمستوى الأعلى الذي يعبر عنه عقد أقدم مع آدم، حيث تصور قصة جنة عدن تخليص الإنسان الذي يرجعه إلى هذا المستوى الأعلى، وفي الطريق من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى نقابل صور عالم العمل، والصور الرعوية، والزراعية، والحضرية، إذا تنطوي بنية الصورة الفنية في الكتاب المقدس على صور الأغنام والمرعى، وصور الحصاد وجنى الكروم، وصور المدن والمعابد، وكلها تحتوي عليها وتصهرها صورة واحة الأشجار

والمياه التي توحي بنمط أرقى من الحياة بكل معنى الكلمة". ومع قراءة بقية صفحات الكتاب يأخذنا نورثروب فراي في رحلة عبر المصطلحات والتعبيرات البلاغية والمجازات اللغوية المختلفة، محاولًا بالشرح والتحليل تفسير أوجه العلاقة بين الكتاب المقدس والأدب.

☆ ☆ ☆

دراسات وعلوم

"الاضطراب المناخي"

الاحتباس الحراري ظاهرة قضت مضاجع الشرق والغرب في السنوات الماضية، وتعالت بسببها الصيحات في أرجاء المعمورة محذرة من هلاك كوكب الأرض، نتيجة التزايد المتواتر في العوامل المسببة للاحتباس الحراري، والذي يتولد عنه خلل في التوازنات الجغرافية الحاكمة للكرة الأرضية منذ ملايين السنين بحسب قول كثير من العلماء.

الباحث في علوم المناخ الأمريكي روي دبليو سبنسر جاء برأي يكاد يغاير جميع الآراء السابقة، وذلك عبر كتابه "الاضطراب المناخي: كيف تفضي هستيريا الاحتباس الحراري إلى أقوال شبه علمية، وساسة متملقين، وسياسات ضالة". والكتاب يبحث في المبالغات المصاحبة لاكتشاف الاحتباس الحراري، والتي جعلت منه مطية يستخدمها الكثيرون لتحقيق نجاحات شخصية وبناء أمجاد وهمية بصفتهم هم الحريصون أكثر من غيرهم على سلامة الحياة على كوكب الأرض، غير أن هذا في حقيقة الأمر، حسب المؤلف، لم يزد على كونه بروباجندا إعلامية، كما أن بعض السلوكيات الشخصية لأصحاب هذه الآراء أنفسهم يمكن وصفها بالأكثر إهمالاً لمقتضيات الحفاظ على البيئة والتوازن المناخي.

سيناريوهات بشعة:

يقول سبنسر إن البعض يدعي أن ظاهرة الاحتباس الحراري الصناعي تشكل خطرًا على الإنسانية والبيئة ويجب إيقافها، وهذا الادعاء بمثابة تسليم إيماني يراوح بين الأمور التي يخبرنا بها العلم بأنها ممكنة نظريًّا، وتصديق أبشع السيناريوهات التي تعاقبنا فيها أمنا الأرض على ما ارتكبنا من خطايا في حقها، وهذا التسليم الإيماني لم يتم تصويره في أي مكان آخر أفضل منه في فيلم "حقيقة مزعجة" الذي قدمه آل جور، ففجأة يتحول شريط درامي يعرض الظواهر الجوية التي تحدث يوميًّا بشكل طبيعي إلى دليل على وجود الاحتباس الحراري، الفيضانات؟ الاحتباس الحراري، وموجات الجفاف؟ الاحتباس الحراري. انفصال، الكتل الجليدية؟

الاحتباس الحراري. الأعاصير؟ الاحتباس الحراري.

ويشير سبنسر إلى أن آل جور اعترف بأن هذه القضية ذات بعد روحي بالنسبة له، وهو ينشر هذه الرسالة داعيًا الإنسانية إلى تفادي الكارثة المناخية الهائلة التي صارت قاب قوسين أو أدنى، وبدأ الخوف يحلّ تدريجيًّا محل المنطق باعتباره القوة المحفزة للتغيير الاجتماعي، وتأتي هذه التحذيرات العالمية مصحوبة بنبرة متصاعدة من الإلحاح، فمنذ وقت ليس بطويل قالوا لنا، إن أمام الإنسانية خمسين عامًا لحل مشكلة الاحتباس الحراري، ثم سمعنا أنه لم يتبقَّ أمامنا إلا عشر سنوات

لتغيير أساليبنا الملوثة للبيئة، والآن يزعم البعض أنه لم يتبق أمامنا إلا خمس سنوات.

نتيجة محتملة:

يعترف الكاتب بأن الاحتباس الحراري الضار هو في الحقيقة نتيجة محتملة لانبعاثات الغازات الناجمة عن استخدام الوقود الأحفوري، لكنه يؤكد أن الادعاءات غير العادية تتطلب أدلة غير عادية، فمن السهل نسبيًّا أن ينشئ المرء نموذجًا مناخيًّا بسيطًا باستخدام الحاسوب فيصور لنا الآثار الكارثية للاحتباس الحراري، عندما يتم تصعيد "آخر المدفأة" على سبيل المثال على درجة واحدة في ظل وجود مزيد من ثاني أوكسيد الكربون، لكن ما هو أصعب من هذا بكثير جدًّا أن نجعل أي نموذج مناخي -مهما كان حديثًا - يصدر السلوك نفسه الذي كان سيصدره النظام المناخي الحقيقي.

ويلفت سبنسر إلى أنه في خضم جميع هذه القصص الإخبارية المخيفة عن التغير المناخي، نجد أن من يمشون في ركب الاحتباس الحراري لا يتنازلون عن مقدار ذرة من الترفيه، فنجوم السينما، ورجال السياسة الذين تحولوا إلى نجوم سينما لا يلاحظون النفاق الذي تنطوي عليه نداءاتهم التي تحث البشر على تخفيض الكمية التي يستخدمونها من ورق التواليت، في حين أنهم يتنقلون بطائراتهم النفاثة الخاصة من مدينة إلى أخرى.

مثال واقعي:

يضرب المؤلف مثلًا واقعيًّا ينفي من خلاله ذلك التأثير المبالغ فيه بما صار يعرف بالاحتباس الحراري وأثره في إحداث تغيرات مناخية عميقة على سطح كوكب الأرض، فيقول لو أننا نظرنا إلى درجات الحرارة المرتفعة أو المنخفضة في أي موقع للأرصاد الجوية أنشئ منذ 100 عام، فسنكتشف أنه حدث ارتفاع قياسي في درجات الحرارة اليومية ما بين ثلاث أو أربع مرات سنويًّا في المتوسط، فخلال السنة الأولى من عمر هذه المحطة، نجد أن كل يوم فيها سجل درجة حرارة قياسية لأن هذه الدرجة المرتفعة كانت أعلى -وكذلك أقل - من أي مستوى لها تم تسجيله من قبل في ذلك التاريخ؛ لأن هذا التسجيل لم يحدث أبدًا.

وفي السنة الثانية لا بدَّ أن يكون نصف الأيام قد سجل درجات حرارة مرتفعة قياسيًّا، في حين أن الأيام الأخرى كافة شهدت درجات حرارة منخفضة قياسيًّا، في السنة الثالثة فقط كان من الممكن ألا تبلغ درجة الحرارة رقمًا قياسيًّا جديدًا كل يوم.

ويبين المؤلف أن الفكرة صارت واضحة، وصار من الطبيعي بل من المتوقع أن نرى أحداثًا جوية قياسية من حين لآخر ومع ذلك فإننا نبدو مندهشين عندما نراها، فتشهد بعض المناطق درجات حرارة قياسية في أيام متتابعة، وربما تضرب مئة مدينة أو أكثر رقمًا قياسيًّا في يوم يشهد موجة حارة، وربما دفعوك إلى الاعتقاد بأن

السنوات العشر الأخيرة أو نحو ذلك هي التي شهدت ارتفاعًا قياسيًّا في درجات الحرارة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، لكن الحقيقة هي أن العقد الذي شهد أكبر عدد من حالات الارتفاع القياسي غير المسبوق في درجات الحرارة هو عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، كما يذكر أنه في سبعينيات القرن العشرين ساد خوف من أن يكون الاتجاه الطفيف نحو البرودة الذي كنا نشهده منذ عقد الأربعينيات الحار بداية العصر الجليدي الجديد، إذ كان الناس بغريزتهم يعلمون أن البرد سيئ، أما الآن فقد أصبح ارتفاع الحرارة سيئًا -أيضًا - وكأن درجة الحرارة التي شهدناها في عام 1980 هي بالضبط درجة الحرارة التي كان من المفترض أن نشهدها، كانت مثالية وطبيعية لا تشوبها شائبة، غير أنه يعود ليقول إن هذه المثالية بالنسبة لكثير منا هي مسألة نسبية وتقررها أمّنا الأرض دونما أي قدرة منا على التأثير فيها.

الاحتباس والأعاصير:

يتطرق المؤلف إلى علاقة الاحتباس الحراري بالأعاصير مؤكدًا ضعف الرابط بينهما إن لم يكن عدمه في أغلب الأحوال، مستشهدًا بإعصار تسونامي عازيًا حدوثه إلى زلازل وقعت تحت قاع البحر، وهذه الزلازل بدورها تنشأ عن الاحتكاك البطيء بين الصفائح التكتونية التي تتكون منها القشرة الأرضية، ولو أخذنا في اعتبارنا القوى الهائلة الموجودة في أعماق الأرض والداخلة في تكوين الزلازل، فإن أي تغيير في تركيز عنصر جوي ثانوي مثل ثاني أكسيد الكربون لن تشعر به القشرة الأرضية، ولذا يؤكد سبنسر أن ربط إعصار تسونامي بالاحتباس الحراري هو عبثية كبرى من جانب الكثيرين.

أما عن أعاصير الولايات المتحدة والتي زادت في السنوات الأخيرة، فيرجعها المؤلف إلى سببين رئيسين هما:

1 - تدفق الكثير من الناس إلى السواحل في السنوات الأخيرة، إذ ارتفع البناء على السواحل فجأة وبسرعة كبيرة، وكلما زادت المباني، زادت أهداف الأعاصير.

2- وجود "الفسائل"، بمعنى أن معظم الأعاصير المدارية التي تتكون في حوض الأطلنطي يمكن إرجاعها إلى الأمواج الآتية من الشرق والمتجهة غربًا قبالة السواحل الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى، حيث توفر هذه الأمواج بيئة صالحة لتكوّن منخفضًا مداريًّا، ولذلك فإن أي تغير في أحوال الجفاف أو تساقط الأمطار فوق إفريقيا يمكنه أن يغير قوة هذه الاضطرابات التي ترسلها إفريقيا في اتجاه الولايات المتحدة، وبالتالي تؤثر على نشاط الأعاصير فوق الأطلنطي.

ويلفت المؤلف إلى حقيقة علمية أخرى مهمة وهي أن درجة حرارة سطح البحر ذاتها (ارتفاع درجة حرارة سطح البحر قد يكون سببًا للأعاصير) ليست متوقفة على الأنشطة البشرية فحسب، وقد أظهرت الأبحاث المنشورة في أواخر عام 2006 أن متوسط درجات الحرارة العالية لأعالي المحيطات، انخفضت بسرعة

كبيرة بين عامي 2003 و2005 لدرجة أنه في هذين العامين فقط تلاشى ما يزيد على 20 في المئة من ارتفاع الحرارة الذي كان قد حدث على مدى الثماني وأربعين سنة السابقة، ولم يظهر تفسير علمي لهذه الظاهرة حتى الآن.

وبحسب سبنسر فإن هذا الرأي الذي يقطع بعدم الصلة تقريبًا بين الأعاصير والاحتباس الحراري تشاركه فيه نخبة من العلماء المتخصصين الذين يشكون جميعًا في كون الاحتباس الحراري الصناعي هو المسؤول عن الأعاصير.

البشرية والاحتباس الحراري:

يتحدث سبنسر بالتفصيل عن علاقة زيادة ثاني أكسيد الكربون في الجو بالاحتباس الحراري ذاكرًا بعض الحقائق العلمية التي تقلل من تأثير البشر على زيادة انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، كما تقلل -أيضًا - من تأثير زيادته على أي تغيرات مناخية في كوكب الأرض إلى درجة تكاد تصل إلى العدم، ويخلص الكاتب مما سبق إلى أن هناك زيادة طفيفة ولا شك في درجة حرارة الأرض، ولكن من الصعب أن ننسب هذه الزيادة إلى سبب معين أو أسباب يقينية، فنسبة معظم الارتفاع الحالي في درجة الحرارة أو كله إلى البشر، ما هو إلا تعبير عقائدي؛ لأنه يفترض ما لا نعرفه، وأن أحد أسباب اعتقاد كثير من العلماء أن الارتفاع الحالي في درجة الحرارة ناشئ عن الانبعاثات البشرية من ثاني أكسيد الكربون مردّه ببساطة إلى حقيقة أن الانبعاثات البشرية معروفة، في حين أن التقلب المناخي الطبيعي بشكل عام لا يزال مجهولًا بالنسبة لنا.

ويدلل على ذلك بالقول إنه دون أن نعرف نصيب التقلب الطبيعي من الارتفاع الحالي في درجة الحرارة، لا توجد طريقة لمعرفة مدى ضلوع البشرية في التغيير المناخي، وعلى سبيل المثال شهدت العقود الأخيرة انخفاضًا كبيرًا في جليد البحر المتجمد الشمالي خلال موسم الذوبان الصيفي، كما ارتفعت درجة الحرارة في القطب الشمالي بمعدل أسرع من أي مكان آخر، أما العلماء وحماة البيئة فيعدون هذا علامة مؤكدة على الاحتباس الحراري الصناعي.

ارتفاع زائف:

حتى ارتفاع الحرارة بمقدار درجة واحدة فهرنهايت السابق الإشارة إليه، خلال القرن الماضي، أمر غير مؤكد نوعًا ما، فالمعروف أن كثيرًا من القياسات الترمومترية طويلة المدى تظهر ارتفاعًا زائفًا في درجة الحرارة نتيجة "ظاهرة الجزيرة الحرارية المدينية" (أي اتجاه حرارة المناخ المصغر قرب المنشآت البخارية إلى الارتفاع ببطء، بمرور الوقت في ظل تراجع الحياة النباتية الطبيعية وحلول البنايات ومواقف السيارات والأرصفة.. إلخ).

وتأثير هذه الظاهرة في أشد حالاته يظهر في المناطق الحفرية الكبرى، حيث يزداد متوسط درجة الحرارة بمقدار مرة 5 درجات فهرنهايت.

ثم يستمر سبنسر في عرض الكثير من الحقائق العلمية التي تعضد وجهة نظره في انعدام تأثير البشر وانبعاثات منتجاتهم الغازية في التأثير على المناخ العام في العالم، وتسببه في حدوث ظاهرة الاحتباس الحراري، وهو الموقف الذي يعارض (برغم منطقيته) كثيرًا من جهود دعاة حماية البيئة والعلماء في شتى بقاع الأرض، ليستعرض رؤيته مقارنة مع ما يقول به غيره من العلماء المناخيين، وذلك للوقوف على الدور الحقيقي لسلوك البشر في الإضرار بأمهم الأرض من عدمه.

حقائق حول ثاني أكسيد الكربون:

1- تركيز ثاني أكسيد الكربون اليوم لا يزال صغيرًا جدًّا ولا يبلغ إلا 38 جزيئًا لكل 100 ألف جزيء، وتضخ البشرية حوالي جزيء واحد من ثاني أكسيد الكربون كل خمس سنوات تقريبًا.

2- من غير المحتمل أن تكون هذه الزيادة ناشئة عن عمليات طبيعية؛ لأن حرق الإنسان للوقود لا ينتج ثاني أكسيد الكربون بكميات تكفي لإحداث مثل هذه الزيادة الملحوظة تقريبًا، ذلك لأن قرابة 50 في المئة فقط من هذه الكمية يظل في الغلاف الجوي، أما الباقي فهو "مفقود"، والمفترض أنه يُمتص في المحيطات والبيوسفير، ويخصّب النباتات فيزيد معدلات نمو الحياة النباتية حول العالم، ونلاحظ أن هذا الجانب من "التلوث" البشري في حقيقته مفيد للحياة النباتية.

3- ثاني أكسيد الكربون أحد الغازات الدفيئة اللازمة لصيرورة الحياة على الأرض، وهو يحتجز الأشعة الحمراء، ومن ثم يحاول تسخين منطقة التروبوسفير حتى تبلغ درجة أعلى منها، ولو لم يكن هذا الغاز موجودًا، لكان لآثار الطقس التبريدية تأثير أقوى على درجات الحرارة السطحية من التأثير لتسخين الغازات الدفينة.

4- المتوسط الحالي لدرجة الحرارة السطحية العالمية لكوكب الأرض زاد درجة فهرنهايت واحدة على الأقل منذ قرن مضى، وقد حدث ما يعادل 5 في المئة من هذه الزيادة قبل عام 1940، أي لا يمكن إلقاء اللوم فيه كلية على انبعاث الغازات؛ لأن البشرية لم تكن قد استعملت الوقود الأحفوري بكثرة حتى ذلك الحين، أما النسبة المتبقية من هذه الزيادة فقد حدثت منذ سبعينيات القرن الماضي.

☆ ☆ ☆

"الخمسون سنة المقبلة"

"الخمسون سنة المقبلة" كتاب جمعه جون بروكمان ونقلته إلى العربية فاطمة غنيم، يستشرف آفاق المستقبل خلال نصف القرن القادم، عبر رؤى ونظريات طرحتها نخبة من العلماء في مختلف العلوم، وجاءت هذه الرؤى وتلك النظريات ضمن عدة مقالات نشرت في دوريات علمية وصحف عالمية، أولت اهتمامًا كبيرًا بما ستكون عليه الحياة على كوكب الأرض في المستقبل القريب.

المقالات الواردة في هذا الكتاب الذي قامت به هذه المجموعة من العلماء يركز على التطورات التي تؤثر في حياة جميع الناس على ظهر هذا الكوكب، خاصة في مجالات صارت محل جدل ونقاش في مختلف وسائل الإعلام، والأوساط العلمية، ومنها قضايا الاستنساخ، وأبحاث الخلايا الجذعية، وسلسلة الجينوم البشري، والذكاء الاصطناعي، وعلم الأحياء الفلكية.

مخلوقات ذكية:

في بداية الكتاب يحدثنا العالم الفلكي مارتن ريز عن واحد من أهم التحديات الكونية التي تواجه البشر طارحًا سؤالًا: هل نحن وحدنا، وأين؟

يقول ريز، إن أهم التحديات الاستكشافية في الخمسين سنة المقبلة في العلوم الطبيعية، يتمثل في البحث عن أدلة قوية تؤكد أو تنفي وجود مخلوقات ذكية خارج الكرة الأرضية.

ويضيف: في اعتقادي أنه بحلول سنة 2050 ستكون مفاجأة إن لم نفهم كيف بدأت الحياة على الأرض، سنكون حينئذ قادرين حتى دون أدلة خارج أرضية مباشرة على تفسير نشوء حياة من نوع أساسي ما على أسطح الكواكب الأخرى، وهو ما يستدعي ظهور سؤال آخر، قد تصعب الإجابة عليه، ألا وهو لو أن حياة نشأت في احتمالات عدم تطورها إلى شيء ندركه على أنه ذكي؟

في معرض رده على هذه التساؤلات يلفت ريز إلى أن عمليات البحث عن وجود حياة في مكان آخر في مجموعتنا الشمسية ربما تكون مكتوبًا عليها الفشل، وسيكون هذا ببساطة محبطًا نوعًا ما، ومع ذلك فالفشل لا يعني بالضرورة أنه لا توجد صور أخرى من الحياة الذكية، بل ربما تكون هناك حيوانات تأملية متفوقة، ولا تفعل شيئًا لتكشف عن وجودها.

الرئيسات الأول:

من ناحية أخرى فإن ذلك كما يؤكد مارتن ريز سيعظم احترامنا لذاتنا كونيًّا، إذا كان كوكبنا الأرضي الصغير موطنًا فريدًا من نوعه للحياة الذكية، ففي هذه الحالة

سننظر إليه -من صفين - من منظور كوني أقل تواضعًا مما كان يستحقه لو كانت المجرة تعج بصور الحياة المعقدة، حيث يمكن أن ننظر إلى الأرض كـ"بذرة" تنتشر الحياة منها في أنحاء الفضاء، إن متسعًا من الوقت أمامنا، فالمجرة بأكملها والممتدة على مسافة مئة ألف سنة ضوئية يمكن تخضيرها في زمن أقل مما استغرقه تطورنا من الرئيسات الأول (الرئيسات: يقصد به رتبة من الثدييات تشمل البشريات والفرديات والليموريات، والأخيرة يقصد بها السلالة الجينية الأكثر ملاءمة لتحديات الغابة ومخاطرها).

يضيف مارتن ريز تبعًا لرؤيته، عندما تفنى الشمس ستكون قد أنفقت 5 مليارات سنة أخرى، أي أطول خمس مرات مما استغرقه الانتخاب الطبيعي كي ينتقل من الكائنات الدقيقة إلى الغلاف الحيوي الحالي للأرض ومن بينه نحن.

خلال تلك الدهور يمكن أن تحدث قفزات كمية أكبر يمكن فعلًا أن تكون التغيرات المستقبلية أسرع بكثير لو تم توجيهها صناعيًّا، بحيث تحدث في إطار زمني ثقافي أو تاريخي ولا يمكننا التنبؤ بماهية الدور الذي ستتخذه الحياة في النهاية لنفسها، فربما تنقرض أو ربما تحقق الهيمنة بحيث تؤثر على الكون بأكمله، وهذا الجزء الأخير هو مجال الخيال العلمي، ولكن لا يمكننا نبذه باعتباره عبثًا.

مخ الخنزير والجولف:

ومن احتمالية وجود عوالم وكائنات أخرى ينتقل الحديث إلى العقول وإمكانية استخدامها، وذلك وفقًا لرؤية مارك دي. هاوزر العالم المتخصص في علم الأعصاب الإدراكي والأستاذ في قسم علم النفس وبرنامج العلوم العصبية بجامعة هارفارد الذي يقول: بإمكاننا هذه الأيام زرع قطعة من مخ السمان، في مخ دجاجة، فتحني رأسها كسمّانة، ولكنها تصبح كدجاجة، رجل سبعيني مصاب بالشلل الرعاش، وقعيد كرسيه المتحرك، تزرع مخه قطعة من مخ خنزير، فيتوجه من فوره لممارسة الجولف دون أن أثر للقطعة الخنزيرية المزروعة له.

ويؤكد هاوزر أن هذا الأمر ليس ضربًا من الخيال العلمي، بل حقيقة علمية، إذ يمكننا اليوم تبادل الأنسجة المخية، ليس فقط بين أفراد النوع نفسه بل بين الأنواع المختلفة، وبعد 50 سنة من الآن سيكون علم الأحياء العصبي قد أحدث ثورة في فهمنا للمخ وتلافيفه خلال مراحل النمو، وكيفية نشوئه على مر الزمن.

ومع اتساع المعرفة بالمخ أكثر وأكثر، سنعرف في النهاية مزيدًا من المعلومات عن الحياة من منظور الأنواع الأخرى، غير أن العواقب العلمية والأخلاقية لهذه الثورة موضع تأمل اليوم.

من أجل مزيد من التوضيح لموضوع "عقول يمكن استبدالها" هناك تجربة رائعة أعطت نتائج مذهلة في دنيا علوم الأعصاب، حيث تمكن اختصاصي علم الأحياء العصبي ميجيل نيكوليليس وزملاؤه من تسجيل تفريغ الشحنات الكهربية لمئات

الخلايا العصبية (NE RONS) من مخ نسناس البو (QWI MONKEY)، واستخدام الإشارة في تحريك ذراع روبوت (ROBOT).

عواقب أخلاقية:

في هذا الإطار يشير هاوزر إلى أن هذا الشيء قد يبدو مختصًّا بتصنيع الآلات دون غيرها، لكن حقيقة الأمر ليست كذلك؛ لأنه يظهر أننا نستطيع في مرحلة ما إدراك الشفرة العصبية وفهم كيفية تأثيرها في السلوك، ويمكن تخيل أننا نستطيع تنزيل إشارات الخلايا العصبية من أي حيوان وإنشاء ما يشبه مكتبة على قرص صلب تحتوي على أفكارها أثناء تفاعلها مع العالم. وقتها نستطيع قراءة تفكير الحيوان وهو يأكل، وينام، وينظف نفسه، ويتواصل مع الآخرين، وأن يكون لدينا في مرحلة معينة فهم عميق لما يكون عليه حالنا، لو كان مكان هذا الحيوان.

هنا يؤكد في غضون السنوات الخمسين المقبلة التكنولوجيا اللازمة، معرفة الكثير عن المخ البشري، ومخ المخلوقات المفكرة الأخرى، غير أن ما يسترعي الانتباه هو أن تكنولوجيتنا تنطلق منا إلى عوالم مجهولة ذات عواقب أخلاقية غير واضحة، فإذا استبدلنا بعض أجزاء المخ، أو فعّلنا عمل الجينات أو أبطلناه، فمن سيكون مسؤولًا عن العواقب؟ العالم؟ الطبيب، الحيوان الذي استُخدم جزء منه ليتمتع إنسان ما بحياة أفضل؟

وإذا ما تمت الموافقة على أبحاث الخلايا الجزعية، وأمكن زرع مختلف أجزاء المخ، فهل ينبغي أن يتمكن أي إنسان من إجراء عملية استبدال؟

وبناء على ما سبق يعود كاتبنا ليشدد على أنه إذا ما أريد للعلم أن يستفيد من الطاقة الإبداعية للمساهمين فيه، فلا بدَّ أن يدعم المناخ الفكري عمليات الاستشكاف الراديكالية والخطيرة، ومع ذلك يجب أن يدرك العلماء - أيضًا - العواقب الأخلاقية المحتملة لأفعالهم، وهذه تتضمن بالضرورة دراسات أكثر دقة على غير البشر.

جينات السعادة:

وهناك واحدة أخرى من أهم القضايا التي ستكتسب أهمية محورية في السنوات الخمسين المقبلة، تتمثل في كيفية استخدامنا لقدرتنا على التحكم في التركيب الجيني للنوع البشري، وعلاقة ذلك بمستقبل السعادة، في ذلك يقول ميهالي تشيكسنتميهالي، رئيس قسم علم النفس في جامعة شيكاغو: في الماضي استخدم أسلافنا طرقًا بدائية للانتخاب الوراثي بغية تحديد أنواع الأطفال الذين يعيشون حتى عمر التناسل، أما الآن فنحن أهدينا هدية يكتنفها الشك تتمثل في الوصول إلى الهدف نفسه بسلطان العلم.

في الوقت الراهن يوجد فرعان من أكثر فروع العلم البشري حيوية، وهما علم الوراثة السلوكي، وعلم النفس النشوئي، وهاتان المتقاربتان ترجحان الكفة لصالح

الطبيعة في تشكيل سلوكنا وأفكارنا وعواطفنا خلافًا للتميز إلى التعلم الذي رأيناه في القرن الماضي.

ويؤكد ميهالي على أن هذا الاتجاه سيتعاظم بدرجة هائلة في الخمسين سنة المقبلة نتيجة التقدم في علم الوراثة، وعلى الرغم من قلة عدد السمات المهمة التي يحتمل اعتمادها على نشاط جين بعينه أو بضعة جينات فإن بعض المهندسين الوراثيين واثقون من أن "عهد الأطفال حسب الطلب" بات في متناول اليد.

وبحسب اختصاصي علم الوراثة السلوكي، الذين يدرسون التوائم المتطابقة أو غير المتطابقة الذين يربون معًا أو مفترقين، فإن ما لا يقل عن خمسين في المئة من السعادة يورث جينًا، ولذلك يفترض أننا سنتمكن في العقود المقبلة من زيادة احتمال سعادة أولادنا بواسطة الهندسة الوراثية فهل سنصنع لهم معروفًا باغتنام هذه الفرصة؟ هل سيستفيد المجتمع والنوع ككل من مثل هذا الاختيار. يلفت ميهالي إلى أنه عند تأمل ماهية أجوبة هذه الأسئلة يمكن البدء باستعراض القليل مما نعرفه عن السعادة الموّرثة خلال النصف قرن المقبل.

عالم جديد:

ومع باقي المقالات التي لم يسبق نشرها يقدم جون بروكمان كوكبة متألقة من علماء العالم أصحاب الرؤية العميقة، يطرحون أفكارهم حول ما سيشهده مجال علوم التكنولوجيا من تقدم ملموس يمكن أن نلحظه في جميع مناحي حياتنا.

على سبيل المثال هناك الطبيبة النفسية نانسي إتكوف التي تتعرض بالتفسير إلى الأبحاث الجارية على صنع إكسسوارات تحس بانفعالاتنا، وتستطيع قياس أحوالنا المزاجية ومن ثم تخبرنا بموعد تناول الحبة المضادة للاكتئاب، وكذلك عالم الأحياء النشوئية ريتشارد داوكينز الذي يدرس احتمال تمكننا سريعًا من الحصول على نسخة مطبوعة من الجينوم تتنبأ بنهايتنا الطبيعية وذلك بتكلفة تساوي تكلفة إجراء أشعة سينية على الصدر، فضلًا عن مجموعة من الأفكار والنظريات الرائعة التي يحفل بها هذا الكتاب متحريًا الإمكانيات العملية للمستقبل القريب، وما يصحبه من تداعيات اجتماعية وسياسية قد تتمخض عنها تطورات العالم الجديد الغريب المقبل.

الكون العظيم:

يقف البحث عن حياة على كواكب غير الأرض واثقًا على عتبة النجاح، وتتوقف أشياء كثيرة على النتيجة: لأن البحث عن الحياة في مكان آخر بمثابة بحث عن أنفسنا أيضًا.. من نكون؟ وما موقعنا في هذا الكون العظيم؟

فإذا كانت الحياة عبارة عن مصادفة كيميائية كبيرة اقتصرت على ركننا الصغير من الكون، والكائنات الذكية -التي هي نحن - فريدة من نوعها، فإن صيانتنا المسؤولة لكوكب الأرض تزداد أهمية، أما إذا تمكّنا من العثور على نشوء ثانٍ، فسوف يحدث ذلك تحولًا إلى الأبد في علومنا ودیننا ونظرتنا للعلم. إن الكون الذي

تتسم فيه قوانين الطبيعة بالتواؤم مع الحياة هو كون تَعدّ الحياة فيه خاصية أساسية وليست عارضة. إنه كون يمكننا أن نشعر فيه بالأمان بكل ما في الكلمة من معنى.

إنترنت في المخ!

على مدى العشر إلى العشرين سنة المقبلة، سيحدث تحول ثقافي، إذ سنستخدم تكنولوجيا الروبوت والسليكون والفولاذ في أجسامنا، لتحسين ما يمكننا فعله وفهمه في هذا العالم، وربما يقرر غير العميان تركيب جهاز حسّاس للأشعة تحت الحمراء أو الأشعة فوق البنفسجية في إحدى عينيهم، أو يمكننا جميعًا تثبيت وصلة إنترنت لاسلكية مباشرة في المخ، على الرغم من عدم معرفتنا حتى الآن كيف ستكون صفحات الويب التي سنستعرضها.

☆ ☆ ☆

"مستقبل الماء: وجيز في العولمة"

يتطرق إريك أورسينا في كتابه "مستقبل الماء: وجيز في العولمة" الذي نقله إلى العربية محمد عبود السعدي إلى واحد من أكثر الموضوعات حيوية، ألا وهو الماء، الذي أضحى يشكل رهانًا استراتيجيًّا وتنمويًّا هائلًا، وهذا

الرهان سيتضخم حجمًا وأهمية خلال العقود المقبلة، ولذا عقد الكاتب العزم على "التنزه" مثلما يقول في أرجاء الأرض بهدف استشفاف ما قد يؤول إليه مصير الماء، وأتت الرحلة أكلها في صفحات هذا الكتاب.

يرصد إريك أورسينا في كتابه في كل لحظة معطيات أساسية ويعمل على جدولتها من أجل فهم أفضل لآلية دورة الماء، في الطبيعة وفي الحياة البشرية، وتضمنت طريقته: جرد موارد الماء، وتدوين وسائل تخزينه وطرق إعادة تدويره في حالة وجودها، ودراسة ظواهر الفيضانات والجفاف وتحديد شدة التلوث والتطرق إلى إمكانية تحلية مياه البحر، ورصد تضاؤل الماء، وربما نضوبه تمامًا في أماكن معينة.

ناتج مركب:

في البداية يعمد الكاتب إلى وضع رسم لشخصية الماء من خلال رصد الطبيعة الحقة للماء، موضحًا أن الماء بخلاف الظاهر وعلى عكس الاعتقاد الذي كان سائدًا منذ آلاف السنين، ليس مادة بسيطة إنما ناتج مركب، متأتٍ من اتحاد الهيدروجين والأكسجين، وهو ما توصل إليه العالم الفرنسي لافوازييه (1743 -1794) أحد الكيميائيين الأوائل والذي تمكن من تحليل الماء لعناصره الأولية عندما عهد إليه بتقويم مشروع من أنبوب ماء نهر إيفيت إلى باريس في عام 1768، حيث استفاد من دراسته للمشروع، ما أتاح له تطوير وسائل الرصد، وبالتالي عرض طرق تحليل جديدة، فتوصل إلى حقيقة تركيب الماء.

كما كان له استنتاج سياسي إذ قال: "البعض قد ينشغل بنوعية المياه الطبية لكن لا شيء يجاري أهمية مياه الشرب، فعلى نوعية مياه الشرب تتوقف قوة المواطنين وصحتهم، وإذا أعادت المياه الطبية، أحيانًا بعض رؤوس الدولة الثمينة إلى الحياة، فإن مياه الشرب عبر إعادة التوازن والنظام بشكل مستمر في الاقتصاد الحيواني، تحافظ يوميًّا على حياة عدد أكبر من البشر، إذا لا يخص فحص المياه المعدنية سوى فئة لاهثة من المجتمع، في المقابل يخص فحص المياه العمومية المجتمع بأكمله، لا سيّما أولئك العاملين النشطين، الذين تشكل أذرعهم قوة الدولة وثراءها في آنٍ".

أنهار مزاجية:

من توصيل مياه الشرب إلى باريس في أواخر القرن الثامن عشر ينتقل أورسينا إلى الجفاف الذي تعانيه أستراليا في القرن الحالي، والأسباب المختلفة التي آلت إليه، وهو ما نتبينه عبر محاوراته مع ويندي كريج، التي ترأس الوكالة الوطنية المسؤولة عن إدارة شؤون حوض أكبر نهرين في البلدين "دارلنج" بطول 2740 كيلومتر، ويصب بدوره في "موراي" بطول 2530 كيلومتر، ومساحة الحوض أكثر من مليون كيلومتر مربع، توازي أكثر من ضعف مساحة فرنسا، وأهميته جوهرية، إذ يشكل القلب النابض للزراعة في أستراليا، وتحدثت كريج عن هذين النهرين مشيرة إلى ما يعانيانه من المزاجية، حيث إن منسوبيهما متقلب المزاج بشكل جليّ، مؤكدة على ذلك بالقول: "بين عام وآخر لا يتغير الدفق العام لنهر الأمازون البتة، أما دفق نهر يانجتسي في الصين مثلًا أو الراين، فيمكن أن يتضاعف أو يتناصف، لكن دفق نهر دارلنج، يمكن أن يزيد أو ينقص بنسبة 1 إلى 4700".

وترجع كريج هذه النسبة المخيفة إلى أسباب عدة، منها:

- كثرة السدود التي يبنيها الفلاحون.
- ارتفاع نسبة الملوحة، حيث يزاح من نهر موراي 500 ألف طن ملح سنويًّا.
- التخلص من الرماد الناجم عن حرائق الغابات.

مناجم شرهة:

بعيدًا عن الأخطار المحدقة بأهم مصدر للماء في أستراليا والمتمثلة في نهر دارلنج، وسوء المعاملة التي يلقاها، يدلف أورسينا إلى الحديث عن مناجم أستراليا التي تحوي أول احتياطي لليورانيوم في العالم، ورابع احتياطي للنحاس، وخامس احتياطي للذهب، فيشير إلى أن أكبر هذه المناجم والملقب بـ"أولمبك دام" يستهلك وحده 35 مليون لتر ماء يوميًّا، ولذا فإن المناجم تعد شرهة بدرجة كبيرة للماء، وبما أن المعادن في أستراليا تمثل 15 في المئة من الناتج الداخلي الإجمالي لأستراليا، فإنه ومع ارتفاع أسعار المواد الأولية مؤخرًا باتت الثروة المعدنية تستأثر بـ55 في المئة من صادرات البلد، ولذا يمكن المراهنة على أن الطلب على الماء سيظل من الأولويات هناك، وهو ما يؤكد على تفاقم أزمة المياه وحدوث مزيد من الجفاف في قارة أستراليا.

كما يتعرض الكاتب للسياسة الأسترالية الزراعية التي أدت لمزيد من الجفاف بعد الإسراف في استخدام مياه الأنهار في زراعة محاصيل الأرز، تغافلًا عن مكانة وكلفة الماء، قياسًا إلى بلدان أخرى تزرع الأرز اعتمادًا على مياه الأمطار مثل تايلاند وماليزيا، ومع الجفاف الذي بدأت آثاره تظهر بوضوح في أنحاء القارة الأسترالية ومع حجم الأمطار الناجم عن الاحتباس الحراري بدأت مشاكل اقتصادية

كثيرة تثقل كاهل الفلاحين هناك، ومن ثم بدأت حالات الانتحار في الريف الأسترالي، وهو ما دفع الحكومة إلى أخذ بعض الإجراءات الاحترازية لمواجهة ما يتعرض له الفلاحون، إلا أنها لم تعطِ ثمارها بالشكل المرجو حتى الآن.

الماء والذهب:

بالانتقال إلى سنغافورة المحطة التالية للكاتب، يوضح كيف أن سنغافورة التي وجدت نفسها في مواجهة عجز كبير للمياه، واجهت هذا العجز بأربع طرق، وهي الاعتماد على ماء المطر، الماء المستعمل المعالج، الماء الناجم عن تحلية مياه البحر، والماء الذي تشتريه من ماليزيا.

ويتحدث عن مستودعات الماء هناك التي أقامتها إنجلترا إبان الاحتلال، وكيف أن هذه المستودعات ما زالت تُوسع وتُرمم وتُصلح وتُطور، وتُضاف إليها مستودعات وخزانات جديدة، وتوضع الأزهار حولها ويعتني بمظهرها وجمالها إلى حد الهوس، وهم محقون في عدّها فخرًا وطنيًّا، فهي مخازن مائية وحدائق خلابة وأماكن ليس لها نظير لممارسة الركض والرياضات المائية، ورموز هادئة للسيطرة، ومن خلالها تؤكد سنغافورة مقدرتها الفريدة على السيطرة على الطبيعة والمستقبل معًا، بحيث تعتبر المخزون المائي لديها لا يقل أهمية ولا قيمة عن مخزون الذهب.

الماء الجديد:

يفيض الكاتب في الحديث عن أكبر موقع شيدته سنغافورة لمعالجة المليون ونصف المليون لتر ماء يوميًّا ويقع في جنوب شرق الجزيرة، وتباع مياهه بعد غسلها وتصفيتها بضع مرات، بالاسم التجاري "نيو ووتر" (الماء الجديد) وهو واحد من أهم المشروعات التي أنجزتها سنغافورة لمواجهة احتياجاتها المتزايدة من الماء ولحمايتها من أخطار الجفاف، وقحط الماء الذي تتهيب منه.

ويتعرض أورسينا للدعاية التي تقوم بها حكومة سنغافورة في وسائل الإعلام المختلفة لتعزيز أهمية الماء والمحافظة عليه في نفوس أبناء الجزيرة، إلى الحد الذي جعل ترديد مفردة "ماء" وكأنها ترنيمات طقوس دينية تجعل من الاحتفاء بالماء تمجيدًا للمجتمع، ونذر النفس للماء يعني إثبات التمسك بالتربية المدنية، ومن يحب الماء، يحب سنغافورة، إلى درجة أن حب الماء لدى السنغافوريين أصبح يعبر عن بيعة للوطن وإعلان للانتماء.

فيضانات متوحشة:

في محطة أخرى توقف فيها أورسينا عبر سبره لأغوار الماء في أنحاء العالم، توقف في بنجلاديش وآثار الفيضانات الناجمة عن الاحتباس الحراري بما يؤدي إلى

غرق العديد من الجزر المأهولة بالسكان بلغوا من الفقر، ما يتعدى أقرانهم من المعوذين في قارات العالم القديم والحديث.

وينقل الكاتب مقولات لبعض سكان هذه الجزر ممن التقاهم في رحلته، فيقول أحدهم: "لا أعرف كم أبلغ من العمر، زوجوني في سن 10 سنوات، غيرت مسكني 15 مرة بسبب الفيضانات، وفي 1988 اضطررنا إلى العوم لإنقاذ أرواحنا، أخذ الماء كل شيء، كان عندي سبعة أولاد، مات اثنان منهم". وتقول أخرى: "لا أعرف القراءة والكتابة، غطت الفيضانات بيوتنا 20 مرة، وزوجي لم يكن قويًّا يومًا، هو الآن مفقود". أما الثالث فيعبر هكذا عن مأساته:

"لم أشأ قط العيش في تلك الجزر بسبب التعرية، فبقيت على اليابسة، ومع ذلك ابتلع فيضان أرضي منذ 5 سنوات".

ومن توحش الفيضانات على سكان بنجلاديش، يعرج الكاتب على توحش واستئساد الجارتين القويتين الهند والصين على أهم مقدرات دولة بنجلاديش والمتمثلة في مساحات الأراضي الصالحة هناك. ذلك أن كلًّا من الهنود وأيضًا الصينيين يعكفون على دراسة مشاريع سدود كثيرة، على نهري الجانج وبراهما بوترا اللذين يمثلان عصب الحياة في بنجلاديش، وإذا رأت تلك السدود النور ستتقلص مساحة أراضي بنجلاديش المفيدة ربما إلى النصف؛ لأن دفق الماء العذب الآتي من النهرين لن يكفي آنذاك لمقاومة سيل المياه المالحة الصاعدة من خليج البنغال، والتي تحمل آثارًا سيئة على نبتة "الأرز" وهي الغذاء الرئيس لسكان تلك الدولة.

أشكال الغضب:

يخلص أورسينا إلى أن بنجلاديش يعد أكثر بلد في العالم يغضب فيه الماء، من فيضانات، أعاصير، وتسرب ماء البحر، الجفاف، زحف الملح، خطر الزرنيخ، وهو ما يستدعي وضع سياسات آنية وطويلة الأجل لحماية بنجلاديش من أخطار المياه (سواء نقصها أو زيادتها) والتي تترك أسوأ الأثر على المدن البائسة، بما تحتويه من منكوبي المصائب المائية.

وبمصاحبة أورسينا في رحلاته حول العالم لمعرفة كل ما يتعلق بالماء وآثاره على العولمة وأثر العولمة عليه، تتكشف كثير من الحقائق حول الآثار المختلفة والمتوقعة لشح الماء في مناطق معينة في العالم، وزيادتها إلى حد الهلاك في مناطق أخرى، خاصة مع ذوبان الأنهار الجليدية التي تمثل أكبر مستودعات للماء العذب لدى البشرية، حيث سيؤدي ذوبان الأنهار الجليدية المتسارع إلى مفاقمة الظواهر غير الحميدة، فبادئ ذي بدء، سيولد الذوبان الزائد فيضانات لا تحمد عقباها، ثم تجثم بعدها، عقب نفاذ المخزون، فترات جفاف طويلة.

انعدام المساواة:

"هل سيكون الماء كافيًا على الأرض؟ كافيًا لإرواء البشر واغتسالهم؟ كافيًا لإرواء الزرع، مصدر غذائهم؟ كافيًا لتفادي أن يُضاف شحُّه إلى الأسباب العديدة الأخرى للاقتتال والحروب؟ بالنسبة لإريك أورسينا لن تحصل أزمة مائية شاملة تطال العالم بأسره بصورة متزامنة، إنما أزمات محلية وإقليمية متفرقة. فالاحتباس الحراري سيؤدي بالأحرى إلى رفع كمية الماء الإجمالية على الأرض، لكنه سيفاقم بشكل مأساوي انعدام المساواة على صعيد مناطق العالم، وبعضها سيواجه فيضانات عارمة، وبعضها سيعاني من جفاف متزايد، وسيزداد عدد النزاعات المحلية بسبب الانفجارات السكانية. فمثلًا، اعتبارًا من العام 2025، كيف سيمكن لنهر النيل ذاته، إرواء 120 مليون إثيوبي و70 مليون سوداني و150 مليون مصري، وفي الوقت نفسه تزويد الفلاحين بما يكفي من ماء لزرع ما يكفي من غلال لإطعام تلك النفوس كلها؟".

"في الجلال"

"في السمو"، "الأسلوب الرفيع"، "سمو البلاغة"، جميعًا تعد ترجمات مختلفة للمصطلح الذي اختاره كاسيوس لونجين عنوانًا لكتابه "في الجلال"، الذي أخرجه للعالم قبل ما يقرب من ألف وسبعمئة عام، وترجمه إلى العربية الأستاذ الدكتور عدنان خالد عبدالله.

الكتاب يُعد أول وثيقة بلاغية من التراث الإغريقي تحمل مؤثرات عربية من حيث اهتمامها بجماليات الشعر العربي، وما به من مصطلحات بلاغية، وقد تولدت فكرته، عندما التقى لونجين ذو الأصول العربية والثقافة الإغريقية الواسعة، والذي بلغ شأنًا كبيرًا من العلم والمعرفة حتى أن معاصريه أطلقوا عليه لقب "المتحف المتنقل" في بلاط زنوبية -ملكة تدم - بحضارات وآداب متنوعة ومدهشة، فتدمر آنذاك كانت محطة استراحة للقوافل الذاهبة والقادمة من الشرق، وكان الناس يلتقون في هذه الواحة الصحراوية الثرية والمترفة حاملين معهم بضائعهم وتوابلهم وعطورهم وأغانيهم، فتختلط الآداب المختلفة بالأغاني، والتجارة بالشعر والغرب بالشرق في تناغم وتآلف نادرين، وكان لونجين يرى ويسمع ويعي كل هذا التنوع والغنى والتلاقح.

ثمن الإخلاص:

عندما ألف لونجين كتابه "في الجلال" كان محط إلهامه الشعرية العربية والعبقرية الجمالية المرتبة به وليس الأدب الإغريقي الذي تركه وراءه عندما غادر روما دون رجعة وهو شيخ كبير قادمًا إلى تدمر ليساهم في إعمارها وسطوع نجمها دون أن يدري بأنه ربما سيكون السبب في خرابها ودمارها إلى يومنا هذا. ويضيف، أن لونجين ولد في تدمر، وليس في روما، ولكنه عاد إلى تدمر في السنوات الأخيرة من عمره ليساعد على تعزيز تلك الإمبراطورية الناشئة وجعلها تنافس روما، وذلك بتحريضه للزباء بالتمرد على روما، حتى دفع حياته ثمنًا لإخلاصه لبلده ومسقط رأسه.

نهاية مأساوية:

ثم يعرج بنا عدنان خالد، إلى الحديث عن أهمية "في الجلال" في النقد الأوربي، قائلًا: إن أول ترجمة فرنسية لهذا الكتاب ظهرت في عام 1674 وكانت للناقد الشهير بوالو Boileau، وأحدثت دويًّا كبيرًا حتى أن اسم لونجين أصبح شائعًا على ألسن المثقفين والمتأدبين آنذاك، ويرجع الكاتب هذه الشهرة التي نالها كتاب لونجين إلى سببين: أولًا: سيرة حياة لوجين وعبقريته وارتباطه ببلاط الزباء ونهايته المأساوية على يد أورليان (حاكم روما)، حيث أصبح عند الناس نموذجًا للبطل الذي قدم حياته ثمنًا لأفكاره ومُثله. ثانيًا: أن بوالو كان قد تزعم الحركة النقدية في فرنسا والمعروفة باسم الكلاسيكية المحدثة Neo - Classicism، والتي كانت تؤكد على

محاكاة الكتاب الإغريق والرومان والالتزام باللياقة وأعراف التقليد الأدبي، وباتباع قواعد وأصول محددة للنظم والكتابة.

فن الشعر:

وكان بوالو قد ألف واحدًا من أشهر كتب النقد الأدبي في العالم آنذاك وهو "فن الشعر" (1674) الذي صاغه شعرًا وضمنه قواعد الكتابة الناجحة بدءًا من كيفية اختيار الموضوع وانتهاءً بكيفية إنهاء الجملة وموضع الفاصلة في الكلام، وهذا الكتاب يلخص أسس الكلاسيكية المحدثة وأفكارها وإنجازاتها، وهذا الكتاب يؤرخ لهموم عصر انتهى وولى وانتهت معه مُثله الأدبية وأفكاره النقدية. ويضيف عدنان خالد، إنه توافق نشر ترجمة "في الجلال" مع نشر كتاب فن الشعر لبوالو في السنة ذاتها، ويبدو أن بوالو كان يعمل على الترجمة منذ أمد بعيد، حيث إن بعضًا من تعبيرات لونجين قد تسللت إلى مفرداته ومجازاته في كتاب فن الشعر.

محاكاة القدامى:

ويلفت إلى أن شهرة بوالو الواسعة كناقد ومنظّر ساعدت في انتشار كتاب لونجين وهيأت الأذهان لقبول أفكاره، أو على الأقل بعضًا منها، كما أن ترجمة بوالو أدت إلى ذيوع شهرة كتاب "في الجلال" ومؤلفه، وسرعان ما التقطه الإنجليز (الذين كانوا ينظرون إلى ريادة فرنسا الأدبية بإعجاب)، وجعلوا مفرداته وأفكاره جزءًا من المعجم النقدي الإنجليزي آن ذاك، وأصبحت مفردة الجلال موضع بحث نقدي وجمالي وفلسفي غزير، ومن جملة الموضوعات التي لاقت الاستحسان والقبول عند الإنجليز هي بعض النصائح التي أسداها لونجين لتلميذه أو صديقه عبر صفحات الكتاب، حول بعض المجازات التي قد تؤدي إلى رفعة النظم وسموه، وتحذيراته الكثيرة من الهبوط بالكلام إلى مستوى السوقية والفجاجة، علاوة على مناداته بمحاكاة القدامى لكي يتعلم الناشئة أصول الكتابة وأسسها، وتحولت هذه النصائح إلى قواعد مقدسة لا يمكن لكاتب أو ناقد أن يحيد عنها، وسرعان ما ارتبط اسم لونجين بتلك القواعد والأصول حتى أصبحت صنوًا له ومرادفًا لاسمه.

الموهبة والفن:

وبعد ذلك يتحدث الكاتب عن مفهوم الجلال لدى لونجين، الذي عبر عنه بقوله: "إن الجلال يكمن في التميز في الفكر والتعبير، وهما الخصلتان اللتان تعزى إليهما شهرة الشعراء والناثرين العظام، واكتسبوا من ورائهما سمعتهم الخالدة، فاللغة الرفيعة لا تهدف إلى إقناع السامعين بل إلى سلب لُبهم، وما يؤدي إلى دهشتنا وتعجبنا يكون دائمًا وأبدًا أشد تأثيرًا مما يقنعنا ويرضينا، وإن كان الإقناع يكون في العادة تحت سيطرتنا". كما يتناول الكاتب بالشرح والتحليل رؤية لونجين للعديد من القضايا المرتبطة بالأدب وبلاغة التعبير، ومنها علاقة الطبيعة أو الموهبة بالفن،

واصفًا الطبيعة بأنها ليست قوة عشوائية، ولا تعمل دون منهج، ورغم أن الطبيعة هي السبب الأول والمبدأ الإبداعي الأساسي الذي يحكم كل النشاطات، ولكن يجب أن تعمل وفقًا لأطر وقواعد؛ لأن الجلال يكون خطيرًا عندما يترك له الحبل على الغارب أو يكون تحت رحمة الجهل، ولا يكون آنذاك مرتبطًا بالمعرفة والعلم، ويدلف -أيضًا - للطريقة التي تناول بها لونجين عيوب الخطاب، وكذلك أصل العيوب الأدبية، التي يمكن أن تخالط الجلال وتؤثر سلبًا عليه، ثم يعود ليحدثنا عن مصادر الجلال الخمسة، وهي: القدرة على تكوين الأفكار العظيمة؛ الانفعالات والعواطف الملهمة؛ القدرة على تكوين المجازات؛ المفردات النبيلة وحسن اختيارها؛ والتأثير العام الناجم عن الرفعة والسمو.

مكانة أدبية:

وكذلك يتحدث عن نبل الروح باعتباره من أهم عوامل الجلال، قائلًا إن "الجلال هو صدى للفكر النبيل"، مشيرًا إلى أن الكلمات ستكون أكثر وقعًا عندما تكون الأفكار عظيمة، لذلك فإن التعابير الرفيعة ترد على نحو طبيعي عند الرجال الذين يتمتعون بكبرياء. وبقراءة باقي صفحات الكتاب نكتشف أن المترجم عرج مع كاسيوس لونجين إلى العديد من القضايا والإشكاليات الأدبية، المرتبطة بشكل جذري برقي اللغة، وسمو الأداء التعبيري عند جماعة المشتغلين بالأدب، ملقيًا الضوء على محاولات لونجين إلى الارتقاء باللغة وتحقيق ما أسماه بـ"الجلال" وهو ما أعطي لونجين مكانة أدبية ونقدية مهمة على مر التاريخ، ولكنه لم يحتل ذات المكانة في منطقتنا العربية، برغم أن هذا الجلال الذي تحدث عنه لونجين، ما كان له أن يتحدث عنه أو يتناوله بالشرح والتحليل، لولا احتكاكه المباشر بالحضارة العربية ومفرداتها، وعلى رأسها صنوف الآداب والفنون.

☆ ☆ ☆

"التغيير داخل المدارس"

يعد تطوير التعليم من القضايا المحورية التي تشغل الكثيرين هذه الأيام، نظرًا للأهمية التي يمثلها التعليم ليس فقط للفرد والأسرة، بل يمتد إلى الأمن القومي للبلدان، وتغيير مصائرها، ومن ثم كان الاهتمام المتناهي بقضايا التعليم وعلى رأسها التغييرات داخل المدارس من أولويات جميع فئات المجتمع من مسؤولين وأولياء أمور، وكافة القائمين على الشأن التعليمي، وهو ما حدا بالمترجم وليد عزت شحاته إلى نقل كتاب "التغيير داخل المدارس: خلق ثقافة التحسن المستمر" إلى العربية، والكتاب قام بوضعه ثلاثة من خبراء التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية وهم أليسون زمودا، روبرت كوكليس، إيفرت كلاين.

البيئة المدرسية:

يشير الكتاب في بدايته إلى أهمية البيئة المدرسية باعتبارها الأرضية الأكثر أهمية في أي إصلاح تعليمي حقيقي ينبغي له الدوام والاستمرار، وهذا يعني أن أي بذور للإصلاح تبتعد عن البيئة نفسها وتُبذر من خارج المدرسة لن تستقر في الأرض وتضرب جذورها فيها، ويعمد المؤلفون إلى تسليط الضوء على مبادئ العمل من خلال إطار مدرسة خيالية وهمية تخضع لتأثيرات خبرات وتجارب عشرات المدارس التي عرفوا عنها بحكم خبراتهم الممتدة في الحقل التعليمي، وهذه المبادئ تشكل توجيهًا وإرشادًا عمليًّا لقادة المدارس، أما قصة المدرسة التخيلية التي يتضمنها الكتاب تبعث الحياة في الأفكار، حيث نجد أن شخوص هذه المدرسة يمرون بتجربة التبدلات في التفكير اللازمة لتغيير المدرسة وتحويلها إلى نظام كفؤ، ومن خلال هذه القصة نجد إجابات لأسئلة جوهرية تشجع كل فرد على تطبيق هذه الأسئلة في بيئته الخاصة ويشكلها وفق هذه البيئة، ففي الفصل الأول من الكتاب ومن خلال محاورة بين بعض معلمي المدرسة نستخلص أن عملية تطوير التعليم تتم وفق الآلية الآتية:

1 - تعريف المعلمين بالأفكار الجديدة.

2 - تشجيعهم على تطبيق هذه الأفكار داخل غرفة الصف.

3 -استدراج معلومات منهم حول "كيف سارت الأمور" لأغراض وضع التقارير.

4 - التعرف على برنامج آخر للمضي قدمًا بالعمل إلى الأمام.

التحسن المستمر:

ثم يتم الانتقال بعد ذلك إلى الحديث عن السبيل إلى التحسن المستمر في العملية التعليمية، حيث يلفت المؤلفون إلى أن الغرض هنا ليس تقديم حل جاهز، بل

توصيف لنتيجة نهائية "متمثلة في نظام كفؤ" فالقادة كأفراد يجب أن يعملوا بأسلوب يتسم بالمرونة في كل خطوة يتبعونها، وكذلك في ما بين الخطوات؛ لأن ذلك يمثل أمرًا جوهريًّا وهامًّا لجودة وفاعلية الجهود الهادفة لتحقيق التحسن المستمر وهذا يتم التوصل إليه من خلال ست خطوات وهي:

- الخطوة الأولى: تحديد وتوضيح المعتقدات الأساسية التي تعرّف ثقافة المدرسة.

- الخطوة الثانية: خلق رؤية مشتركة من خلال التعريف الواضح لما تبدو عليه المعتقدات الأساسية عمليًّا.

- الخطوة الثالثة: جمع البيانات الدقيقة والمفصلة واستخدام تحليل هذه البيانات لمعرفة أين هذه المدرسة الآن ولتحديد الثغرات بين الواقع الراهن والرؤية المشتركة. - الخطوة الرابعة: تحديد المبادرات التي من شأنها على الأرجح أن تسد الثغرات بين الواقع الراهن والرؤية المشتركة. - الخطوة الخامسة: وضع وتنفيذ خطة عمل تدعم المعلمين طوال عملية التغيير وتتكامل مع البرامج داخل كل صف بمفرده وفي المدرسة بأسرها.

تأملات جوان:

في موضع آخر من الكتاب، نجد تحليلًا لتأملات جوان التي تمثل مديرة لتلك المدرسة الافتراضية، حيث تكتشف أنها تواجه تحديًا يتمثل في ضرورة إيجاد نظام كفؤ يحركه تفكير من داخل النظام، ولهذا يتعين عليها أن تمهد الطريق للتفكير من داخل وفي إطار النظام، ليس من أجلها فقط، وإنما -أيضًا - من أجل أعضاء الهيئة التعليمية الذين يحتمل أن يكونوا بعيدين عن التفكير بالمدرسة في تعقيداتها وكليتها، وهنا يشير المؤلفون إلى أنه في ظل النظام غير الكفؤ، يشعر المعلمون والإداريون بمحدودية النظام بمعنى "هكذا هي الأشياء" بصرف النظر عن الرضا الفردي لديهم بالأمر الواقع، ومع ذلك يلفت مؤلفو الكتاب إلى أن التغيير ليس مستحيلًا في النظام غير الكفء وهناك من الطرائق ما يتناسب مع هذا التعليم من أجل إحداث التغيير.

تطبيق عملي:

من خلال تحليل لحوار آخر بين مديرة المدرسة جوان وبين المعلمين، نجد أن ذلك الحوار وضع أسسًا لأرضية مشتركة لجوان والمعلمين في مدرستها لكي يفكروا بالتحسين المستمر من منظور النظام نفسه، والذي جعل تأسيس هذه الأرضية المشتركة ممكنًا، أن جوان نفسها هي التي أوجدت الفرصة للحوار، أي "استجلاء حر يجلب إلى السطح العمق الكامل لخبرة وفكر الأفراد، وفي الوقت نفسه ليتحرك بهم إلى ما هو أبعد من آرائهم الفردية". وبعد ذلك، ينتقل الكتاب إلى الحديث عن كيفية إحداث ذلك التغيير نحو التحسين المستمر من خلال رصد آخر لتأملات مديرة المدرسة ومن أهمها هذا التساؤل الذي يأتي على إثر تلك التأملات وهو "إذا قررت

أن الإنجاز العلمي يتصدر الأولويات، فكيف سيغير ذلك في تخصيصها الراهن في الوقت والطاقة والموارد؟"، وهو ما طرح تساؤلات فرعية وهي: هل ستتخذ الخطوات التالية: 1 - تخصيص أموال لتطوير المناهج لتحقيق تواؤم أقوى بين العمليات المستهدفة و"الأفكار الكبرى" في المنهاج الذي يضعه المعلم. 2 - البحث عن أفضل الممارسات للتقويم لدى كل من المعلمين وفي المؤلفات التربوية بغية تحديد كيف يمكن اكتساب المزيد من البيانات الموثوقة حول عمق فهم الطلبة. 3 - تقويم كيف يمكن للمعلمين أن ينوعوا في التعليم لغرض مساعدة الطلبة جميعًا على المشاركة في التعلم. 4 - التعاون مع آباء الطلبة في كافة الأمور المتعلقة بالعملية التعليمية، ومن خلال إجابة جوان على تلك التساؤلات، سيتم بلورة طريقة عملية لجعل طرائق التحسن المستمر تطبق عمليًّا على أرض الواقع.

تعريف الواقع:

من هذه النقطة ينتقل الكتاب إلى محاولة تعريف الواقع في ضوء البيانات، وذلك باعتبار أن البيانات في نظام كف تعد "نقطة علامة" على الطريق المؤدي إلى التحسن المستمر، ولكي تكون نقاط العلامة هذه موضع ثقة بأنها صحيحة وموثوقة. ينبغي أن توضع من خلال التعاون، وهنا يعني أن جمع البيانات وتحليلها يجب أن ينبع من حوارات غنية بخصوص المعلومات وبخصوص المعاني المختلفة التي يستنتجها مختلف الأفراد من تلك المعلومات. وبعد ذلك يتم جمع هذه البيانات وتحليلها واستخدامها، كما يتطرق مؤلفو الكتاب إلى التحديات التي يواجهها المعلمون والإداريون حين يجرون تقويمًا صادقًا ومخلصًا لممارسات التعليم والتعلم. وبعد تحليل هذه البيانات يتم استخدامها في وضع برامج تفيد في سد الثغرات الموجودة بين الرؤية والواقع وتحديدها، وفي النهاية يتم وضع أسس لازمة لتطبيق التحسين المستمر في المدرسة أو المنشأة التعليمية، ومن ثم يتم وضع خطة عمل تتناول هموم المعلمين ومخاوفهم وتنتج دمجًا لهذه البرامج في المدرسة قاطبة وداخل غرف الصف كل على حدة، مما يؤدي في النهاية إلى تنظيم تطوير المعلمين بطريقة تمكن من وضع ثقافة الاستقلالية الجماعية.

تيسير التغيير:

يستلزم من فريق تسهيل وتيسير التغيير أن يضع خطة عمل تتضمن الخصائص الثلاث الآتية: 1 - المسائل العملية مثل الحدود الزمنية، المواد اللازمة لدعم المعلمين، التغيرات التنظيمية التي تسهل العمل. 2 - وضع مؤشرات يمكن رصدها لقياس كيف ستبدو الحال عندما يتم تطبيق البرامج بنجاح وكذلك النقاط المهمة للنمو والتطور طوال مدة الخطة. 3 - تخطيط الهموم والمخاوف المتوقعة التي قد تحدث أثناء عملية التغيير، ومن خلال القراءة المتأنية لصفحات الكتاب، نجد أن المؤلفين الثلاثة عمدوا إلى صياغة طرق جديدة ومبتكرة لإحداث تغييرات داخل المدارس،

وهو كما أسلفنا يعد هدفًا أساسيًّا لإحداث تطوير وتحسين التعليم في كافة المجتمعات، وخاصة النامية منها.

☆ ☆ ☆

"أريده"

تكشف بي. جيتس في كتاب "أريده" أن الأطفال غالبًا ما يلتمسون الأشياء المادية كتعويض عاطفي ويسقطون ضحية للاستراتيجيات المشتركة التي تغريهم ليكونوا مستهلكين أوفياء في سن مبكرة.

وتجمع بي. جيتس العديد من الأبحاث والمقابلات، لتبين أن الطفولة السليمة تعني أحيانًا طفولة أكثر بساطة، وتعني بشكل أو بآخر تقدير قيمة التواصل الجيد والتفاعل مع الأقران والعائلة.

وتركز الانتباه على استراتيجيات لمعاكسة المادية وتعزيز شخصيات أقوى في نفوس أطفالنا وهم يبحرون في عالم معقد، وتناقش -أيضًا - طرقًا نستطيع من خلالها أن نساعدهم في بناء إدراك النفس وتشجيعهم على اكتساب مهارات ستساعدهم في أن يكونوا راشدين ويتمتعون بالاستقامة وقوة الشخصية.

تقول جيتس في بداية الكتاب "من وجهة نظري" لا يولد الماديون كما هم، ولكن تتم تنشئتهم ليصبحوا كذلك، نحن لا نأتي إلى هذا العالم مع جين يجبرنا على الذهاب إلى المجمع التجاري، على العكس يتعلم الناس من خلال وسائل مختلفة أن يقدّروا أسلوب الحياة المادي".

تعريف المادية:

وتلفت إلى أن تعريف المادية يكون تبعًا لثلاثة مواقف يتخذها الإنسان نحو المقتنيات والثروة، وهي:

1 - إن الاكتساب والاستهلاك يجب أن يكون هدفًا رئيسًا للحياة.

2 - إن المقتنيات تجلب السعادة.

3 - إن النجاح يعتمد على حجم ونوع ممتلكات المرء.

وقبل أن تعرج إلى الحديث عن المادية في العصر الإلكتروني الحالي أوضحت أن علماء الاجتماع أقروا بأن فكرة المادية ليست نتاجات للزمن الحديث، مستشهدة بأن سوق روما القديمة عرف المادية المتعية للطبقات العليا آنذاك، كما كان للبومبيين Pompeiians القدماء نسختهم الخاصة من مراكز التسوق، مع قدر ما يوجد من المحلات وورش العمل في الجادة الخامسة Fifth Avenae، شهدت النهضة الأوربية الإيطالية صعود طبقة التجار جنبًا إلى جنب مع الاعتقاد الحديث الآن بأن جميع المواطنين يجب أن يكون لديهم الحق في القدرة الصعودية للتنقل وفرصة الشراء من أجل حياة مرفهة، ولذلك أكدت جيتس أن المادية كانت وما زالت دومًا جزءًا من الحضارات.

وفي ما يتعلق بالمادية والعصر الإلكتروني، بيّنت الاستطلاعات التي أجريت في الولايات المتحدة على مدى العشرين سنة الماضية، أن الأمريكيين يعتقدون وباطراد أن الحصول على المزيد هو الأفضل.

وادعت الغالبية العظمى في هذه الاستطلاعات بأن دخلًا سنويًّا مقداره 90.000 دولار سيكون مطلوبًا لحياة مريحة، أما العائلات التي تكسب من 75.000 إلى 100.000 دولار سنويًّا فتقول إنها لا تستطيع شراء "كل ما تحتاج إليه".

هنا تستطرد جيتس قائلة: "البشر كائنات اجتماعية ونحن لا نقارن أنفسنا بجيراننا فحسب، بل بأساليب الحياة الحقيقية والخيالية على حد سواء، والتي تنهمر علينا من أجهزة التلفاز والمجلات ودور السينما وحتى حجرات الاغتسال في الحمامات".

وتنتقل جيتس إلى الحديث عن ما يعرف بـ"الحضارة الفورية"، مفسرة ذلك المصطلح بأنه يعني المجتمعات التي تتيح فيها التكنولوجيات الجديدة للناس أن يفوا باحتياجات العمل والاجتماع ووقت الفراغ بسرعة كبيرة، كما يشير المصطلح - أيضًا - إلى موقف ينتقص فيه من قيمة القديم والبطيء، بينما يبجل فيه الحديث والسريع.

وتلفت جيتس إلى أن تلك الارتقاءات السريعة في التكنولوجيا جعلت حياة كل جيل تختلف من حيث النوعية عن حياة الأجيال التي سبقته.

الإعلام والإعلان:

واستشهدت بالأبحاث المتعلقة بالتلفاز التي وفرت بعض الإرشاد في ما يختص بالكيفية المحتملة لتأثر الأطفال، على سبيل المثال، نحن نعلم أن الإعلان التلفزيوني يشجع الصغار على الرغبة في منتجات يرونها على الشاشة، فالصغار الذين يشاهدون مثلًا إعلانات تشجع طعام الحبوب المحلاة، هم أكثر احتمالًا لأن يطلبوا المنتج من أهاليهم مرات متعددة.

وقد تطور أمر هذا الإعلان إلى صفحات الإنترنت وألعاب الفيديو التي صار الأطفال يجلسون أمامها بالساعات، وهو ما يجعل لها تأثيرًا قويًّا على الأطفال ومشترياتهم ونوعية حياتهم.

ولذلك تلفت الكاتبة إلى أن مواقع شبكة الإنترنت الموجهة للأطفال هي مدعاة للاحتفال والقلق على حد سواء؛ لأن العديد من المواقع تقدم مادة تعليمية مفيدة يمكن أن تكون مكملة لتعليم الأطفال، ويشجع البعض منها الإيثار وخدمة المجتمع، ومع ذلك كثيرًا ما تكون هذه المواقع مدعومة من قبل الإعلان، والعديد منها يشتمل على تسوق مرتبط بشبكة الكمبيوتر، فضلًا عن ارتباطه بشكل أو بآخر بمفاهيم أو اتجاهات قد تكون غير مقبولة من قبل الأهل.

وبالنظر إلى هذه الشواهد يجدر بالأهالي أن يكونوا قلقين وفاعلين ولذلك تحدد المؤلفة بعض الطرق التي تساعد الأهالي على اليقظة والحذر من تأثير الإعلام والإعلان ومنها:

1- كونوا مدركين لما يشاهده أطفالكم ولما يلعبون به، تظهر الأبحاث أن أشهر ألعاب الفيديو العنيفة غير مألوفة لمعظم الأهالي، ومع ذلك فإن هذه الألعاب هي مألوفة إلى حد كبير للأطفال، إما عن طريق السماع أو لأنهم يلعبون بها في البيت أو عند زيارة الأصدقاء.

2 - استكشفوا مع الصغار طرقًا ملائمة لتدبر الإحباط والغضب.

3 - تحدثوا مع أطفالكم عن الطرق التخطيطية الإعلانية التي تحاول الشركات من خلالها إثارة رغبة المستهلك.

4 - ساعدوا أطفالكم على التفريق بين الحقيقي والخيالي.

عدوى المادية:

وفي موضع آخر من الكتاب، تتناول المؤلفة ما يعرف بـ"عدوى المادية" وتسعى إلى تفسير موضوعين اثنين مرتبطين بتلك "العدوى"، وهي:

أولًا: جذور الرغبة المادية، فتقول إنه مثل العديد من القيم الحياتية تنشأ المادية من تأثيرات عائلية وثقافية على حد سواء، تشمل الثقافة بالطبع مواضيع كثيرة بما فيها عرق الفرد وجنسه، والحوار والمدرسة والإعلام وغيرها، ومن بين أشياء عديدة تحدد ثقافة المرء وقيمه وأولوياته تركز الكاتبة على إسهام العائلة والانتماء العرقي في تكوين المواقف المادية للأطفال.

ثانيًا: الكيفية التي يؤثر بها الاتجاه المادي في حُسن الحال العاطفي للأفراد والمجتمعات على حد سواء، انطلاقًا من أن العديد من الناس يؤمنون إلى حد ما بأن وسائل الراحة والمادية والرضا متلازمان، وهو ما يظهر بوضوح في المجتمعات الاستهلاكية التي يغلب على أفرادها الحب الأعمى للثروة والشهرة، وهو ما ينسحب على العديد من الصغار من حيث الإعجاب الأعمى بمحاكاة ملابس وأساليب حياة مشاهيرهم المفضلين.

لافتة إلى أن هذا السلوك ينشأ لدى البعض، من الاعتقاد بأن الملابس الباهظة الثمن والتجهيزات ستولد احترامًا إيجابيًّا للنفس.

قوة المحاكاة:

وبالحديث عن المشاهير ورغبة الأطفال في محاكاتهم وتقليدهم، تتعرض جيتس إلى مفهوم وقوة المحاكاة وتؤكد على أن هناك علاقة وثيقة بين وسائل الإعلام المختلفة وقوة المحاكاة؛ لأن الإعلان يولد التوسل لدى الأطفال للحصول على ما يريدونه،

والتوسل يحقق نتائج كبيرة، وهذا ما لاحظه الباحثون الذين يعملون بشكل سري في المحلات ومتاجر الألعاب، أن الأهل يستسلمون في معظم الأحيان لطلبات أطفالهم الخاصة بالسلع المادية.

وللتغلب على قوة المحاكاة تلك والجنوح إلى المادية ترى بي - جيتس أن ذلك يتطلب الفكاك من تأثير وسائل الإعلام المختلفة، وهذا يتأتى بزيادة ثقافة الأطفال الخاصة بوسائل الإعلام من أجل تنشئة أطفال مهيئين لدخول مرحلة الرشد كمستهلكين أكفاء، وتشمل الثقافة الإعلامية المرغوبة، العناصر الأساسية التالية:

1 - فهم السبب وراء إنتاج برامج أو أفلام معينة والكيفية التي أنتجت بها.

2 - فهم ردود الفعل العاطفية للمرء تجاه البرامج.

3 - تقدير البرامج من منظور جمالي "فني".

4 - فهم الأخلاقيات التي تحتويها برامج وسائل الإعلام.

المقارنة و الوحدة:

ثم تعرج المؤلفة إلى استعراض كل من قوة المقارنة وقوة الوحدة، وتأثيرهما في زيادة مادية الأطفال، وتقصد بالمقارنة هنا حرص الأطفال على اقتناء أشياء مثل التي بحوزة أصدقائهم نتيجة المقارنة المستمرة في ما بينهم.

أما قوة الوحدة فيعني بها اشتداد مادية الأطفال عندما يحاولون كسب الصداقات والانتماء والإعجاب من خلال الاستهلاكية، حيث يتجه الأطفال الأكثر عرضة للتأثر بقوة الوحدة إلى السلع المادية كبديل للعلاقات.

والتغلب على قوة المقارنة يستلزم -حسبما تقول جيتس - تعزيز قدرة الأطفال على التعبير عن أنفسهم بتقدير وإعجاب، والقيام بخيارات مستقلة، وكذلك وجود النمط الأبوي الدافئ والمشجع والذي يحفز الأطفال على التفكير المستقل، فضلًا عن أن توافر شبكة موسعة من الأقارب أو الأصدقاء والجيران يساعد الأطفال على أن يأخذوا بعين الاعتبار آراء أخرى عدا عن آراء أقرانهم.

وبالنسبة إلى التغلب على قوة الوحدة، فيحتاج أن يأخذ الأهل الأفكار المفيدة التالية في اعتبارهم:

1- يمكن للأهل أن يلفتوا نظر الطفل إلى وجود تغييرات لمكانة الطفل بين أصدقائه بعيدًا عن التفسيرات الاكتئابية وعندما يعيد الأطفال صيانة الأسلوب الذي ينظرون به إلى العالم، فهم يكسبون مزيدًا من السيطرة على حياتهم الاجتماعية.

2- يحتاج الأطفال إلى أن يفهموا بوضوح العلاقة بين تصرفاتهم وكيفية استجابة الناس لهم.

3- بإمكان الأهل أن ينظروا في تجربة مجموعة المهارات الاجتماعية، بما يتيح للأطفال أن يمارسوا مهاراتهم ويكسبوا ثقة اجتماعية؛ لأن الأطفال المنعزلين لا يحظون بفرص كثيرة لممارسة وتطوير مهاراتهم الاجتماعية، ودون هذه الفرص فإن الأطفال المنفردين بأنفسهم معرضون لخطر من النضج والحرج الاجتماعي، وبالتالي يلجؤون إلى المادية كمفر سهل ويسير يعبرون من خلاله عن ذواتهم.

ومن خلال الإبحار في الأفكار العديدة التي تمخضت عن دراسات وأبحاث مختلفة وردت في كتاب دونا بي - جيتس، تخلص إلى وجود طرائق وأساليب عديدة يمكن من خلالها السيطرة على النزعة المادية لدى الأطفال وتخليصهم من الخضوع للتأثيرات المختلفة التي تجعلهم كائنات عادية لا تستشعر وجودها إلا من خلال اقتناء السلع المختلفة التي تضج بها المتاجر.

☆ ☆ ☆

"رحلة في بلاد القطن"

"رحلة في بلاد القطن" عبارة عن رحلة طويلة وممتعة يسافر فيها القارئ بصحبة إريك أورسينا مؤلف الكتاب، ويتعرف من خلالها على أسرار مادة خام، يستخدم منتجاتها غالبية سكان الأرض إن لم يكن جميعهم، ويتحدث المؤلف عن دور القطن في الدول إلى يزرع فيها، وعن أهميته الاقتصادية وأثرها في التقدم الذي أحرز هناك، ويعالج موضوعات تتعلق بالعولمة، والإفرازات الاجتماعية.

يستعرض المؤلف التنوع الكبير للبلدان المنتجة للقطن (مالي، مصر، أوزبكستان، البرازيل، الولايات المتحدة، الصين..) بأسلوب التحقيقات الميدانية المؤلفة والتفصيلية الغنية باللمسات الإنسانية الحميمية، ويعالج موضوعات كثيرة لا يزال الجدل يحتدم حولها، كالعولمة، والعولمة البديلة، والإفرازات الثقافية والاجتماعية الناجمة عنها.

جنود الإسكندر:

يتحدث الكاتب بداية عن الاكتشاف المبكر لشجرة القطن، في عهد الإغريق حين اجتازت قوات الإسكندر الأكبر نهر الهندوس عام 326 ق. م، التقت بسكان يرتدون ملابس أكثر نعومة وخفة عن أي ملابس أخرى، وهو ما أصاب الجنود بالدهشة واستفسروا عن هذا النوع الجديد من الثياب وجمعوا البذور وزرعوها لدى عودتهم إلى اليونان، لكن النتائج كانت مخيبة للآمال، فتخلوا عن مواصلة التجارب، وهو ما أدى إلى نسيان الغرب لشجرة القطن. بعد ذلك استورد العرب أقمشة من الهند بحكم القرابة الجغرافية ثم بدؤوا زراعة القطن في مصر والجزائر وحتى جنوب إسبانيا، وأعطوا اسمًا للنديفة البيضاء: القطن.

ويضيف الكاتب: "على مدى قرون كان عَالمَان غريبان عن أحدهما الآخر يتعايشان؛ في الشمال كان المسيحيون يرتدون الصوف والكتان، وفي الجنوب باتجاه الشرق كان المسلمون يرتدون القطن، وبعد الحروب الصليبية فتح المجال أمام أشكال من التبادل، ومع التطورات التي لحقت بمدينة البندقية، وتعاظم أهميتها التجارية شيئًا فشيئًا تقدم استخدام القطن في أوربا".

عولمة مبكرة:

في هذه الأثناء، على الطرف الآخر من المحيط كانت أمريكا تربي هي الأخرى نديفاتها، وقد عثر على قطع من أقمشة قطنية في "البيرو" تعود إلى أكثر من ألف سنة قبل الميلاد، وعندما نزل إسبان الكورتيس إلى المكسيك كانوا منبهرين مثلما كان جنود الإسكندر اليونانيين، كانت الملابس المحلية لا تضاهى، من حيث الليونة والقماش الرقيق.

وعن القرن الثامن عشر، يلفت الكاتب إلى أنه شهد زيادة الشغف بالأنسجة القطنية في أوربا، ولم تعد مستوردات الهند تكفيها. وقررت إنجلترا التي اخترعت للتو آلات الغزل والنسيج أن تأخذ مكان الهند، وكانت تحتاج المواد الأولية التي كانت توفرها لها مستعمراتها الأمريكية.

كما أن القطن يزرع في جميع المناطق الواقعة إلى الجنوب من خط العرض السابع والثلاثين، والذي كان يضم ولايات (كارولاين، جورجيا، فلوريدا، آلاباما، لويزيانا، تكساس، أوكلاهوما، أركنساس، أريزونا، كاليفورنيا).

ويشير إلى أنه مع انتشار زراعة القطن في تلك الأنحاء البعيدة، احتاج قطف الثمار إلى أيدٍ عاملة، ومن ثم بدأت أولى عمليات العولمة في تنظيم نفسها، وشكلت القارة الإفريقية جزءًا حيويًّا من هذه العملية، حيث كان التصنيع والرق يتقدمان يدًا بيد، وفي حين كانت المصانع تغطي مانشستر وضواحيها، أصبحت ليفربول مركز تجارة رقيق السود لفترة من الوقت.

ماء قليل:

بعد مرور نحو مئة عام، نالت الولايات المتحدة استقلالها، غير أنها لم تنقطع عن تزويد الوطن الأم القديم بالقطن، ولكنّ همًّا معنويًّا نبيلًا كان يلازم السلطات الفيدرالية آنذاك، ويتمثل في رغبتها منع الرق في ولايات الجنوب، ورفضت هذه الولايات التجاوب مع قرار المنع وقررت القيام بالانفصال، وهو ما كان من الأسباب القوية المؤدية للحرب الأهلية. آنذاك بحثت بريطانيا عمّن سيغذي صناعة النسيج لديها، فاتجهت أنظارها صوب اثنتين من مستعمراتها هي مصر والهند، والأخيرة بدأت في تقديم إنتاجها إلى اليابان التي بدأ نساجوها في الاستيقاظ.

وفي الوقت نفسه، بدأ قطاع النسيج الفرنسي الأخذ في التطور بطرح إنتاجه في إمبراطوريته الإفريقية، ولم تشأ البرازيل أن تضيّع فرصة سانحة، فأخذت في زراعة القطن في منطقة ساو باولو، ومع نهاية القرن التاسع عشر غطت القطنيات والمصانع الكرة الأرضية وكانت تلك تموّن المصانع، وحول زراعة القطن، يقول المؤلف إنه لا يحتاج إلا القليل من الماء (حوالي خمسة وسبعين سنتيمترًا من المطر أو السقي)، لكنه كي يزدهر يحتاج إلى الكثير من الحرارة ولا سيّما الضوء.. وهو يزرع اليوم على مساحة مقدارها خمسة وثلاثون مليون هكتار في أكثر من تسعين بلدًا، لكن أربعة منها (الصين، الولايات المتحدة، الهند، باكستان) تشكل سبعين بالمئة من الإنتاج العالمي، وتأتي بعد ذلك البرازيل وإفريقيا الغربية وأوزبكستان وتركيا.

فوائد جمّة:

شجرة القطن ليست هي النبتة نفسها التي تزرع في كل مكان، فهناك عشرات الأنواع وأهمها ثلاثة وهي:

1 - القطن الهندي ويعطي أليافًا سميكة قصيرة.

2 - القطن المصري ويتميز بأليافه الطويلة.

3- النوع الثالث وله ألياف متوسطة ويمثل خمسة وتسعين بالمئة من الإنتاج العالمي.

ويكشف المؤلف عن حقيقة مهمة تتعلق بشجرة القطن، ألا وهي أن كل شيء في القطن صالح للاستعمال، لا تُرمى من مكوناته أي فضلات.

أولًا: يؤخذ منه أثمن ما يملك، وهو الألياف، وهي عبارة عن خيوط طويلة تحيط بالبذور، تقوم الآلات بفصلها عنها، وألياف القطن ناعمة، مرنة، لكنها مع ذلك متينة، وتقاوم الماء والرطوبة وتقبل أن تغسل آلاف المرات، وتأخذ صبغة اللون كمظهر تحتفظ به وغير ذلك من مزايا لا تستطيع أن تنافسها أي مواد طبيعية نباتية أو حيوانية أخرى، ولذا فيمكن القول إن القطن له الفضل في كساء غالبية الجنس البشري.

وفوائده لا تتوقف عند هذا الحد، بل يستخدم في صناعة الكمادات الطبية وصناعة أوراق خاصة (من بينها الأوراق النقدية) أيضًا والأفلام الفوتوغرافية وفتائل الشمع، كما أن أليافه تدخل في تكوين منتجات التجميل ومعاجين الأسنان والبوظة، ومن الغريب أن بعض أنواع المرق الإيطالي والنقانق الألمانية يمكن احتواؤها على القطن.

وقود يومي:

يبين الكاتب -أيضًا - ما لبذور القطن من فوائد عظيمة وجمة، فهي غنية بالبروتين وتزودنا بجزء من الزيت الذي نستعمله وهو المعروف بالزيت النباتي، كما أن الحيوانات هي الأخرى تتغذى من القطن، فهي تأكل التفل المستمد من البذور وأغلفتها، وتستخدم البقايا في صناعة الأسمدة والصابون ومبيدات الفطريات ومبيدات الحشرات، والمطاط الصناعي، وتدخل مخلفات القطن -أيضًا - في صناعة الكيماويات ومعامل التكرير التي تنتج مواد عديدة، من بينها المواد البلاستيكية.

أما أبسط استخدامات مخلفات القطن بعد قطف المحصول، فهو أن سيقان وأغصان شجرة القطن تصبح فراشًا للدواب، أو يعمل الفلاحون على استخدامها كوقود في حياتهم اليومية البسيطة. واستنتاجًا من المنافع العديدة السابق ذكرها، ينوِّه المؤلف إلى أن هناك مئات الملايين من الرجال والنساء يكرسون وقتهم للاهتمام بالقطن في قارات العالم أجمع.

حاضرة القطن:

بعد الاستعراض السريع لتاريخ القطن وانتشاره في العالم وفوائده المتعددة، يتجول بنا الكاتب بين بعض من أشهر الدول المنتجة للذهب الأبيض (القطن) في العالم، ويبدأ من دولة مالي في غرب إفريقيا وتحديدًا في مدينة "كوتيلا" الحاضرة الرئيسة المالية للقطن، والتي يطلق عليها لقب "باريس إفريقيا" بمقدار ما يسود فيها من علم وتبذير يرتبط بشكل أو بآخر بازدهار صناعة القطن فيها، حيث توجد فيها مجموعة مصانع تابعة للشركة المالية لتطوير النسيج، بعضها يحلج الألياف وينظفها ثم يطويها ويعلبها، ثم يتكفل سيل هائل من الشاحنات بأخذ الحزم (البالات) الكبيرة الزرقاء (وزن كل واحدة مئتان وعشرون كيلوجرامًا) ينقلها ويرفعها فوق أكوام كبيرة يتم تصديرها لاحقًا للمساهمة في سد حاجة السوق العالمية.

والبعض الآخر من المصانع يهتم بالبذور، وهناك تهرس وتضغط وتسخن وتخضع لجميع أنواع الطبخ؛ فمن جانب تخرج أسطوانات صغيرة ويميل لونها إلى البني تذهب طعامًا للماشية، ومن الجانب الآخر يسيل زيت، ويتم التخلص من رائحته (الفاسدة) يذهب إلى موائد الماليين ليزيد من لذة بعض الأطعمة.

مساوئ الخصخصة:

يفصل الفساد الذي استشرى في الشركة المالية لتطوير النسيج والمسؤولة بفضل تحكمها في صناعة القطن عن نصف الدخل القومي المالي، وهذا الفساد الذي أودى بالدولة في النهاية إلى أزمة وكارثة مالية كبرى بعدما انهار سعر القطن، حيث خشيت الدولة من غضب سكان الريف ولم تجرؤ على تحميلهم انخفاض السعر واستمرت في شراء المحاصيل بأسعار سابقة، وتعمق عجز الشركة فأخذ يثقل كاهل المالك الرئيس، أي دولة مالي.

وكان النزيف يفتك بهذه الدولة، لذلك اضطرت لإطلاق نداء من أجل الحصول على تسليف دولي، حينها بدأ البنك الدولي شروطه وبدأت الخصخصة، وتعالت الدعوات من مؤيدي الخصخصة وعلى رأسهم السفيرة الأمريكية هناك بضرورة الانطلاق من توابع الخصخصة السليمة فيجب على كل فرد أن يقوم بمهنته، فمهمة أي شركة قطنية هي إنتاج القطن المربح، وليس محو أمية السكان، ولا صيانة الطرق، ولا فتح العيادات الصحية كما كان الحال في مالي سابقًا قبل الخصخصة، والدولة لديها مهام أخرى غير سد عجز شركة ثقيلة جدًّا تدار أمورها بصورة سيئة.

ادّعاء المنافسة:

يوضح الكاتب أنه في الوقت الذي طالبت فيه السفيرة الأمريكية وغيرها من مسؤولي البنك الدولي الحكومة المالية برفع يدها عن شركات القطن ودعم الفلاحين بشراء القطن منهم بأسعار أعلى من العالمية، كانت الولايات المتحدة تدفع إعانات مالية ضخمة إلى منتجي القطن الأمريكيين، وهو ما يتعارض بشدة مع قانون المنافسة الذي يصدح به البنك الدولي والولايات المتحدة ليلًا ونهارًا. وهنا يأخذ

المؤلف مقتطفًا من حديث لأحد زعماء مالي بعد مفاوضات شاقة مع البنك الدولي "إنهم يرهقوننا بسبب عجزنا، لكن لا أحد يتطرق إلى أسباب العجز، ولولا الإعانات المالية التي يتلقونها من دولتهم لكان المزارعون الأمريكيون ينتجون قطنًا أغلى من قطننا.

ضاعفنا إنتاجنا عشرين مرة منذ الاستقلال، منذ أربعين سنة ونحن نكافح، يومًا بعد آخر لتحسين أوضاعنا، لعبنا لعبة التنافس إلى آخر المدى، لكن دون توفر أدنى حظ في الكسب ما دام اللاعب الأقوى يمارس الغش".

بذور مجاعات:

أبدى هذا الزعيم خوفه من تحطيم زراعة القطن في مالي نتيجة ضغوط البنك الدولي على الحكومة من أجل وقف دعمها للمزارعين، وهو ما يؤدي في النهاية إلى هجرهم لزراعة ذهبهم الأبيض، وهو ما قد حدث نهاية الأمر بعدما رضخت الحكومة لضغوط البنك الدولي وشروطه.

ثم يتحدث المؤلف عن سبب آخر في انهيار القطن وصناعة النسيج في تلك الدولة والمتمثل في المساعدات الآتية من الخارج، والتي حملت بذور مجاعات في المستقبل نظرًا لأنها أدت لتدمير الإنتاج المحلي، خاصة مع وجود تواطؤ غريب مع الصناعة الصينية التي تتحالف مع الإحسان القادم من الشمال لتدمير كل محاولة لنهوض النسيج المالي في مهدها.

ومن مالي ينتقل المؤلف إلى الصين، تلك الدولة التي تطبق نظامًا اقتصاديًّا مستحدثًا يمكن وصفه برأسمالية الشيوعية وتحديدًا إلى مدينة "داتانج" التي بدأت مغامرة النسيج في عام 1992 حيث حشدت هي وجميع القرى المحيطة بها طاقاتها كافة لصناعة الجوارب، وصارت من كبريات المدن في العالم التي تصدر الجوارب بأنواعها المختلفة إلى بقاع الأرض.

ومن خلال هذه الجولة يفسر الكاتب العديد من الأسباب التي جعلت من الصين عملاقًا اقتصاديًّا في مجال صناعة النسيج وأثر ذلك على كثير من دول العالم الأخرى غير أنه يبقى الفصل في ذلك أولًا وأخيرًا محصول القطن باعتباره الأصل في قيام صناعة النسيج وما يستتبعه ذلك من نشوء اقتصادات قوية في هذا الجزء من العالم أو ذاك.

عاصمة القطن:

لوبوك "القوية" هي العاصمة العالمية للقطن، وهي مدينة غنية تقع غرب ولاية تكساس الأمريكية، يشاهد المرء، وهو يتنزه على طول الطريق 114، تشكيلة واسعة من المساكن الباهظة التكاليف. إنها نسخة من إنجلترا الجديدة طرفة عين موجهة لكاليفورنيا (المزيد من زجاج النوافذ، قليل من الصلب) تحية إلى التخمة الألمانية القديمة (المتانة، القوة)، حيث يظن المرء نفسه، وكأنه في الحي السكني

لهامبورج، أو فرانكفورت، لكن الأفضلية لطراز "ناتشيه - نوستالجي": تألق يوناني جديد، جبيهات من أعمدة، وأي شيء في الحديقة يذكرك بـ"القرينولين" (قماش قطني يابس لتبطين الثياب).

القطن أو الإعدام:

ذات يوم من عام 1821، زار عالم فرنسي آخر اسمه "جوميل" حديقة في القاهرة، وفجأة توقف مندهشًا أمام شجرة، ونظرًا لأنه كان عالم نبات، فقد تعرف على اسم الشجرة وهو Gossypium Barbadens. خاص بالألياف التي كانت تحيط بالبذور؛ لأنها كانت ذات طول ونعومة مجهولين، وفي الحال أخطر محمد علي الذي أدرك سريعًا مدى أهمية الطاقة الكامنة في هذا الاكتشاف. أرسل موظفيه فورًا إلى أركان الدلتا الأربعة وأجبر الفلاحين على زراعة هذا القطن تحت طائلة الحكم بالإعدام.

☆ ☆ ☆

ثقافات الشعوب

"رحلة إلى جنوب سيبريا"

سافر جيرمايا كيرتن مؤلف كتاب "رحلة إلى جنوب سيبيريا" مطلع القرن العشرين إلى هناك بهدف دراسة عقيدة شعب "البورات" وثقافاتهم الشعبية، والبورات هم آخر ما تبقى من المغول، الذين اجتاحوا في الماضي رقعة كبيرة من آسيا وأوربا والهند وسيطروا عليها، والنتيجة رحلة شائقة يستعرض فيها المؤلف المناطق السيبيرية الواقعة تحت السيطرة القيصرية الروسية، ويصف أحوالها وطبيعتها وسكانها، متناولًا في ذلك شعب "البورات" مسجلًا جزءًا كبيرًا من أساطيرهم وحكاياتهم التي باتت اليوم طي النسيان.

ينتمي كتاب "رحلة إلى جنوب سيبيريا" إلى الحقبة الزمنية التي كان فيها الكتّاب والباحثون موسوعيين ويحيطون بجملة من المعارف، علاوة على تخصصاتهم الضيقة، فقد تخرج مؤلفه جيرمايا كيرتن في جامعة هارفارد عام 1863، وعُين أمين سر البعثة الأمريكية ثم قنصلًا في روسيا، وعلى مدى ثلاثين سنة، سافر ودرس وكتب عن بلدان وثقافات وشعوب عديدة، وبسبب عمله كموظف في مكتب الأعراق البشرية في واشنطن فقد درس لغات الهنود الحمر الأمريكيين بين الأعوام 1883 - 1891 وخصوصًا قبائل الأيروكا، والمودوك، واليوشي، والشوان.. إلخ وحيثما حلّ في أرجاء المعمورة كان اهتمامه الأساسي لغات تلك البلاد التي يرتحل إليها وثقافاتها وحكاياتها وأساطيرها حتى قيل إنه أتقن سبعين لغة.

بحيرة بايكال:

في بداية الكتاب، يتناول كيرتن منشأ النشاط المنغولي، مستعينًا بالأساطير والحكايات التي جمعها عن البوراتيين ومعتقداتهم وطرق عبادتهم وعاداتهم التي درستها من مصادرها الأصلية، فيقول: يطلق على البوراتيين بالمعنى الضيق "المغول" وهم يقيمون على ثلاثة أطراف من بحيرة بايكال، وكذلك في جزيرتها الوحيدة "أولخون"، وتعد بحيرة بايكال أكبر مصدر للمياه العذبة في العالم القديم، حيث يبلغ طولها أكثر من أربعمئة ميل ويتراوح عرضها بين أربعة وعشرين ميلًا إلى ستة وخمسين ميلًا، وتبلغ مساحتها الإجمالية نحو ثلاثة آلاف ميل مربع، والبوراتيون الذين يعيشون غرب هذه البحيرة، والذين يقطنون في جزيرة أولخون المقدسة، هم المغول الوحيدون الذين حافظوا على عرقهم ودينهم بأعرافه البدائية، واعتقاداته القديمة وفلسفته.

ويبين كيرتن أنه من الناحية التاريخية فإن منطقة بحيرة بايكال التي تحوي هذا المصدر الهائل من المياه تعد ذات أهمية عظمى، حيث انحدر من الأراضي الجبلية إلى جنوب البحيرة، تيموجين، الذي عرف لاحقًا باسم جنكيز خان، وتيمورلنك (الرجل الحديدي الأعرج) وهما أكبر شخصين عرفهما التاريخ المغولي، ولكن من بين أحفاد جنكيز خان الكثيرين "قبلاي خان" الذي هيمن على الصين وبورما

وأراضي شرق الهند، و"هولاكو" الذي دمر بلاد فارس واقتحم بغداد وأنهى الخلافة العباسية، أما القائد الآخر فهو باتو الذي غطى روسيا بالدماء والرماد، ودمر هنجاريا وطارد ملكها حتى البحر الأدرياتيكي وسحق القوات الألمانية وحلفاءها المتضامنين ضد المغول في لينجتز وعاد إلى منطقة الفولجا حيث أنشأ فيها قصره الرئيس.

صرع عالمي:

حكم أتباع جنكيز خان روسيا لمدة قرنين وخمسة عقود، وسيطروا على الصين لمدة ثمانية وستين عامًا، وبزغ مغول الهند باعتبارهم أنبغ من تيمورلنك وأعظم من جنكيز خان، وكان تاريخهم استثنائيًّا مع بزوغ نجمهم وأفول إمبراطوريتهم التي أسسوها، وانحدر هذان الفاتحان من جد جنكيز خان العظيم "تمينكي" لذلك اشترك الرجلان بالدم نفسه والأرض نفسها، وهي منطقة جنوب بحيرة بايكال، ومن ثم بدأت القوة المغولية مسيرتها بالقرب من البحيرة وانتشرت حتى غطت آسيا وجزءًا كبيرًا من أوربا وواصلت اجتياحاتها محدثة صراعًا عالميًّا ترك آثاره على أرجاء الأرض في تلك العصور.

ويصف كيرتن، إيركوتسك عاصمة شرق سيبيريا، بأنها المدينة الوحيدة على سطح الأرض التي لديها نهر في مقدمتها، هو نهر الأنجارا شديد الزرقة وشديد العمق أيضًا، ويجري بسرعة هادرة توحي بقوته العاتية، ويُقال إن هذا النهر لا يتجمد أبدًا إلا في يوم عيد الميلاد، ويتجمد حتى القاع في ليلة واحدة ويتوقف عن الجريان عشية عيد الميلاد، وصباح عيد الميلاد يكون ساكنًا، ويتوقف عن الجريان ويبرد هذا التدفق العظيم من المياه حتى يصل إلى قاع النهر وتكون درجة حرارته فوق التجمد بقليل، وبعد ذلك يصبح قطعة من الثلج في ليلة واحدة، كما لو كان بفعل ساحر، ويخمد هذا النهر العظيم حتى يوم انبعاثه، عندما تفك الشمس وثاقه وتنفخ الحياة فيه من جديد، وينقل كيرتن رؤيته لأول مرة مجموعة من البوراتيين الجبليين، وهم يمتطون جيادهم، مشيرًا إلى أن حركة الخيول المغولية كانت غريبة، فخطواتهم التي تبدو قصيرة وسريعة تؤدي إلى سرعة أكثر بكثير مما يمكن للمرء أن يتصور كما يوضح أهمية الجواد في الأساطير المغولية، التي تعد الجواد أكثر حصافة من البطل الذي يمتطيه، فبالإضافة إلى خدمته لصاحبه، غالبًا ما يقدم له التوجيهات الحكيمة ويوفر له المشورة.

الأعراس البوراتية:

يتحدث كيرتن عن ذهابه إلى أحد الأعراس البوراتية الذي يتطلب عدة أيام وأحيانًا عدة أشهر لإكماله، وكان ذلك الجزء من الاحتفال في قرية تُدعى "شامورك"، فيصف ذلك قائلًا: "بعد السير لفترة من الوقت هنا وهناك، ذهبنا إلى أعلى التل ووجدنا عددًا كبيرًا من الناس، ليس من تلك القرية وحسب، ولكن من قرى أخرى في المنطقة، وكانوا جالسين على الأرض على شكل مجموعات منظمة، وعلى

ثلاثة جوانب في شكل رباعي الأضلاع، جهتان منه تقع على جانبي التل، والجانب الثالث يوصل الجانبين أعلى التل، والجزء السفلي من التل بقي من دون أحد".

وفي هذا الفضاء الرحب -وفق كيرتن - كان الناس يأتون ويذهبون وبعضهم يجلب المرطبات، التي تتألف بشكل رئيس من التاراسان (حليب الويسكي)، ولحم الضأن المسلوق، أما الآخرون فبعضهم انضم إلى المحتفلين الجالسين على الجانب الواطئ من التل، وفي هذه الأثناء كان الرجال الذين يحملون التاراسان يوزعونه من مجموعة إلى مجموعة ويسقون كل من يرغب في المزيد، وبدا أن الأشخاص الجالسين مستمتعون بتذوق ما لذ وطاب من الأطعمة والمشروبات، ولم يكونوا صاخبين أو مسرفين، ولكن تبين أنهم فرحون بالحدث في هذا اليوم الجميل من ضحكاتهم، وأحاديثهم التي منحتهم شيئًا جديدًا كانوا يتمنون حدوثه.

النار المركزية:

يعرج كيرتن على تناول الطراز العمراني للبيوت البوراتية، الذي رآه حال وجوده ضيفًا على منزل والد العروس، ويشير إلى أن كل بيت بوراتي له ثمانية جوانب، وبما أن القرية كانت تواجه الجنوب، فإن كل باب في المنزل كان يفتح في اتجاه الجنوب، والباب في منتصف هذا الجانب يواجه الاتجاه الجنوبي مباشرة، وللبيت أرضية خشبية تعلو فوق سطح الأرض بشكل بسيط، وفي الوسط ساعة مستطيلة لها أرضية فيها، وإنما يظهر تراب الأرض، وفي هذه المساحة تشعل النار، وفوقها مباشرة في السقف فتحة أو فجوة للدخان، ولا توجد حواجز في هذا المبنى، وتقدم الستائر الخصوصية الوحيدة المتوافرة، وتستخدم الصناديق كخزائن للملابس.

وتعتبر النار المركزية هي نقطة التجمع في المنزل، بحيث يجلس الرجال على حافة الأرض المرتفعة رافعين أقدامهم في فراغ الحفرة، ويتجمعون كلما شاؤوا ليتبادلوا أحاديث القيل والقال والثرثرة والكلام عن الأعمال التجارية، أو لسماع أخبار جديدة. ومن وقت إلى آخر يفتح وعاء كبير أو سطل، يتسع لجالون أو أكثر من شراب التاراسان ويمرر من شخص إلى آخر، وفي السطل مغرفة خشبية يستخدمها كل شخص ليغرف ما يشاء من شراب.

وفي الزاوية اليمنى العليا لكل منزل هناك صور للآلهة "أنجونز" المفترض بها حماية المنزل والممتلكات، والآلهة أنجونز تحفظ في صندوق يتكون بابه من أربعة ألواح زجاجية صغيرة، والصندوق معلق على أعلى عمود للسقيفة، ويحتوي على صور بسيطة للآلهة، وهم رجال ونساء صغار جدًّا، وإخراج هذه الآلهة من الصندوق يجلب مصيبة كبرى للعائلة تبعًا لمعتقداتهم.

قربان الحصان:

يتحدث كيرتن عن طقوس التضحية بالحصان عند البوراتيين، موضحًا أن هذه الطقوس أو ما يسمى بـ"التايلجان" تحدث على تل يسمى "أوهار" وقد بني على هذا

التل خمسة عشر مذبحًا كبيرًا من الحجر، وتقام التضحية على يد أفراد من الفخذ الأول، والفخذ الثاني من قبيلة أشيخابات، وسكن مؤسس هذه القبيلة في باجانتينج كما ورد في الماضي الأسطوري، والتي تبعد نحو ميلين عن أوهار، وكان لدى ذلك الرجل أو مؤسس القبيلة سبعة أنجال، وقام هو وأنجاله بالتضحية (للبوركانز)، وهم آلهة هضبة أوهار، ومضى خمسة من الأنجال السبعة إلى ما وراء بحيرة بايكال، ويقوم أحفادهم بالتضحية إلى يومنا هذا، غير أنهم يضحون لأجل باجانتينج، حيث نشأت عشيرتهم ويسكن ابن مؤسس العشيرة.

ويحدد الكاتب طقوس التايلجان أو التضحية بالحصان في ما يلي:

قرابة الساعة السابعة من صباح مراسيم التضحية ترسل مختلف الأسر من القبيلة عددًا كافيًا من الرجال إلى الأوهار مع الأواني وشراب التاراسان والحليب والشاي والأغصان والأشجار والشجيرات، وغيرها من الأشياء اللازمة للتضحية.

ويقف الرجال الذين أرسلوا مقدمًا مع المؤن والأواني في منتصف الطريق إلى الأوهار، ويريقون الحليب والتاراسان إلى آلهة الهضبة والجبل، وإلى كل الآلهة الذين قد يكونون موجودين، يتضرعون إليهم أن يهبوهم أولًا تضحية جيدة وكريمة، ومن ثم النجاح والازدهار للذين قاموا بالتضحية، ويذهب جوهر الحليب والتاراسان في الحقيقة إلى الآلهة بكميات كبيرة ونوعية فاخرة، ويجهز الرجال الذين أرسلوا مقدمًا عند وصولهم إلى هضبة التضحية مواضع الغلايات ويعلقونها على حاملات ذوات ثلاث قوائم ويجهزون الحطب تحتها وتكون جاهزة للاشتعال.

وتشعل النيران عند اجتماع الحشد ويطهر الحصان في بادئ الأمر وذلك بقيادته عبر النيران (يجب وجود إما ثلاث أو تسع أو سبع وعشرون نارًا)، ويقاد بعد ذلك إلى الأشخاص الذين يتولون المهمة، والذين يرشون الحليب على وجهه، وعلى شعر رأسه، ويلقون القليل منه في الهواء للآلهة، وبعد ذلك يراق التاراسان ومن ثم يقومون بالصلاة وطلب الرحمة والمغفرة من جميع الآلهة، ويقاد الحصان إلى الجهة اليمنى بشجرة بتولا صغيرة تحفر من غابة قريبة، ويكون الجزء الأسفل من جذع الشجرة على الأرض ويستذكر الجزء العلوي من الأغصان على عارضة، وتسمى الشجرة "قدم موضع التضحية".

الآلهة التسعون:

يستدير الأشخاص المكلفون بالتضحية وهم يقولون مع انحناء الركبة "نحو الآلهة التسعين الغربيين أولًا، ومن ثم إلى الآلهة الأربعة التوجيت الشرقيين"، وتوجيت تعني "كاملًا" هؤلاء هم الآلهة الذين نزلوا من السماء وهم في الشرق، ولكن مكانهم غير معروف تحديدًا، ويستديرون بعد ذلك إلى الأوندر ساجان تانجرين (الجنة الصافية الرفعية)، ويريقون الخمر لكل الآلهة أو مجموعة من الآلهة بينما يذكرون

أسماءهم ويتوسلون بعد ذلك إلى أولجين ساجان ديدا (الأرض الموقرة الطاهرة)، والتالي هو بوقا نويدن باباي (أب الثور الأمير)، ومن ثم بوردنج يهي ليبي (أم الضباب المباركة) وزايا هونج يهي زاياشا (الخالق العظيم، الذي خلق الجميع)، وهذا هو القنفذ في الوقت الحاضر، وهو الأكثر حكمة بين جميع الآلهة في دين البوراتيين، على الرغم من أن آلهة أخرى حلّت محله، والتالي هو زايانج ساجان تنجيري (الخالق، الجنة النقية)، ثم إيسيجي مالان باباي (الجد ذو الرأس الأصلع)، ثم إيهي أورنج ليبي، وبعد ذلك آداها زاينج (خالق الماشية)، وأواها سولدنج (الفرس الذهبي)، أي بمعنى ضوء الشمس أو فجر الصباح، وفجر الصباح هو خالق الجياد ثم هوتوج ميلجان (أحدب الظهر) وهي آلهة السماوات الليلية وخالقة البشر.

الرجال الستة عشر:

يقوم الناس بالتضرع إلى جميع الآلهة بالاسم وبالترتيب المحددين، وتخالف كما يُخاطب القديسون في الصلاة عند المسيحيين، ويستغيث الذين يؤدون المهمة بالآلهة، ويتبعهم الناس، إما علنًا أو سرًّا، ويدعو كل رجل عادة ويصلي لشيء محبب لديه، أو يرغب فيه بشدة، وعند انتهاء الصلاة تربط الحبال بإحكام على خصل الشعر في مؤخرة قائمة الفرس، ويمسك كل حبل أربعة رجال ومن ثم يسحب الرجال الثمانية الآخرون الأرجل الخلفية إلى الوراء بعيدًا بعضها عن بعض، ويسقط الحصان على جانبه ثم يقلب على ظهره ويمسك الرجال الستة عشر الحبل بقوة، ويكون الحصان حينها عاجزًا كليًّا عن الحركة، ويأتي رجل، ومعه سكين حادة وطويلة وذراعه اليمنى عارية إلى الكتف، وبضربة واحدة يحدث جرحًا عميقًا في عظمة الصدر، ويدفع يده في الفجوة، ويضع يده على قلب الحصان، ويسحبه بقوة من صدره، ويحاول الحيوان المسكين أن يقاوم، ولكن دون جدوى، وينفق على الفور، واختلف الوضع إلى حد ما مع الحصان الآخر، وبالتأكيد لم يؤد الرجل عمله ببراعة، أو أن يده كانت أضعف، حيث إنه بعدما سحب يده واعتقد بأنه انتهى، استعاد الحصان وضعيته بحيث إنه تمكن من عض الأرض من كثرة معاناته وعذابه، كان المنظر محزنًا وكشر الحيوان عن أسنانه بشكل مريع، وأصبحت عيناه خضراوين وزرقاوين وتشبهان الى حد كبير لون بعض الخنافس، ولم أر في حياتي تعبيرًا شنيعًا عن ذلك الألم المريع من قبل، وتأوه الحيوان مرة واحدة بصوت ألم لا يوصف، وأبقى فمه في الأرض لوهلة ثم سقط جثة هامدة.

الماعز الأبيض والأسود:

في حال المرض يرسل في طلب الشامان (الشخص المعالج) على الفور، ولاكتشاف علة المرض يحرق كتف النعجة حتى تصبح بيضاء اللون، ومن التصدعات في العظم يكتشف ما فعل الشخص المريض لإغضاب هذا البوركان (من آلهة المغول)، أو ذلك، وعندما يكتشف أي بوركان قد تسبب بالمرض، يحضر التضحية المناسبة لإرضائه، ومن خلال تجربته الشخصية يعلم الشامان القربان الملائم، فإذا كان

المرض بسيطا، تتم التضحية ببعض من التاراسان، ولكن في حال المرض الخطير فعلاوة على التضحية بالتاراسان تتم التضحية بحيوان، والكثير من البوركان دقيقون للغاية في ما ينبغي تقديمه لهم، والبعض الآخر غير مبالٍ، فللبعض يجب أن تكون التضحية كبشًا أسود، والبعض الآخر يرى أن يكون الكبش أبيض اللون، والبعض الآخر يرى أن الماعز ذا اللون الأبيض هو الشيء المناسب، بينما يرى الآخرون أن الماعز الأسود هو الأنسب، وهناك بعض من البوركان الذين لا يمكن استرضاؤهم من دون التضحية بثور أو حصان.

طقوس الموتى:

عادة ما يحرق البورات موتاهم، ولكن أحيانًا يضعون الجثة في تابوت، ويدفن التابوت في الأرض، وهذا ما يطلق عليه بـ"الدفن الروسي" ولكن عمومًا إذا توفي الرجل في فصل الخريف أو الشتاء تسجى جثته على زلاجات تجرها جياد عزيزة على المتوفى، تسحبه إلى مكان منعزل في الغابة، حيث هناك منزل مبني من الأشجار والأغصان الساقطة، وتودع الجثة داخل هذا المنزل، ويوضع جذعان إلى ثلاثة جذوع من الأشجار كحائط حول هذا المنزل حتى لا يتمكن أي حيوان كالذئب أو غيرها من الدخول داخل هذا المنزل، والجواد الذي يجر الجثة، يساق إلى مسافة قريبة، ويقتل بضربة على رأسه بفأس، ومن ثم يترك لكي تلتهمه الذئاب، إذا كان الرجل فقيرًا بحيث لا يملك حصانًا، ولكنه يملك بقرة، تباع البقرة، ويشترى حصان ليأخذ الجثة إلى الغابة، أما إذا كان فقيرًا بحيث لا يمكن شراء حصان فتحمل جثته على نقالة.

"في فضاء الأدب الألماني"

مواضيع هذا الكتاب "في فضاء الأدب الألماني" جديدة على المكتبة العربية، إذ عمد من خلالها المؤلف بروكهارد مولر إلى جمع مقالات ودراسات تتناول عددًا من الأعمال الأدبية الألمانية، محاولًا إلقاء الضوء على إبداعات أصحابها ليسبر غورها ويقدمها بطريقة مختلفة تشكل مفاتيح للعمل الإبداعي، بقدر ما تفتح نوافذ جديدة على حيوات هؤلاء الكتاب.

يبدأ مولر حديثه عن فيلهيلم بوش صاحب الحكايات المصورة ذات الأسلوب الساخر، قائلًا إن من يقرأ لبوش عليه أن يبدأ بحكاية "ماكس وموريتس" وهو كتاب إن لم يكن صاحبه قصد جعله كتابًا للأطفال، إلا أنه ككتاب للأطفال بلغ منزلة لم يبلغها كتاب آخر. حتى أنه ترك أثرًا واضحًا في الحياة الاجتماعية الألمانية، فلم يتجرأ الألمان ولفترة طويلة على تسمية أطفالهم موريتس أو ماكس لإحساسهم بخجل لم يبدأ بالزوال إلا بعد سنوات عديدة (ماكس وموريتس مثّلا شخصيتي طفلين مشاغبين يصادقان الضفادع والحشرات).

التربية السوداء:

واللافت، أن حكومة شتايرمارك منعت بيع هذا الكتاب حتى عام 1929، فيما كان السبب خوفهم من "التربية السوداء" بعنفها الكاسح، أما بالنسبة للطفل نفسه فقد كان كل من ماكس وموريتس مفهومين ضمنًا ولكنهما بقيا في الوقت نفسه خارج حدود حياته كليًّا، بحيث لم يشعر بالخوف منهما ولا بالرغبة في تقليدهما، بل كانا بالنسبة إليه مجرد حادثة من نوع مميز.

ويلفت مولر إلى أنه يمكن اعتبار كتاب حكاية "شتروفلبيتر" مقابلًا لكتاب "ماكس وموريتس"، حيث أراد بوش للكتاب أن يكون خاصًّا بالأطفال وذا صلة بالأدب الشعبي الألماني في الوقت نفسه من حيث وضوح إخلاصه لفقراء أوربا الذين مثلوا أكثر من نصف سكانها في بداية القرن العشرين، حين أصدر مؤلفاته، وهو ما يظهر بجلاء عبر شخوص هذا الكتاب "شتروفلبيتر" مثل الفلاحة الشابة التي تبدو دومًا بمنتهى النحالة والهزال، وهذا المزارع المحتقر في صنوف الأدب الأخرى السائدة آنذاك، أما ما يتعلق بالأطفال في سياق الكتاب فيظهر في خرافات الحيوانات وأساطيرها الضاربة الجذور في حكايات الأدب الألماني عبر مئات السنين.

ويشير الكاتب إلى أن جميع حكايات بوش يسيطر عليها الضحك النابع من العنف في المقام الأول، فالعنف يحدد معالم الرسومات ومجريات أحداثها أكثر من أي شيء آخر، مع العلم أن سلاسل الحوادث التي تمر منها الحكايات وتدفع نحو أوج حبكتها تنسب وبحق هي الأخرى إلى العنف، وبوش يكاد لا يُبدي حتى ذرة واحدة من الشفقة على ضحاياه سواء تعرض هؤلاء لسوء حظ أو لعمل تربوي أو حتى إعدام، ويكاد بوش لا يتوقف عن الوسوسة للقارئ والناظر أن هذه ما هي إلا دمى مسرح ورقية، ولا يتورع عن إطلاق عنان فرحة الشماتة بها.

مبدأ اللذة:

ينتقل مولر إلى سيجموند فرويد لا باعتباره رائدًا لمدرسة التحليل النفسي، بل باعتباره صاحب مؤلفات عديدة استطاع من خلالها تشريح النفس البشرية، وعرف بواسطتها الناس مصطلحات فرويدية شاعت في كثير من نواحي العلوم والأدب، ومنها "الليبدو" ويقصد به في عالم فرويد الهيدروليكي المساء، ومبدأ اللذة هو جاذبية الأرض.

ويعبر فرويد عن كثير من آرائه عبر واحد من أهم مؤلفاته وهو "ما وراء مبدأ اللذة" الذي صدر عام 1920 وكانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت لتوها وجلبت معها نمطًا جديدًا تمامًا من الاضطرابات النفسية، وحالات العصاب التي عانى منها عدد هائل من الجنود الذين كانوا مطمورين أيامًا طوالًا في خنادق القتال، أو مزقت أطرافهم إحدى القذائف، وقد كان على هؤلاء ووفقًا لفرويد أن يعيدوا في يقظتهم وفي أحلامهم مرارًا تلك الأحداث البشعة، فبهذه الطريقة فقط يمكن إغلاق الشقوق العميقة في بنيتهم الجسدية والنفسية.

ثم يستعرض المؤلف عددًا من مؤلفات فرويد حتى يخلص إلى نتيجة مؤداها أنه لو كان تطور التاريخ قد أتى على حيز الهوادة الذي ترعرع في ترف ونعيم العصاب العادي للبرجوازية، فإن النموذج الذي طوره فرويد يبقى مسايرًا للعصر.

وفي هذا السياق يؤكد أن أعمال فرويد ارتكزت على محورين رئيسين بينت كثيرًا من جوانب الشخصية الفرويدية وهما: الاحترام الذي تقدمه هذه الأعمال للفرد بصفته الكائن الوحيد الموجود بالفعل، حتى لو كان ثمن ذلك الوصول إلى طرق مسدودة والوقوع في التناقضات، والإصرار على الوضوح والصدق الذي لا ينثني رغم كل شيء، وهو ما تبين من قول فرويد حين أجبر على مغادرة فيينا عام 1938 وإخفائه لكتاب موسى والتوحيد ليبقى محفوظًا في الخفاء، حتى يحين الوقت يومًا ما، ويكون له أن يتجرأ على الخروج إلى الضوء دون خطر، أو حتى يكون بالإمكان القول لشخص يجاهر بالإيمان بنفس الاستنتاجات والآراء، لقد سبق وأن كان ها هُنا شخص في أوقات معتمة أكثر له نفس تصوراتك.

إساءة تقدير:

يعرج مولر على نمط مغاير من الأدب ألا وهو الشعر، عبر تحليله لبعض أعمال جيرترود كولمر الشعرية، لافتًا إلى أنها أكثر من يساء تقديرهن من الشاعرات والشعراء في ألمانيا وأرجع ذلك إلى سببين اثنين؛ أولهما: الظروف غير المواتية التي أنتجت كولمر في ظلها معظم أعمالها، والتي رغم ذلك لم تحل دون أن يصنفها الكثيرون ضمن أعظم الشخصيات الأدبية في القرن العشرين، أما السبب الثاني في جهل الكثيرين وإساءة تقديرهم لجيرترود كولمر فيمكن البحث عنه في أن كل ما

كتبت من أعمال أدبية في النصف الأول من القرن العشرين يقع بشكل تلقائي في حيز النزاع القائم بين اللونين الأدبيين الحداثة والمحافظة، وهذا النزاع لم يكن في صالحها، فكان واضحًا أنها لا تنتمي إلى الحداثة المؤهلة وعليها أن تكون إلى جانب المحافظين لا سيّما أنها كانت تتحدث عن الحب والطبيعة.

غير أنها من الناحية الأخرى لا يسعها أن تعتمد على مشاركة هؤلاء الوجدانية، وذلك بسبب كثرة ما عندها من أمور غريبة مثل شغفها بروبسير والقوة المطهرة للفضيلة الثورية.

في أعمال جيرترود كولمر كانت حكاية العلاقة بين الإنسان والطبيعة تبدأ بوقوف العجز المرتجف للإنسان أمام قوة الطبيعة الجبارة، وتنتهي بشكل عابر يطرح الطبيعة بعنف أرضًا.

ولكن وفي ذلك المقام الذي قلبت فيه الآية، كان من الممكن وجود طرف ثالث، هناك تقف أعمال كولمر التي تتخطى كل ما يعترض طريقها من عقبات، وتتخيل وضعًا يخلو من كل خوف ومن كل سيادة، ومن جميل شعر كولمر الذي يعكس شخصيتها المتمردة وفي الوقت نفسه يعبر عن واحد من أدبيات التراث الشعبي الألماني عبر حكاية "زمارهاملين" المعروفة في الأدب الألماني.

نجد كولمر تقول:

نحن دوما نساء وذوات اللحية الزرقاء؛

دومًا حذرات،

لن نصدق أبدًا حقيقة،

نخمنها مرتجفات.

يتوعد دومًا صوت خافت "ارجعي!"،

لا يحملنا الحذاء إلا بتردد،

ونرفع نحو البوابة

أيادي عاصية.

سخرية اللغة:

وفي ميدان الشعر مع الشاعر الألماني كارل كراوس، الذي استطاع أن يجمع بين اللغة الساخرة والشاعرية في آنٍ.

ونأخذ هنا قصيدة "ساعة الليل"، ومن خلال تحليلها نعرف بعضًا من خصائص كراوس الفنية، يقول فيها:

ساعة ليل، تمر عليّ،

لأني أفكر، أتأمل وأقلّب،

وها هي الليلة تنقضي.

عصفور في الخارج يقول: إنه نهار.

ساعة ليل، تمر عليّ،

لأني، أفكر، أتأمل وأقلّب،

وها هو الشتاء ينقضي.

عصفور في الخارج يقول: إنه ربيع.

ساعة ليل، تمر عليّ،

لأني أفكر، أتأمل وأقلّب،

وها هي الحياة تنقضي.

عصفور في الخارج يقول: إنه موت.

في السياق ذاته، يقول مولر إن كراوس قد نصح في "مدح النهج الحياتي المعاكس" بالنوم طيلة ساعات النهار وعدم الخروج إلى الحياة إلا ليلًا حين يخلد باقي البشر إلى النوم، إنه منطوق الحكم على الحياة التي يعيش فيها.

لا بدَّ من التنازل عن المجموعة وضوء النهار، على الكاتب الساخر أن ينتظر حتى يحل الظلام ويكون وحده من أجل الرد في عمله الليلي على أهوال وسخافات الساعات الاثنتي عشرة المنصرمة، حيث لا يمكنه أن يعيش ويعمل، إلا عند توقف الوقت التاريخي بشكل مؤقت غير أن ذلك لا يعني أن الوقت يلغى تمامًا بل على العكس فإن الوقت المفرغ الذي هو إيقاع موسيقي يتأسس عليه كل ما يحدث يجري عندئذ بالذات بشكل ملموس لا هوادة فيه.

يضيف مولر في معرض حديثه عن كراوس، إن وجود الكاتب الساخر إنما هو تأرجح بندول من العذاب، يتخلف عن سير العالم مقدار مرحلة واحدة.

"كافكا" درة الأدب:

"الخنق" الذي تحدثت عنه قصيدة "السبب" قد يفرق هنا عن الأفعال الثلاثة المكررة ثلاث مرات، دون أن يفقد هذا المستوى الأعلى من التمايز والانعكاس شيئًا من تأثيره المستوفى، فكل إشارة إلى عذاب العمل هذا قد يجر وراءه شيئًا آخر غير نفسه، غير حصيلة عمل فني ما قد مات تمامًا من قصيدة "ساعة ليل" وهكذا فقد أزيل التماثل المخفف للعبء مع النبتة، والذي كانت القصيدة انتهت به، الأنا يعود بشكل تام إلى الحياة الحيوانية، أي إلى المسار من جديد، وبهذا يكون الكاتب الساخر طرد من اليوم، ولكنه لم يطرد من الوقت، فصيغة الوقت المفرغة اللامتغيرة يعيد تشكيلها جمود القصيدة التي تسير كآلية الساعة.

ثم يدلف المؤلف إلى درة الأدب الألماني "كافكا" كأحد أفضل أدباء الألمان في فن الرواية والقصة القصيرة ويطرح سؤالًا عن محتوى كتابات كافكا، غير أن مولر يعود فيقول إن سؤال من هذا النوع لا يخلو من الأشكال لأننا سنقع بذلك في شرك التفسير الجزئي بكل سهولة، وللتغلب على هذه الإشكالية يعمد المؤلف إلى التعرض بالتحليل إلى نص بعنوان "رفض".

ويقول مولر "صحيح أن هذا النص لا يمكن إساءة فهمه كما قلنا، ولكن ذلك لا يعني، أنه لا يحبس أنفاسنا لأول وهلة بما انضوى عليه من فظاعة ما يعبر عنه بهذا الإيجاز وهذا الهدوء، والذي يتمثل بتلك الضرورة التي بعث فيها الرجال والنساء الهم والحزن في نفوس بعضهم بعضًا، والسبب في حصول ذلك يعود في المقام الأول إلى حقيقة أنهما يتوقع أحدهما من الآخر سعادة لا تقاس، ولكن التوصل إلى أمر لا يقاس يعني بدوره أن المقارنة غير واردة".

فتاة ورجل:

يقول مولر في كتابه إن في هذه المحادثة بين الفتاة والرجل، بين (نهد) "اك" و"لم" (تقم) تغني القيمة المالية أغنيتها وقد ارتدت قناعًا ما، وهما يقدران قيمة كل منهما، والمحادثة تبدأ، كما جرت العادة تقليديًّا بأمنيات الرجل الحساسة، والفتاة متهيئة لذلك، وهي ترفض بشكل مباشر وروتيني موفرة على نفسها بذلك كل جهده، وكأن كلمة "لا" أكثر بكثير، مما يحق للمرء، لهذا الرجل توقعه منها. والحوار لا يجري بشكل صريح على الإطلاق، إذ إن =

من قواعد اللعبة بين الجنسين، أن يكون الحوار بينهما أبكم أو متنكرًا والنمط الخاص لوجوده يرتكز هنا -أيضًا - على اللعبة ما بين "حين" (WENN) و"فإنها" (SO) في الجملة الأولى، وهذه اللعبة تمنح الحوار تلقائيًّا قوة وجوده. النهاية التي يطمح إليها الرجل لا يمكن لها أن تحصل، وذلك لأنه لا يملك ما يمكن أن تكتفي به المرأة، ما ينطبق هنا على مظهره الخارجي، وعلى موارده المادية (العاملان الكامنان في صورة الأمريكي التي توردها الفتاة). الفتاة تلمح له على نحو يخلو من الاحترام، أنها أفضل بكثير، بعبارة أخرى أثمن بكثير من أن يحصل عليها هو. وحقها في الاختيار الذي تستعمله هنا تجاه من يخاطبها في الشارع دون اختيار مسبق تقريبًا، يدفع بها بشكل مباشر نحو ذلك النوع من البغاء، الذي تحاول هنا الترفع عنه من خلال برودتها الرافضة، أما الرجل فيحمل في جعبته كردّ على ذلك نوعًا من الازدراء، الذي يعلمها درسًا حول خطأ ما اشترطته من قيمة تقايض بها نفسها، وحقيقة أنها تفتقر إلى عامل التغيير في ملابسها لا تشكل -مقارنة بما تعترض عليه هي عنده - أي نقص مادي، بل إن هذه مجرد إشارة، مجرد تسعيرة معلقة على قطعة ملابس.

☆ ☆ ☆

"سيف فارس: نادر شاه، من محارب قبلي إلى فاتح مستبد"

نادر شاه هو واحد من الحكام الفرس الذين تركوا بصمات قوية في التاريخ الإيراني خلال القرن الثامن عشر، غير أنه شأنه وشأن كثير من القادة عبر التاريخ عانى من تجاهل المؤرخين وكتاب التاريخ نتيجة لظروف وأسباب متعددة وإن كان أغلبها راجعًا إلى الظروف المحيطة والضاغطة على المؤرخين التي تدفعهم إلى تمجيد هذا القائد أو الحط من قيمة ذاك، بحسب الأحوال السياسية التي يكتب فيها التاريخ.

يعتبر كتاب "سيف فارس: نادر شاه، من محارب قبلي إلى فاتح مستبد"، والذي وضعه مايكل آكسورثي واحدًا من الكتب القليلة التي أعادت لهذا القائد الفارسي مكانه وبين إسهاماته في التاريخ الفارسي، ويكشف الكتاب حقائق مدهشة عن نادر شاه الذي أصبح خلال فترة حكمه الممتدة من 1736 إلى 1747 نموذجًا للطموح الذي لا يعرف الرحمة، والذكاء العسكري منقطع النظير علاوة على الوحشية والريبة، فحفل عصره بصنوف سفك الدماء والخيانات، متنقلًا في حياته من طفل يافع راعٍ، إلى محارب حرر البلاد وأصبح شاهًا على بلاد فارس.

حدائق شاليمار:

يذكر آكسورثي أن نادر شاه قاد الجيش الفارسي إلى دلهي في 20 مارس 1739، فاصطف جنود الفرس على جانبي مسار نادر من حدائق شاليمار خارج المدينة إلى قلعة شاه جاهان المبنية على الحجر الرملي الأحمر، لكن المواطنين قد التزموا منازلهم، وكان في صحبة نادر عشرون ألف فارس، وتقدم الموكب مئة فيل تحمل العديد من الجنود المسلحين المخضرمين. عندما وصل نادر إلى القصر، ترجل من فوق فرسه الرمادي ودخل سيرًا على الأقدام.. وأطلقت المدافع الضخمة المنتشرة حول القلعة نيرانها تحية لنادر، وأحدثت دويًّا رهيبًا حتى أن المدينة "بدت على وشك الانهيار". وقبل ذلك بعشر سنوات في ربيع 1729، كانت فارس تعاني حالة من الانقسام والارتباك والذل، وكان الغزاة الأفغان قد احتلوا العاصمة أصفهان قبل ذلك بست سنوات، وكذلك استولى الأتراك والروس على أغلب المقاطعات الشمالية والغربية.

غير أن المؤلف يبين أنه وخلال عشر سنوات، وفي واحدة من أهم تغيرات المقادير في العصر الحديث، هزم نادر كل أعدائه وجعل من فارس القوة المسيطرة من جبال قوقاز وحتى نهر يامونا، ومنذ بداية تحرك القوات من أصفهان قبل عامين وأربعة أشهر، قطع نادر ورجاله أكثر من 1750 ميل وفتحوا في طريقهم أغلب ما يعرف الآن باسم أفغانستان، ثم يجري المؤلف مقارنة بين نادر وتيمور لنك، موضحًا أن منجزات نادر ربما قد فاقته، وهو الذي قد غزا دلهي قبل ثلاثمئة وأربعين سنة، ورغم أن الكثير من ابتكارات نادر تشير إلى المستقبل ولا ترجع إلى الماضي، فإن

أفكاره كانت كثيرًا ما تحمله على الاحتذاء بتيمور، فقد قرر مثل تيمور أن ينهب ثروات دلهي بدلًا من أن يحاول ضم إمبراطورية الهند.

وكانت دلهي في ذلك الوقت واحدة من أعظم عواصم العالم، وكانت تتلألأ فيها آثار تعود إلى مختلف عصور التاريخ، وكانت تعرف باسم شاه جاهان آباد، وكان تعدادها حوالي 400 ألف نسمة، ومن بين أعظم الإمبراطوريات المسلمة في العالم آنذاك: العثمانية، والفارسية، والمغولية، كان المغول هم الأعظم والأكثر ثراءً ودلهي فخر هذه الإمبراطورية.

راعي الإبل:

يعود المؤلف إلى ولادة ذلك الرجل الذي سيغزو الهند في منطقة برية خطيرة في شمال شرق فارس، ولم يستقر المؤرخون والمهتمون على تاريخ محدد لميلاد نادر شاه، غير أن يوم السادس من أغسطس هو التاريخ المرجّح لذلك.

وكان والد نادر يتمتع بمكانة اجتماعية متواضعة، لكنه حظي بتقدير واحترام بوصفه راعيًا للإبل والأغنام في قبيلة الأفشار، ويقال -أيضًا - إنه كان حاذقًا في صناعة الملابس من فرو الخراف، وكان اسمه الأصلي الإمام قول، أما الأفشار القريقلو الذين ينحدر منهم والد نادر، فهم قبيلة تركمانية شبه بدوية استقرت في خراسان شمال شرق فارس.

ويوضح الكاتب أن نادر نفسه ولد في قرية داستجرد الحصينة التي تقوم على الجانب الشمالي من جبال الله أكبر الواقعة في منطقة "داراجاز" شمال غرب مدينة مشهد عاصمة خراسان، وأسماه أهله عند مولده نادر قولي، ومعناه "عبدالبديع" وهو ما يعكس رغبة تقية من أهله في هبة الوليد لخدمة ربه، وبعد عدة سنوات، حينما عيّن ابن الإمام قولي نفسه شاهًا، قام بتغيير اسمه إلى نادر وربما كان "نادر" مجرد اسم تدليل لذلك الطفل الذي تبدلت على جسمه قدرات غير عادية خلال مراحل نموه، إلى أن ترعرع نادر في وسط محيط متسم بالتناقض الظاهري، كمواطن فارس يتحدث اللغة التركمانية، وعلى دراية بثقافة الحضر في فارس التي كان يفهمها ويجهلها الجميع من إسطنبول إلى سمرقند ودلهي.

خيط العنكبوت:

حياة نادر لم تسر على وتيرة يمكن التنبؤ بها، فإحدى الروايات تقول إن نادر وأمه قد وقعا في الرق على يد الغزاة التركمانيين، وكان نادر لا يزال يعد يافعًا، بينما تروي أخرى أن التركمان استرقوا نادرًا وعددًا من رفاقه، لكنه صلى لله كي يفك أسره فسقطت عنه الأغلال مثل خيط العنكبوت، فحرر أصدقاءه وأخذ غنائم آسريه، وفسرت هذه النسخة كرواية أسطورية لقصة استطاع فيها نادر إقناع خاطفيه بأن يطلقوا سراحه مقابل وعد بأن يتعاون معهم في المستقبل، في بادرة تظهر قوته على تسخير الظروف غير المواتية لمنفعته وصالحه.

وينتقل الكتاب إلى مرحلة محورية في حياة نادر حين استطاع أن يثبت ذاته ويبرز من بين جنود حاكم مدينة أبيورد الواقعة في خراسان، حيث أصبحت مهمته الأساسية ملاحقة الغزاة واستعادة الغنائم التي أخذوها، وحقق انتصارات بلغ صداها أصفهان عاصمة الفرس آنذاك. أعقب ذلك زواجه من ابنة بابا علي التي ولَدَت كثيرًا من الحقد تجاه نادر شاه من قبل قبيلة الأفشار، كما تعمقت كراهية نادر لدى بعض العناصر في شمال خراسان بسبب نزاعاته مع الأكراد.

وفي الوقت الذي وفر له النجاح أتباعًا وموالين، صار غريبًا وعدوًّا لمجموعة من أفراد قبيلته، وهو ما بذر بذور خيانة كبرى حدثت له لاحقًا.

ومع تتابع الأحداث ووفاة بابا علي تولى نادر شاه منصب نائب حاكم إيبورد المعين من قبل السلطان في أصفهان، حسن علي خان. وبمرور الوقت أصبح نادر الشريك المهيمن على الحكم، وبعد ذلك حدث ضعف وتراخٍ في أصفهان عاصمة الحكم الفارسي، وانتشرت الاضطرابات في أنحاء الدولة كان من نتيجتها أن أصبح نادر شاه حاكمًا على إيبورد، وأعقب ذلك سقوط أصغر خان في يد الأفغان وكان هذا إيذانًا بانتهاء نحو قرنين من الحكم الصفوي في بلاد فارس.

حيلة ودهاء:

دبت الفوضى في معظم بلاد فارس، فيما لجأ نادر شاه إلى إحدى هضاب مدينة مشهد وكانت تسمى القلعة، ثم اشتهرت بعده باسم "قلعة نادر"، وامتازت الهضبة بكونها موقعًا مناسبًا للأوضاع الدفاعية وكانت نقطة سيطرة على الأرض على امتداد أميال. فاتخذها نادر معقلًا له لفترة من الزمن في عام 1720 تقريبًا، وكانت القلعة إحدى حصون تيمور التي استولى عليها بعد حصار طويل عام 1382.

وأمّنت القلعة لنادر ميزة حصرية على المنافسين الداخليين في السلطة، وحتى مالك محمود -حاكم أصفهان الجديد - لم يكن في مقدوره أن يفرض هيمنته على الإقليم بفاعلية كاملة، وكان ظهور مالك محمود على الساحة قد مثل فرصة سانحة لخروج بعض رؤساء القبائل عن قبضة نادر، الذي سبق وأن قبلوا على مضض سيادته على أبيورد، فتوسلوا إلى مالك كي يتخلص منه.

ويبين الكاتب أن كلًّا من مالك ونادر مثّلا فرسي رهان تساويا في الحيلة والدهاء، وفي حذر كل منهما من صاحبه، غير أن نادر كان شكليًّا يخضع لسلطة مالك محمود، خاصة أن الأخير لم يتعمد مواجهته، وحين عين حاكمًا جديدًا لأبيورد جعل من نادر نائبًا له، حينها استغل نادر منصبه في تصفية حساباته القديمة وتعزيز سلطاته فأعداء محمود صاروا أعداءه، وصار لزامًا على خصومه قبول سلطته أو القبول بالتصفية الجسدية.

جرائم وخيانات:

بحلول عام 1724 شعر نادر بأنه صار قويًّا بما يكفي لمعارضة مالك محمود، وكان مالك محمود ادعى أنه من نسل ملوك الكايان الأسطوريين في فارس وأحسن استغلال هذا النسب في الدعاية لنفسه، فكان ذلك بمثابة الشرارة التي أججت نيران الصراع بين نادر ومالك محمود، لم يكن نادر ليقبل بهذا الأمر؛ فمتى نجح منافسه في أن يحصل على الاعتراف بنفسه ملكًا، فسيستغنى بذلك عن التحالف مع نادر، ويُروى أن نادرًا فجّر الصراع بقتل الرجل الذي عيّنه مالك محمود حاكمًا لأبيورد.

وطبقًا للرواية الأخيرة، يقول المؤلف: قضى مالك محمود ونادر ذلك الحاكم يومًا في الصيد والتدخين في الريف خارج مشهد. وبحلول المساء قفل مالك محمود عائدًا إلى المدينة، بينما بقي نادر يحادث الحاكم، حتى إذا جاء الغسق، واستعد هذا الأخير للذهاب. امتطى نادر جواده بينما كان الحاكم ممسكًا بعنق حصانه استعدادًا لامتطائه ومع بلوغ قدم الحاكم ركاب الجواد، استل نادر سيفه فجأة وهوي به على رقبة الحاكم، وكان ذلك إيذانًا لرجال نادر بمهاجمة أتباع الحاكم فقتلوا بعضهم وتفرق الباقون منهم، ثم ارتكب نادر كثيرًا من الجرائم والخيانات في طريقه للصعود بعضها أخفاه التاريخ في طياته.

وقد حفرت فعاله أخاديد العداوة بينه وبين بعض الأكراد والأفشار الذين نشأ بينهم.

بعدما أمن نادر أبيورد، شن غارة على مشهد، فواجه قوات مالك محمود، وتغلب عليها ودمر المنطقة حول المدينة، وحين وضع مالك محمود الجيك الملكي وأمر بصك عملات معدنية تحمل اسمه، لم يذهب إليه نادر في مشهد ليقدم له فروض الطاعة في حين قدمها كثيرون غيره ومنهم زعماء قبائل الأكراد المحاربة مثل "تشاميشجازاك"، وهم جيران نادر المقربون في خابشان، وكان لدى نادر حينها قوة كبيرة مؤهلة جيدًا.

اتهام بالخيانة:

تحالف نادر شاه مع أحد أفراد الأسرة الصفوية وهو طهماسب ضد مالك محمود، وكان طهماسب هو الشاه الصفوي المستقبلي الذي أعد العدة لمهاجمة أصفهان مرة أخرى لاستعادة أمجاد الصفويين، وكان هذا اللقاء بينهما لحظة فارقة في تاريخ نادر، فقد تحول من قائد إقليمي إلى شخصية ذات أهمية قومية، ومع وجود نادر مع مستشاري طهماسب تحرك الجيش بسرعة من خابوشان، في الوقت الذي شهد فيه تدفق المتطوعين.

ومع مرور الوقت ازداد نادر قربًا من طهماسب إلى أن أمر الأخير بتعيينه في منصب "كورشي - باشي" (يعادل القائد الأعلى)، ونجح في احتلال مشهد التي كانت تحت سيطرة مالك محمود.

مع نهاية عام 1726 وفي غضون أسابيع معدودة تحول نادر من مجرد أمير حرب إقليمي مغمور إلى باعث الأمل في إحياء القضية الصفوية في فارس، وكان نادر يدرك تمامًا أهمية إظهار الولاء للشاه طهماسب، فظن الشاه الصغير ووزراؤه أن

السيطرة على نادر يسيرة، غير أن نادر خدعهم وأخفى عنهم رغبته في السيطرة، وفي ما بعد تلقى طهماسب وحاشيته درسًا في حقائق السلطة.

وبعد سقوط مشهد في نهاية 1726 تفاقمت الخلافات بين نادر والشاه طهماسب، واتهم نادر بالخيانة، غير أن رد فعله جاء سريعًا فصادر جميع ممتلكات طهماسب ووزرائه في مشهد، ووضعها في يد أخيه إبراهيم خان، وصار هو الحاكم الفعلي لمشهد وأسس بالتعاون مع طهماسب (الذي أجرى معه تسوية) قاعدة للسلطة في مشهد يخططان من خلالها للهجوم على أصفهان واستعادتها.

بيد أن نادر، وفقًا للمؤلف اهتم بتأمين خراسان قبل الشروع في أي حملة سابقة لأوانها لاستعادة العاصمة الصفوية، لكن ذلك -أيضًا - أظهر تباينًا في توجهاته، فأصول نادر التركية التي تعود إلى خراسان جعلته يمل للتطلع شرقًا نحو بخارى، في حين أن كونه من سلالة جنكيز خان جعله يهتم بحكم سمرقند عاصمة تيمور القديمة، فيما بقيت مشهد وخراسان إقليمين مركزيين في عالمه.

الجلد.. تسلية الشاه:

كان الشاه يسافر في صحبة حريم قصره والخصيان في راحلة تشبه الفقاعة تمتد على مسافة ميلين أو أكثر، وكان الضرب المبرح أو الموت عقاب من يسير في الطريق في أثناء مرور القرق (موكب الشاه)، وكانت العادة أن يُنادى على أهل المدن التي سيمر بها الموكب قبل وصوله مطالبًا إياهم بإخلاء جميع المنازل المطلة على الطريق الذي يمر به الشاه وإغلاق بقية المنازل. وكان الخصيان يسيرون على مسافة ميل واحد أو أكثر أمام موكب الشاه وعلى مسافة ميل تقريبًا خلفه شاهرين سيوفهم لفرض نظام القرق، وكان الشاه يُسرّي عن نفسه طوال الرحلة بجلد البغال التي تُقِلّ النساء وبضربها، بحيث تثور البغال وتركل وتُسقط ركابها على الأرض.

القرون الأربعة:

يروي مؤرخ نادر الرسمي أن نادرًا رأى في منامه في ليلة عودة طهماسب، طائرًا مائيًّا كبيرًا، فأطلق عليه النار ببندقيته، فأصابه وأسره، ثم رأى بركة فيها نافورة، ورأى في البركة سمكة كبيرة بيضاء تبرز من رأسها أربعة قرون، فأمر خدمه بالإمساك بها لكنهم لم يتمكنوا، فمد يده بنفسه في الماء، وتمكن من الإمساك بها، وعندما أخبر أصدقاءه في اليوم التالي بما رآه في الحلم قالوا له إن الإمساك بالطيور والأسماك في الحلم تعني أنه سيصير حاكمًا على إمبراطورية، وفسّروا له القرون الأربعة الموجودة على رأس السمكة بأنها بلاد فارس والهند وتركستان وخوارزم.

☆ ☆ ☆

"ناسك الأقحوان"

كتاب "ناسك الأقحوان" عبارة عن مجموعة حكايات شعبية من اليابان، جمعها ريتشاد غوردون سميث ويأتي ضمن سلسلة من الكتب تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة "كلمة"، والتي تسعى أبوظبي من خلالها إلى تجسيد ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

نختار بعضًا من القصص التي وردت في هذا الكتاب، وسنعمل على عرضها كي تنقل لنا صورة حية عن التراث الياباني القديم وما يحتويه من قيم وأفكار، وبدايتنا مع قصة "شبح الثلج".

الشبح الثلجي:

تقول الحكاية "في شمال مقاطعة إشيغو، قبالة جزيرة سادو على بحر اليابان، تتساقط الثلوج بغزارة، وقد يصل ارتفاعها إلى عشرين قدمًا، حتى أن كثرًا دُفِنوا تحت الثلوج ولم يعثر عليهم حتى فصل الربيع. منذ سنوات غير بعيدة، دُفنَت ثلاث سرايا من الجيش تحت الثلوج في أوموري، ولم ينجُ منها سوى ثلاثة أو أربعة جنود، ولم يتمّ العثور عليهم سوى بعد أسابيع، وكانوا كلهم أمواتًا".

من الطبيعي أن تثير الاختفاءات الغامضة مخيلة الأشخاص الذين يميلون إلى التوهّم والخيال، وقد لازمت قصص الأشباح الثلجية سكان الشمال، الذين يقول عنهم سكان الجنوب إنهم يكثرون من تناول الساكي، فيرون الأشجار المكسوّة بالثلوج نساءً، وهذا ما يفسرّ ما رآه مزارعٌ اسمه كيوزايمون.

في قرية هوي المؤلّفة من أحد عشر منزلًا يسكنها الفقر، عاش كيوزايمون فقيرًا تعيسًا وحيدًا بعد أن فقد ابنه وزوجته.

بعد ظهر التاسع عشر من يناير من العام الثالث من عصر تامبو، أي في العام 1833، هبّت عاصفة ثلجيّة مريعة؛ أقفل كيوزايمون الأبواب وجلس في كوخه يستريح. عند الحادية عشرة ليلًا، استيقظ على صوتِ الباب يُطرَق طرقًا غريبًا منتظمًا، جلس في فراشه ينظر إلى الباب غير عارف من قد يكون الطارق، طُرِق الباب ثانيةً وسُمِع صوت فتاة؛ ظنّ كيوزايمون أنها قد تكون ابنة أحد جيرانه بحاجة إلى المساعدة، فنهض من فراشه لكنه عندما وصل إلى الباب، خشي أن يفتحه. طُرِقَ الباب وسُمِعَ صوت الفتاة مجددًا فصاح: "من أنت؟ وماذا تريدين؟".

فأجاب الصوت: "افتح الباب! افتح الباب!".

قال كيوزايمون: "أفتح الباب! كيف لي أن أفعل ذلك وأنا لا أعرف من تكونين وماذا تفعلين في الخارج في هذا الوقت المتأخر وفي ليلة عاصفة كهذه؟".

أجاب الصوت: "يجب أن تدعني أدخل. كيف لي أن أكمل طريقي، والثلج يغطّي الأرض وما زال يتساقط؟ أنا لا أطلب منك الطعام، لا أطلب سوى ملجأ لي".

قال كيوزايمون: "آسف، لا فسحة لديّ؛ لذا يستحيل أن أدخلك منزلي".

أجاب الصوت: "لا أريد مرقدًا، لا أريد سوى ملجأ". فقال كيوزايمون: "لا يمكنني إدخالك في كلّ الأحوال فذلك مناف للشرائع والأخلاق".

قال كيوزايمون كلمته، وأحكم إقفال الباب، ولم يجرؤ حتى على النظر من خلال مصراعي الباب ليرى من كان الزائر. استدار للعودة إلى فراشه، وارتعب لرؤية طيف امرأة متَّشحة بالبياض، وشعرها منسدلٌ على ظهرها.

ودار حوار بين المرأة الشبح وكيوزايمون نخلص منه إلى أنها جاءت تخبره بأنها روح زوجة إيزابورو الذي يقطن إحدى القرى المجاورة وسبق وأن ماتت في عاصفة ثلجية وما لبث زوجها أن أهمل والدها العجوز وتخلى عنه لتفعل به صروف الدهر ما تشاء وبعد هذه المحادثة مع المرأة الشبح خلد كيوزايمون إلى النوم وصبيحة اليوم الثاني ذهب لقرية فوجد كلًّا كيوزايمون وإيزابورو أن المرأة الشبح غادرت بطيفها منزل الأول وظهرت للثاني، بعد نصف ساعة من منتصف الليل، وبقيت معه حتى وعدها بالعودة إلى منزل والدها ومساعدته في شيخوخته.

هذه قصّتي عن الأشباح الثلجية، فكلّ من مات من البرد والثلج تحوّل شبحًا ثلجيًّا يظهر عندما تتساقط الثلوج.

وحتى اليوم ما زال الكهنة في الشمال يصلّون من أجل راحة نفوس الأموات جراء العواصف الثلجية، ومن أجل ألا تطارد أشباحهم أقرباءهم.

أما ثاني القصص التي نتناولها فهي حكاية "شجرة الكرز المربعة."

شجرة الكرز:

في العصور القديمة، وقبل وصول التحول الأوربي السيئ الذكر إلى اليابان، عاش في كاساماتسو، في ناكاساتاني، قرب شيشيكواي موراشينجي غان، مقاطعة هيتاشي، عجوز إقطاعي حاد الطباع اسمه أوداساييمون. كانت قلعته على هضبة مكسوة بشجر الصنوبر، وتبعد ثلاثة أميال عما يعرف بمحطة كاميتاشي على شبكة حديد نيبون، وقد اشتهر ساييمون بشجاعته كجندي، ولعبه الرديء في لعبة الغو ومزاجه السيئ وفظاظته حين يخسر.

وقد حاول أقرب أصدقائه التابعين له تصحيح طباعه بعد خسارته في اللعبة، ولكنه لم يتوصل إلى نتيجة. كل من يفوز أمامه في اللعبة، يضربه على وجهه بمذرات حديدية ثقيلة مثل التي يحملها المحاربون القدماء، وكان يغضب لدرجة أنه يمكن أن يستل سيفه ويقطع رأس صديقه المفضل إذا تدخّل في هذه المواقف، وأكثر ما كان يخيف المحاربين الشجعان، هو أن يدعوهم سيدهم لمنازلته في لعبة الغو. وأخيرًا، قرروا في ما بينهم، تجنب أن يقتلوا على يديه بعد أن يهزموه، وفضلوا أن يدعوه يفوز، لم يشكل الأمر فرقًا حيث إن لا رهان ماليًّا على اللعبة، ولكن تراجعت طريقة ساييمون في اللعب أكثر فأكثر؛ لأنه لم يتعلم شيئًا، ومع ذلك، وبسبب غروره، ظل يظن أنه أفضل من الجميع.

يوم الدمى:

وفي الثالث من مارس، استضاف أتباعه على مأدبة عشاء، على شرف ابنته الصغيرة الآنسة شييو. يوم الثالث من مارس، هو يوم الدمى، عندما تعرض الفتيات كل ألعابهن، ويجول الناس عادة من منزل إلى آخر للتفرّج عليها، أما المالكات الصغيرات فيقدمن شراب الساكي الأبيض الحلو في فنجان اللعبة. كان ساييمون يختار هذا اليوم للولائم، ويعتبره مديحًا لابنته، فكان يقدم شراب الساكي الأبيض الحلو بعد الطعام، لشربه في صحة دمى ابنته، بدلًا من صحة رجاله، الأمر الذي كان يعجب المدعوين أكثر. وكان ساييمون بحد ذاته يكره شراب الساكي الحلو. لذا، وبعد انتهاء الوليمة، نادى سايتو أوكون، وهو أحد أقدم محاربيه وأكثرهم وفاءً، ليلعب معه لعبة الغو، تاركًا باقي المدعوين يشربون الساكي. لقد تغلغل الفضول في نفس أوكون، فهو لم يلعب قط مقابل سيده من قبل، وكان مسرورًا جدًّا لأن الاختيار وقع عليه، لقد قرر الموت الليلة بعد أن يعلم سيده درسًا لن ينساه.

في غرفة مزينة بترف، وضعت رقعة اللعب، بالإضافة إلى علبتين تحتوي كل منهما على المحاربين، وهم عبارة عن أحجار باللونين الأبيض والأسود. عادة، يستلم الأحجار البيضاء اللاعب الأول في حين يستلم اللاعب الثانوي الأحجار السوداء، ومن دون اعتذار أو تفسير، أخذ أوكون العلبة التي تحوي على الأحجار البيضاء، وبدأ بصفها على اللوحة، وكأنه بلا شك اللاعب الأول.

بدأ مزاج ساييمون بالتعكر، ولكنه لم يظهر ذلك، لقد لعب مباريات كثيرة في لعبة الغو مع أتباعه الذين تركوه يفوز، وكان واثقًا من أنه سيفوز مجددًا، وسيكون على أوكون -أيضًا - الاعتذار لاختياره الأحجار البيضاء.

انتهت اللعبة بفوز أوكون.

قال ساييمون: "عليّ اللعب مرة أخرى، لقد لعبت بلا مبالاة، سأريك كيف أستطيع هزيمتك عندما أحاول ذلك".

ومرة أخرى هُزم ساييمون. ولكن هذه المرة، لم يسيطر على أعصابه، إذ احمرّ وجهه، وتطاير الشرر من عينيه، وبصوت صارخ مليء بالغضب، طالب خوض مباراة ثالثة.

وهذه -أيضًا - فاز بها أوكون. لا يمكن التكهن بمدى غيظ ساييمون. أمسك بمذراته الحديدية، وكان سيضرب أوكون بقوة على وجهه، ولكن أمسك به منافسه بمعصمه وقال: "يا سيدي، ما هي أفكارك حول اللعبة؟ إذ تبدو فكرتك عنها مثيرة للفضول! اللاعب الأفضل هو الذي يفوز، في حين أن اللاعب الثانوي يخسر. إن فشلت في الفوز عليّ في لعبة الغو، فهذا يعني أنك اللاعب الثانوي. هل هكذا تتقبل جلالتك الهزيمة على يد محارب، تمامًا كما تعلمنا؟ تقبل نصيحة مني، أنا تابعك الوفي، ولا تدع الغضب يسيطر عليك، فهذا لا يناسب شخصًا في مثل مكانتك". وبنظرة مليئة بالتأنيب موجهة إلى ساييمون، انحنى أوكون ولامس الأرض.

صرخ ساييمون: "أيها السافل الوقح! كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة؟ لا تتحرك! ابق في مكانك، ورأسك منحنٍ، حتى أستطيع قطعه".

أجاب أوكون: إن سيفك لقتل أعدائك لا أتباعك وأصدقائك. أغمد سيفك يا مولاي، أنت لست بحاجة إلى قتلي لأنني قد ضحيت بنفسي لأعطيك النصيحة السابقة، وحماية الباقين. انظر إلى هنا يا سيدي!". وخلع أوكون ملابسه وكشف عن جرح كبير على معدته.

وقف ساييمون لبرهة مذهولًا، وتوجه أوكون إليه بالحديث مجددًا قائلًا إن عليه السيطرة على غضبه، كما عليه معاملة الأشخاص بطريقة أفضل.

وفاة أوكون:

لدى سماعه النصيحة للمرة الثانية، استشاط غضبًا. استلّ سيفه، وتوجه مسرعًا إلى أوكون وقال صارخًا: "لن أسمح لنفسي بأخذ نصيحة، حتى من روحك الميتة! وتوجه بالضربة على رأس أوكون. لم يصبه، بل شطر لوحة اللعبة إلى قسمين بدلًا من ذلك. وبعد أن لاحظ أن أوكون يلفظ أنفاسه الأخيرة، انحنى إلى جانبه وقال: "أنا آسف كثيرًا لرؤيتك تموت أيها الوفي أوكون! بخسارتك سأخسر أقدم أتباعي وأكثرهم وفاءً، لقد خدمتني بوفاء مطلق وحاربت ببسالة في كل معاركي. سامحني أرجوك! سأخذ بنصيحتك. لا بدَّ من أنها إشارة من الآلهة بأنهم غير راضين عن تصرفي، عندما جعلوني أخفق في إصابة رأسك بسيفي، وإصابة لوحة لعبة الغو بدلًا منه". ارتاح أوكون لرؤية سيده نادمًا أخيرًا. وقال له: "لن أنسى، حتى في الممات، العلاقة بين السيد والخادم، وسترافقك روحي وتسهر على راحتك طيلة أيام حياتك".

ولفظ أوكون أنفاسه الأخيرة، تأثر سايمون بوفاء أوكون، فأمر بدفنه في حديقته الخاصة، ودفن معه لوحة لعبة الغو المكسورة، ومنذ ذلك الحين تغير أسلوب سايمون كليًّا، فأصبح طيبًا مع كل أتباعه، وصار الشعب سعيدًا.

وبعد عدة أشهر من وفاة أوكون، نبتت من قبره شجرة كرز، وفي غضون ثلاث سنوات، نمت الشجرة وأزهرت بشكل رائع.

وفي الثالث من شهر مارس، وفي الذكرى الثالثة لوفاة أوكون، تفاجأ ساييمون برؤية الشجرة مزهرة فجأة. كان ينظر إليها، ويفكر في إروائها بنفسه، كما يفعل عادة في هذا اليوم، عندما رأى وجهًا باهتًا على جذع الشجرة، فقال "أنا أعرفك، أنت روح الوفي أوكون". اختفى الوجه. توجه ساييمون إلى الشجرة لريّ الجذور، عندما لاحظ تحول أقسام من جذع الشجرة إلى شكل وحجم مربعات لوحة لعبة الغو! تأثر كثيرًا، واستمر ظهور شبح أوكون في الثالث من مارس لسنوات، وحتى وفاة ساييمون. بني سياج حول هذه الشجرة، واعتبر المكان مقدسًا، ويقال إن هذا المكان يستحق الزيارة إلى يومنا هذا.

سيف ناتوري نوهوتو:

ومن القصص أيضًا قصة "سيف ناتوري نوهوتو" التي تروي أن إدي كاموتسو كان تابعًا لسيد مدينة ناكورا في كيشو، وهو ينحدر من سلالة من المحاربين الشجعان، وقد تميّز هو في معركة في شيزوغاتاكي التي اتخذت اسمها من جبل في مقاطعة أومي. حارب هيديوشي العظيم وانتصر على شيباتا كاتسوي في المكان نفسه في العام الحادي عشر من عصر تانشو الذي بدأ في العام 1573 وامتدّ حتى العام 1592، ما يجعل المعركة في السنة 1584.

كان أجداد إدي كاموتسو رجالًا أوفياء، وقد ذاع صيت واحد منهم دون غيره من المحاربين، فقد قطع رأس زهاء ثمانية وأربعين رجلًا بسيف واحد، ومع مرور الوقت، انتقل سيفه إلى إدي كاموتسو الذي احتفظ به على أنه أثمن كنوز العائلة. كان كاموتسو ما زال شابًّا عندما ماتت زوجته تاركة له ابنًا اسمه فوجيواكا. شعر كاموتسو بالوحدة القاتلة بعد موت زوجته، فما كان منه إلا أن تزوّج فتاةً اسمها ساداكو، ولدت له ابنًا أسمياه غورو، بعد مرور اثنتي عشرة أو أربع عشرة سنة، مات كاموتسو تاركًا ابنيه في عهدة ساداكو، وكان فوجيواكا في التاسعة عشرة من عمره في ذلك الحين.

كانت ساداكو تحسد فوجيواكا لكونه الابن البكر وبالتالي وريث أملاك كاموتسو، فحاولت بشتى الوسائل أن تنقل الوراثة إلى ابنها غورو.

في هذا الوقت، جمع غرامٌ سريٌ بين فوجيواكا وفتاة جميلة اسمها تاي، وهي ابنة إيوازا شيرو، وصارا يلتقيان سرًّا ليبوحا بما يخالجهما من عواطف حتى أنهما تبادلا نذور الزواج سرًّا.

اكتشفت ساداكو الأمر وتحجّجت به لطرد فوجيواكا من المنزل وحرمانه من حقوقه من أملاك العائلة.

كانت في البيت مربيّة مخلصةٌ اسمها ماتسوي، اهتمت بتربية فوجيواكا منذ طفولته، وقد حزنت بشدة من الظلم الذي أصاب فوجيواكا، فقررت أن تسرق الصيف من

ساداكو بعد آن استولت عليه من أجل أن تعيده إلى مالكه الأصلي فوجيواكا، إلا أن ساداكو اكتشفت الأمر فحبستها ومنعت عنها طعام الشراب حتى ماتت وفي الليلة التي مات فيها، كانت ساداكو جالسةً في زاوية بعيدة من الحديقة بحثًا عن بعض النسيم المنعش في تلك الليلة الحارة.

بعد أن مرّ زهاء نصف ساعة على جلوس ساداكو في تلك الزاوية، تراءى لها فجأة طيف امرأة نحيلة منسدلة الشعر. ظهر الطيف من وراء عمود قنديل حجري، واتّجه نحو ساداكو ونظر وأخذ يحملق بها.

تعرّفت ساداكو على الفور إلى ماتسوي وراحت توبّخها على مغادرتها سجنها.

كانت تصرخ وتقول: "عودي إلى سجنك أيتها السارقة، فعقابك لم ينتهِ بعد. كيف تجرؤين على مغادرة سجنك ومواجهتي".

لم ينبس الطيف ببنت شفة، بل توجّه إلى المكان الذي طُمِر فيه السيف وحمله.

كانتس إداكو تراقب ما يجري، وقد كانت شديدة الشجاعة حتى أنها أسرعت إلى ماتسوي تحاول أخذ السيف منها، إلا أنه سرعان ما اختفى طيف ماتسوي مع السيف.

هرعت ساداكو إلى الغرفة حيث كانت ماتسوي مسجونة وفتحت الباب بقوّة لتجد ماتسوي ميتة، ومن الواضح أنه مرّ على وفاتها يومان أو ثلاثة وقد هزل جسمها ونحل.

علمت ساداكو أن ما رأته كان طيف الآنسة ماتسوي فراحت تتمتم نامو أميدا بوتسو، نامو أميدا بوتسو وهي كلمات صلاة بوذية لطلب الحماية والرحمة.

بعد أن طُرِدَ إدي فوجيواكا من منزله، تشرّد في أماكن عدّة متسولًا طعامه. في النهاية حصل على عمل متواضع، وتمكّن من العيش في غرفة صغيرة في معبد أوماماشي أزاكوزا.

في منتصف إحدى الليالي، استيقظ فوجيواكا ووجد طيف مربّيته الهزيلة واقفًا عند سريره حاملًا في يديه السيف الثمين، وهو أثمن ما في الميراث، وكان السيف مغلَّفا بقماش قرمزي وذهبي كهده دائمًا، فتقدّم طيف الآنسة ماتسوي ووضعه باحترام عند قدمي فوجيواكا.

قال فوجيواكا: "مربّيتي العزيزة، كم يسرّني...". وقبل أن ينهي كلامه اختفى الطيف.

السيف العجيب:

كانت في البيت مربِّية مخلصةٌ اسمها ماتسوي، اهتمت بتربية فوجيواكا منذ طفولته، وقد حزنت بشدة من الظلم الذي أصاب فوجيواكا لكنها لم تفكر بفقدانه المال أو الأملاك بل انصب همّها كلّه على فقدانه السيف، ذلك

السيف العجيب الذي يعود للابن المنبوذ، وانشغل بالها ليل نهار وهي تفكر بطريقة تعيد فيها السيف إلى فوجيواكا. بعد أيام عديدة وجدت الحلّ، وقرّرت أن تسرق السيف من المذبح (وهو عبارة عن صندوق خشبي داخل الضريح، يحمل اسم الجد المتوفى، ويمثّل روحه).

ذات يوم، كانت السيدة ساداكو والآخرون خارج المنزل، فسرقت ماتسوي السيف، لكنه كان من الواضح أنها لن تتمكن من تسليم السيف إلى مالكه الحقيقي إلا بعد مرور بضعة أشهر، وذلك لأن خبرًا لم يسمع عن فوجيواكا منذ أن طردته زوجة والده من المنزل. خشيت المخلصة ماتسوي أن تتهم بالسرقة، فحفرت حفرة في الحديقة بالقرب من الدفيئة (وهي غرفة صغيرة تبنى في حديقة اليابانيين الأغنياء ليُقدّم فيها الشاي) وطمرت فيها السيف إلى حين تتمكن من إعطائه فوجيواكا.

في اليوم التالي، توجّهت ساداكو إلى المذبح ولم تجد السيف، فما كان منها إلا أن اتهمت الآنسة ماتسوي بسرقة السيف كونها الخادمة الوحيدة في المنزل. نفت ماتسوي التهمة الموجّهة إليها، فبرأيها أن ما فعلته هو ضرب من العدالة، إلا أنه لم يكن من السهل إقناع ساداكو، فأمرت هذه الأخيرة باحتجاز ماتسوي في غرفة خارجية ومنعت وصول الأرز أو الماء إليها حتى تعترف. لم يكن مسموحًا لأحد بالاقتراب من مكان ماتسوي ما عدا ساداكو نفسها التي تحتفظ بالمفتاح، وكانت تزورها مرةً كل أربعة أو خمسة أيام.

☆ ☆ ☆

"الأخبار من باراجواي"

يعتبر كتاب "الأخبار من باراجواي" بمثابة إطلالة على تاريخ أمريكا الجنوبية عبر رواية بالغة الإثارة للكاتبة ليلى توك التي قضت فترة صباها هناك، وجمعت تنوعًا من المعلومات التاريخية، وتمكنت من صياغتها في حبكة قصصية شائقة تجمع بين الدراما والكوميديا السوداء.

تركز رواية "الأخبار من باراجواي" للكاتبة ليلى توك بالدرجة الأولى على شخصية الديكتاتور فرانكو سولانو لوبيز الذي خلف والده في حكم باراجواي، ثم تتطور الحبكة حول عشيقته الأيرلندية الشقراء إيلا لاينش التي قد يماثل موقعها ونفوذها في الرواية إيفا براون في الأرجنتين، والخط الأساسي الذي ترتكز عليه الرواية هو مذكرات إيلا ورسائلها إلى صديقتها الدوقة الفرنسية، وما تضمنته هذه الرسائل من أوصاف لفترة مكوثها في باراجواي وللحوادث التي شهدتها إيلا.

والرواية بصفة عامة تندرج ضمن جنس الرواية التاريخية، حيث تستند إلى أحداث ووقائع تاريخية مدونة، ونجحت الكاتبة في خلط الوقائع التاريخية بأحداث الرواية من خلال حبكة روائية عالية الإتقان، أكدها الطريقة التي استقبلت بها الرواية في الأوساط الأدبية المختلفة.

سفير متجول:

وتبدأ أحداث الرواية في باريس عام 1854 التي تصفها إيلا عبر مذكراتها بالقول: "كانت طرق العربات تعج بعربات الكاليس ذات الغطاء القابل للطي، ومركبات الفيتون الخفيفة ذات الأربع عجلات، في كل عشية، في باريس المهووسة بتقليعات الأزياء، وإذا سمحت الأحوال الجوية، يمكن رؤية الإمبراطورة أوجين مرتدية ثوبًا من طراز مختلف وبألوان مختلفة، الأخضر القرمزي، وأزرق سيناستوبل، وبني بسماركي، لقد تحولت البوادو بولون أخيرًا من غابة مُدمرة إلى حديقة إنجليزية أنيقة".

في هذه الأجواء تصف لاينش قدوم معشوقها فرانكو من باراجواي إلى باريس مرسلًا من طرف والده كسفير متجول في أوربا، وقالت عنه: "كان يرتدي بذلة فيلد مارشال شبيهة ببذلة نابليون، سوى أن لونها كان أخضر أرجوانيًّا، كان قصير القامة، مملوءًا لم يبلغ حد البدانة، وكان بسيطًا واثق النفس، طموحًا عالي الحيوية، مدللًا، لم يُمنع مطلقًا عن أي شيء طلبه، وأذهل المجتمع الفرنسي، وأثرّ فيهم بثقافته، فقد قرأ "العقد الاجتماعي" لجان جاك روسو، وبإمكانه النقاش حول مسألة الفرق بين القانون "الطبيعي" والقانون "الوضعي"، وكان بإمكانه النقاش حول التصوير الفوتوغرافي، والأفضل من ذلك كله أنه كان راقصًا بارعًا رشيقًا".

أما إيلا لاينش نفسها، فقد كانت غادرت أيرلندا في سنينها العشر وتزوجت من ضابط في الجيش الفرنسي لتطلق منه وهي في التاسعة عشرة، وعاشت في ذلك الحين مع كونت روسي وسيم المحيا لكنه يعاني الإفلاس، وكانت المرة الأولى التي التقى فيها فرانكو بـ"إيلا" في أحد الممرات الخاصة بجياد الركوب، حين كان يخب بحصانه على بعد خطوات خلف إيلا ورفيقها، وهناك رآها وجذبته إليها بما هي عليه من براعة في امتطاء الخيل، قد لا تتناسب كثيرًا مع بشرتها البيضاء وشعرها الأشقر المسترسل، واقتفى أثرها إلى حيث تسكن وبعث إلى بيتها بإحدى العباءات الفاخرة التي كان أحضرها معه من باراجواي، وأرفقها ببطاقة تعريف منه.

عندما رأى فرانكو إيلا مرة أخرى كانت مرتدية عباءة من الحرير الأزرق بلون عينيها، قد فصّل فستانها ليكشف بياض بشرتها التي تكاد تكون شفافة، كانت تستند على ذراع أحد الشبان ضمن مجموعة يضحكون ويتبادلون الأحاديث، وفي كل مرة تسكت فيها إيلا عن الكلام، تخرج طرف لسانها الصغير وتبلل شفتيها، وكان ذلك في حفل استقبال في قصر التوليري في باريس، حينها كان فرانكو منشغلًا بالتحديق في إيلا، حتى أنه كاد يضيع فرصة اللقاء بنابليون الثالث التي انتظرها طويلًا.

أحلام مشتركة:

تستشعر إيلا اهتمام فرانكو بها، فتخاطب نفسها بعد انتهاء الحفل: "هل أتخيل ذلك أم أن الرجل يلاحقني بالفعل: فأنا أراه في كل مكان، في متحف اللوفر، في البوا دو بولون، وفي التوليري". وبعد ذلك تتناول الرواية كيفية نشوء العلاقة بين فرانكو وإيلا، وبفضل هذه العلاقة تحللت من الديون المتراكمة عليها ولم تعد تفكر كثيرًا في احتياجاتها المادية التي طالما عجزت عن التعامل معها وصارت تشارك فرانكو أحلامه حول بلده باراجواي حين كان يقول لها: "بعد عودتي لوطني سأعمل على جعلها بلدًا تماثل فرنسا، سأشيد دارًا للأوبرا، ومكتبة، ومسرحًا، وجادات عريضة بشوارع مرصوفة، وحدائق بها أشجار باسقة، وبالإضافة إلى ذلك سأجعل من باراجواي البلد الأكثر أهمية وقوة وسيكون لها شأن في أمريكا الجنوبية بأسرها".

تعرج المؤلفة إلى وصف رحلة إيلا مع فرانكو لدى عودته على متن سفينته الخاصة، والتي تبلغ حمولتها 500 طن، وحملها فرانكو كل الأشياء التي جمعها بالإضافة إلى مقتنيات إيلا، ومنها المهرة الشهباء التي كانت سببًا في التعارف بينهما، حرص على شرائها ثم إهدائها إلى إيلا، وكانت الرحلة متجهة في البداية إلى بوينس إيرس، حيث أقامت لعدة أشهر هناك قبل أن تلحق بفرانكو في أسنثيون. حيث أراد لها فرانكو البقاء في أحد فنادق بوينس آيرس إلى أن تضع طفلهما، ويقوم بإعلام أسرته عن إيلا لاينش قبل وصولها إلى باراجواي.

ثم تصف إيلا بوينس أيرس نفسها، قائلة: "كانت ملأى بعديد من المسارح ودار للأوبرا، وبها متحف للتاريخ الطبيعي ومكتبة عامة وعدد من النوادي، كان النادي الشعبي التقدمي يوفر لأعضائه غرفة للمطالبة وطاولة للعب البلياردو وصالة نقاش تُعلق فيها أخبار التجارة لكل يوم على لوح أردوازي".

أما أفضل ما تحتويه بالنسبة إلى إيلا، فهو حفل شهري يُعد الأكثر روعة في كل أمريكا الجنوبية، وهذه المدينة التي شيدت بنظام واتساق، تحوي العديد من الحدائق ومناطق النزهة العامة وبلازا فيكتوريا وهو أكبر الميادين وأكثرها أناقة، فقد احتفل فيه بذكرى الثورة واستقلال جنوب أمريكا بتشييد مسلة نقش عليها 25 مايو 1810.

تحدثت لاينش عبر مذكراتها عن انشغالها في أعماق المجتمع داخل بوينس أيرس إلى حين سفرها إلى أسنثيون.

حرب باراجواي:

تقول لاينش: "أحاول أن أشغل نفسي بشيء ما في العشيات فإما أتوجه إلى ميدان فيكتوريا، أو أزور المعالم في صحبة خادمتي، وكوّنت صلات مع العديد من العائلات المحلية التي كانت ودودة ومضيافة تجاهي، حيث أمضيت العديد من الأماسي المبهجة في بيوتها".

وبعد أن وضعت إيلا طفلها خوان فرانسيسكو، ركبت باخرة أمريكية والتحقت بفرانكو في أسنثيون وعلى ظهرها التقت بزوجة المبعوث الأمريكي لباراجواي التي كانت هي الأخرى تنوي الالتحاق بزوجها للمرة الأولى هناك.

ولدى وصولها إلى حيث يقيم فرانكو تدور محاورات عديدة بين لاينش وفرانكو من خلالها يتم التعرف على الأحوال السياسية السائدة التي كانت في تلك الأيام، وعبر أحداث الرواية، تحدثت المؤلفة عن دور لاشيا في حياة فرانكو، كما تتناول استيلاء فرانكو على الحكم بعد وفاة والده، ومسؤوليته عن حرب باراجواي، التي تعرف بحرب الائتلاف الثلاثي، حيث تحالفت فيها البرازيل والأرجنتين والأوروغواي، ودُمرت فيها باراجواي عمليًّا، فبعد سيطرة فرانكو على الحكم دعم ركائز سلطته بمساعدة الجيش، ولم يظهر فرانكو أي تفهم يذكر لحاجة بلده للبقاء محايدًا في النزاعات بين عملاقي أمريكا الجنوبية البرازيل والأرجنتين.

التحالف الثلاثي:

سمح فرانكو لنفسه بأن ينجرّ في نزاعات حدودية مع البلدين ويصبح متورطًا في حرب أهلية مشتعلة في باراجواي تشارك فيها كل من البرازيل والأرجنتين، حيث أراد أن يحتل دور المحكم ليحتل مركز الصدارة في سياسات أمريكا الجنوبية، لكن نتيجة لتشابكات سياسية معقدة وجد فرانكو نفسه متورطًا في حرب مع البرازيل، وخرق فرانكو رغبة الأرجنتين في أن تظل على الحياد عندما طالب بحقه في نشر قواته في مقاطعة كورينتس الأرجنتينية وبالتالي حرض على قيام التحالف الثلاثي ضده في مايو من العام 1865.

ومن خلال هذه المذكرات وما تضمنته رسائل لاينش إلى صديقتها الدوقة الفرنسية عمدت مؤلفة الرواية على نقل كل تفاصيل الحياة داخل أمريكا الجنوبية في نهايات القرن التاسع عشر وهو ما نجحت فيه الكاتبة إلى حد بعيد، ما حدا بوضع مؤلفها

ضمن أهم المؤلفات التي ترجمت إلى العربية وتناولت هذا الجزء من العالم الذي لم نعرف عنه سوى من خلال كبار الروائيين هناك مثل ماريو فارغاس للوسا، وجابرييل غارسيا ماركيز،

☆ ☆ ☆

"أيرلندا الأم"

تسعى إدنا أوبراين عبر كتابها "أيرلندا الأم" إلى إبراز العادات والتقاليد المحلية والمعرفة المكتسبة لمسقط رأسها أيرلندا، فتحاول من خلال عيني فتاة صغيرة رصد سلوكيات ذلك المجتمع المغلق، وسرد زواياه وعيوبه بقلب محب وبعتاب العاشق لأرض وطنه.

على الرغم من خروج إدنا أوبراين من وطنها الأم قسرًا بسبب آرائها غير التقليدية في مجتمع مغلق، كما وصفته، فإن ذلك لم ينل من اعتزازها به، ومحبتها له ولتاريخه وأساطيره، وهو ما تشير إليه عدة مقالات احتوتها دفتا كتاب "أيرلندا الأم"، قامت جميعًا على تجربة ذاتية لمؤلفة استطاعت وببراعة متناهية، وفي شكل من أشكال الوفاء أن تعبر عن عشقها لهذا الوطن.

وتقول أوبراين في بداية الكتاب: "البلدان هي أمهات أو آباء وهي تثير في الجسم قشعريرة الانفعال العاطفي المخصص سرًّا لكلا المخلوقين المبجلين، ولطالما مثلت أيرلندا امرأة رحمًا، كهفًا، بقرة، أنثى خنزير، عروسًا... في الأصل كانت أرض الغابات والأدغال كما شاهدها أورفيوس عندما نصح بقيام جيسون برحلته. من خلال غلالة من الضباب، ويعتقد أنها تعرضت للغزو منذ انتهاء العصر الجليدي وسمح المناخ للأيائل بالاحتشاد في الغابات الكثيفة".

فيضان نوح:

من العصر الجليدي تنتقل المؤلفة إلى فترة تاريخية أحدث، فتتحدث عن أيرلندا خلال الأيام التي واكبت فيضان النبي نوح، قائلة: "عندما سمعت امرأة عبرانية، وكانت سيدة محترمة اسمها قيصرية نسيبة نوح، نبوءة قريبها حول حدوث فيضان شامل. قررت أن تفتش عن ملجأ في أرض أجنبية، علّها تعثر على بلد غير مأهول، وبالتالي غير ملوث بالإثم، وانطلقت مع مجموعة مؤلفة من ثلاثة رجال وخمسين امرأة بحرًا تمخر البحر الأحمر، مارين بمعابد الفلسطينيين، ومتخذين من أعمدة هرقل "مضيق جبل طارق" منارات يستضيئون بها، وتجاوزوا ساحل إسبانيا ومنها إلى أيرلندا".

ومن هنا كانت تلك المرأة "قيصرية" ومن صحبها هم أول شعب يطأ تلك الأرض، وكانوا أول سلسلة من الأرواح الأيرلندية الجسور.

خرافات وأساطير:

تضيف أوبراين أنه بعد تلك الحقبة بنحو 300 عام، احتل أيرلندا أتباع الملك بارثولان، من سلسلة أبناء يافث الذين وصلوها عبر البحر المتوسط، والمحيط

الأطلنطي، حيث وصلوا إلى كنمير في غرب منستر، ويعتقد أنهم نشروا فنون الأدب والتجارة والزراعة.

وبعد عملية استعراض طويلة لتاريخ أيرلندا تمتزج فيها الخرافات والأساطير بالحقائق، تعرّج أوبراين على الحديث عن أيرلندا في العصر الحديث، والفترة التي صاحبت مولدها، فتقول عن البلدة التي نشأت فيها، ومثلت مسقط رأسها: "لقد ولدت ونشأت في بلدة تقع على حدود بلدات أخرى توازيها بعدم تميزها، إنها أرض خصبة جدًّا، بعض الحقول محروثة وغالبيتها مزروعة بطاطا، البطاطا تبذر مرتين في العام، والنتيجة أوراق خضراء نضرة، كريش الطاووس إلى أن تهطل الأمطار وتزيل كبريت النحاس، وخلال فصل الصيف يرى المرء من أي نافذة رصيف، تحميل السفن وزهرة الشيخ مزدهرة، شامخة، وآلة زراعية صدئة غارقة وسط الأعشاب وأحيانًا ثعلبًا يشق طريقه بسعة نحو خمّ الدجاج. وكانت هناك خممة دافئة، لطيفة وخنزيرة وثور مسيطر يثير رعب الجميع في حقل أو فناء مزرعة جُلبت إليه الأبقار البنية الكارهة التي في الجوار كلها".

ساكنو الأكواخ:

تستعرض أوبراين الحياة بكل مفرداتها داخل تلك البلدة، عبر حديثها التالي: "يومان أو ثلاثة في العام، كانت تعتبر أحداثًا كبرى، وليس كثير منها كان يمر دون مطر أو نبأ عن جنازة. ودرس الحنطة كان حدثًا ويخرج ساكنو الأكواخ إلى الفناء مع حميرهم وعرباتهم لكي يحضروا التبن من أجل إعداد الحشية، وتبن الحيوانات؛ بينما أكياس الذرة المدروسة حديثًا تربط وتكدس معًا استعدادًا لإرسالها بسيارة النقل إلى المطحنة وكسب النقود".

وتضيف: "كان على العمال أن يتناولوا ثلاث وجبات دسمة بغض النظر عن نوع الحصاد، وغالبًا ما كان الشعير ممزوجًا بماء المطر بالإضافة إلى وجبات خفيفة كالشاي مع رغيف من الخبز. وكان الناس يتعاونون، وقد أرسل والدي اثنين من رجاله إلى المعلم ميك من أجل إنقاذ التبن وعندما وجدا المعلم يمرح بصخب، رفعا قيمة الفاتورة، وكذا فعل اللحامون وصاحب الحانة، واستسلما لقيلولة بعد الظهيرة في شاحنات التبن بكسل واستمتاع إلى درجة أن المعلم ميك قال مشيرًا نحو الاتجاه التقريبي لفندق كيلسايد: من الأرخص إرسالهما هناك".

مشهد ليلي:

في موقع آخر من الكتاب تنجح الكاتبة في تصوير مشهد ليلي لقريتها يتلمس منه القارئ مدى براعتها في نقل أدق التفاصيل وهو ما ينم عن شغفها الجم بكل ما يتعلق بمسقط رأسها واعتزازها الذي فاق الحدود، فترسم أوبراين ذلك بتلك الكلمات: "ليلًا تبدأ التسالي ويتحول المكان إلى قبلة تضم أشياء شتى متعددة الألوان، من ضوء ومصابيح جميلة تومض وكافة أنواع التسالي التي تخطر على البال كالسيارات

المتصادمة التي يركبها الناس وتصطدم وتطلق شررًا من زميلاتها وأعدائها، وكانت هناك -أيضًا - قوارب مترنحة، وقطار صغير مملوء بالصارخين يقومون بجولة دورانية لكي يحصلوا على الإثارة".

وتضيف المؤلفة: "تتعجب عندما تسمع رجلًا يأكل شفرات الحلاقة دون أن يتأذى لسانه أو حنجرته، وتخلص في دخيلتك إلى أنه مخلوق عجيب وليس مركبًا مثل بيري التي ابتلعت ساعة يدها الصغيرة، واضطرت إلى شرب زيت سيارات".

وأسهبت أوبراين في وصف مشهد الليل الأيرلندي بقولها، إن الذين كانوا يتاجرون بالأساور ومناديل المائدة وأواني المهرجان الزجاجية كانوا باعة جوّالين، أو غجرًا مزيفين يتنقلون بسرعة في عرباتهم الصغيرة من بلدة لأخرى يسوطون الأحصنة إذا ما تباطأت.

الرقص الإيقاعي:

من ليل البلدة التي نشأت فيها الكاتبة إلى نهارها، وحيث دروس الرقص الإيقاعي في أيام الخميس لتلميذات المدرسة التي كانت تتلقى فيها تعليمها، إلى ذلك تقول أوبراين: "جاءت سيدة لتعلمنا الرقص الإيقاعي وحاولت أن تعرفنا لغز الإيقاعات الراقصة، ولما لم تكن هناك موسيقى مرافقة طلبت منا أن ندندن اللحن، وكانت ربلتا ساقيها متينتين وجميلتين، وترتدي جوارب قاتمة اللون وتنتعل حذاءً بشريط جميل يصل حتى مشط القدم، وكانت كلفة الدرس بنسًا واحدًا. عدد قليل من الفتيات قبلن التعلم بينما جلست الأخريات على مقاعدهن بالدرس، يعدن قراءة كل شيء عن معركة كينسل أو وصفًا لصباح يوم منعش في نيو إنجلاند".

وتضيف أوبراين: "كان ذلك يفوق إمكاناتنا لذا سُررت وإن كنت شعرت بالحرج لجلوسي جانبًا وعجزي عن المشاركة.

وفي أعماق قلبي كنت ممتنة إلى أقصى مدى، معتقدة في الوقت نفسه أن الرقص يزعج الجسد، ويمكن عند وصوله إلى مرحلة متطرفة أن يدفع بالسوائل كلها والدماء والأحشاء نحو الخارج. كانت معلمة الرقص عاشقة وكان ذلك حال عدد كبير مثلها، كان الحب هو علاج كل شيء، لقد كان يصنع المعجزات".

المدينة الجميلة:

عبر كثير من الحكايات التي ترد في صفحات الكتاب تنتقل المؤلفة إلى محطات مختلفة داخل المجتمع الأيرلندي وصولًا إلى العاصمة دبلن، والتي تعتبرها أوبراين "درة" مدن أيرلندا، واصفة إياها بالـ"المدينة الجميلة" ذات المباهج التي لا حصر لها، مشيرة إلى أن ذروة الأسبوع في دبلن كانت تتألف من الذهاب إلى دار سينما معينة يجري فيها عرض مسرحي قبل الفيلم، وهناك توجد كل الأشياء التي تصبو إليها، وكان ذلك يحدث في فترة العصر.

أما في النصف الثاني من النهار، وفقًا لأوبراين، فإنها كانت تذهب وحدها إلى تلك الوليمة السرية، حيث الأضواء فضية أو فضية مغزولة بالذهب، والفرقة الموسيقية التي تعزف ألحانًا عذبة وقائدها الذي يرتدي سوادًا مهيبًا وعلى خشبة المسرح تلك المخلوقات هشة مفعمة بغموض لا يمكن بلوغه.

وفي نهاية الكتاب تتحدث المؤلفة عن مغادرتها القسرية لأيرلندا فتقول: "إنني أعيش خارج أيرلندا لأن شيئًا فيّ يحذرني من أنني قد أتوقف إذا عشت هناك، أني قد أكف عن الشعور بمعنى أن أحمل مثل هذا الإرث، قد أزداد هدوءًا في حين أني في الواقع أريد من جديد ولأسباب غير محددة أن أقتفي أثر ذلك الدرب نفسه، درب الطفولة الواضح المعالم ذاك، على أمل أن أعثر على حل اللغز الذي يمكن أن يجعل من الممكن إنجاز القفزة التي تعيد المرء إلى مكانه ووعيه الأصليين، إلى البراءة الأصلية للحظة السابقة للمولد".

باستيل أوربا:

في سجن كيليمناهم أو "باستيل أوربا" رحب الحرس بنا ترحيبًا شديدًا ومطولًا، قائلين إنه لكي نستحسنه ينبغي ألا ننظر إليه كركام من الحجارة، بل كرمز وكتذكار للقسوة التي مورست على بلدنا الصغير على أيدي عدو غريب، والزوار الذين يأتون لمشاهدته يتضمنون بعضًا من أعدائنا الغرباء، والأمريكيين، والسكان المحليين الذين يمكن تمييزهم فورًا لأنهم يتجمعون معًا. الغرف باردة، مبلطة بالحصى ومملطة، وتحمل أسماء أشهر نزلائها.

☆ ☆ ☆

(تم الكتاب بحمد الله)

يأخذنا العمل إلى رحلة وسط آلاف الصفحات من الكتب المترجمة.. والكتاب يتضمن المقالات التي نشرها المؤلف في جريدة «الاتحاد»، ويسعى إلى تقديم هذا الجهد في صورة مقدمة معرفية، تسمح بمطالعة حزمة من أروع الإبداعات البشرية التي بلغ أصحابها شأواً عظيماً في مختلف العلوم والمجالات المعرفية، عبر تلخيص هذه الكنوز وعرضها على القارئ في إطار يسير."

الرحلة تسير بنا من السياسة للاقتصاد للتاريخ للفكر والفلسفة.. فالدراسات والعلوم وبين ثقافات الشعوب..

فهيا بنا مع الكاتب يا رفاق.. نجوب صحراء العالم بحثًا عن الابداع البشري..

في واحة الكتب..

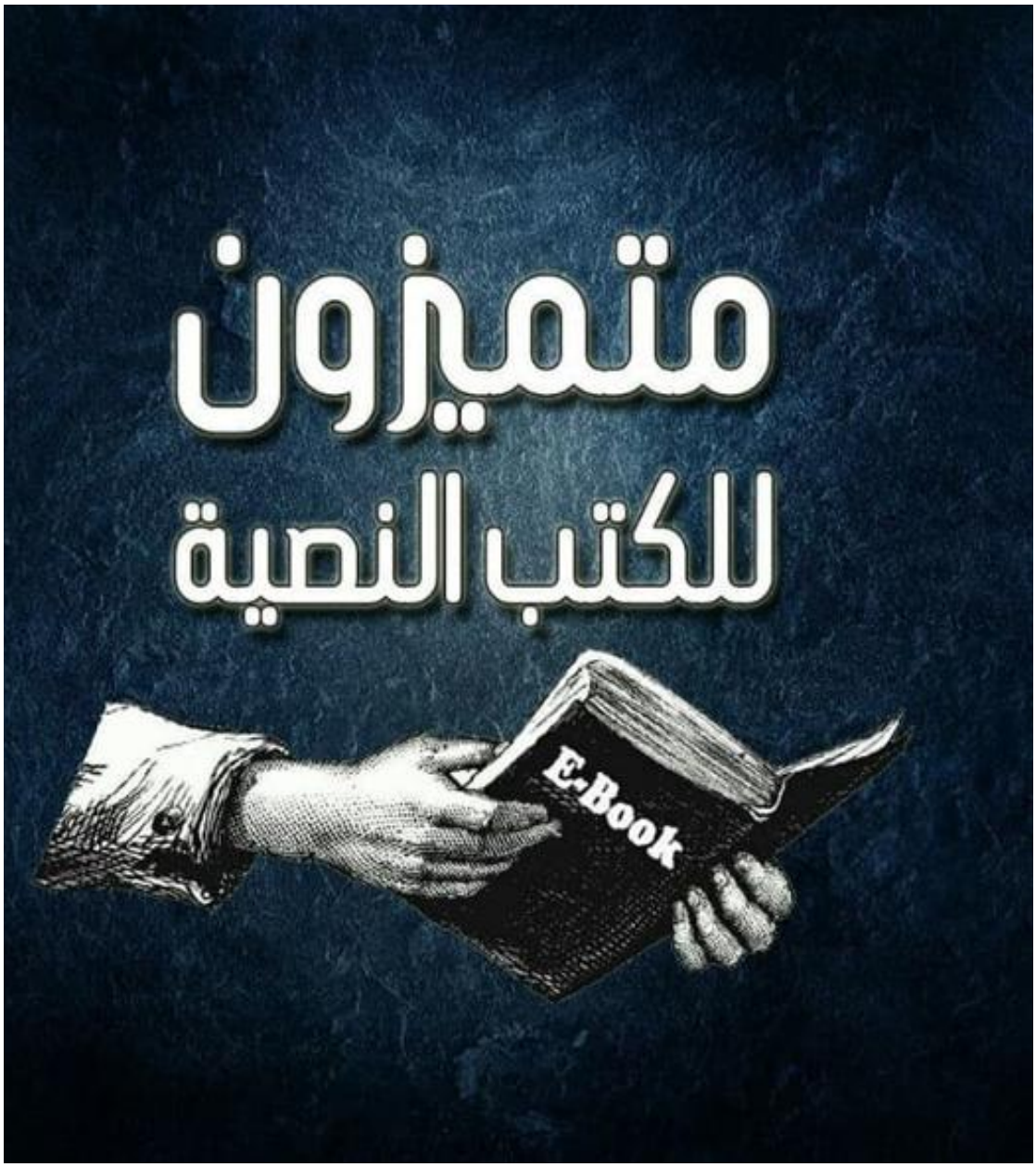

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

الجزء الأول

مقدمة..

سياسة

"أحلام من أبي: قصة عرق وإرث"

خليط بائس:

مفردات الحياة:

قاعدة شعبية:

عوالم كثيرة:

"تشريح الثورة"

شهر العسل:

المرحلة الثالثة: مرحلة الأزمة، وخصائصها:

مرحلة الخلاص:

الثورة والتغيير:

تجرد العالم:

أعراض متنوعة:

هدوء يسبق العاصفة:

الصحافة الصفراء:

"الأمريكيون الجوامح"

حرية مفرطة:

نزاعات رهيبة:

علاج الشرور:

حكومة وطنية:

معايير القوة:

لغة الجسد:

"مزرعتك" و"مزرعتنا":

"اللقاء المعقد بين الغرب المتعدد والإسلام المتنوع"

انزلاق ومواجهة:

تحولات مشتركة:

اللقاء الصاخب:

مسار مأساوي:

مواضيع خلافية:

اقتصاد

"الصين في إفريقيا شريك أم منافس؟"

تآكل الموارد:

عقود الإذلال:

مبيعات السلاح:

أعاجيب الصين:

مخاوف غربية:

أجندة تحويلية:

جذب النخب:

"المخبر الاقتصادي"

ألغاز ورموز:

قوة الندرة:

صحفيون صامتون:

التجارة العادلة:

استراتيجيات الأسعار:

الهوس الإلكتروني:

معرفة الأسباب:

"الجذور العربية للرأسمالية الأوربية"

عاصمة جديدة:

تاريخ

" الصراع على سيادة أوربا: 1818 – 1918"

توازن القوى:

مواطن الخلل:

صعود وهبوط:

تغيير مدهش:

التحكم بالعالم:

تقزيم أوربا:

المسألة الإيطالية:

مكان تحت الشمس:

"المسلمون في التاريخ الأمريكي: إرث منسي"

قطع متناثرة:

طقس كنسي:

اعتناق الإسلام:

مسلمو الأندلس:

أوهام العبودية:

الحقيقة الكبرى:

التمسك بالدين:

في ظلال النسيان:

جدول متدفق:

"النظم البريدية في العالم الإسلامي قبل العصر الحديث"

تقارير سرية:

العصر الأخميني:

إشارات نارية:

تطور البريد:

نكبة البرامكة:

نصائح بريدية:

بين الدعابة والتخويف:

"تاريخ تركيا المعاصر"

عقال الحرية:
النخبة العسكرية:
نتيجة مؤلمة:
تساقط الرؤوس:
عقد الأزمات:
صراعات متعددة:
فكر وفلسفة
"الفلسفة ببساطة"
قضية العلل:
التفكير السببي:
العقل والجسم:
الحتمية والحرية:
الغايات والفضائل:
"ألوان شيطانية ومقدسة"
عين الريبة:
فان جوخ:
ألوان صارخة:
قدرات إلهية:
محاربة الشيطان:
الصبّاغ السيئ:
اختراع الألوان:
سر الشعر الأصفر:
ستائر دنيوية:
"النقد البيئوي"
البشر والبيئة:
منهج واضح:
أفكار نيّرة:

الوحوش البرية:

علم التنبؤ المتعمق:

"المدونة الكبرى: الكتاب المقدس والأدب"

التجريد والتمثيل:

الشكل الرابع:

متوالية لفظية:

الأدب الدنيوي:

المجازات اللغوية:

أطوار الوحي:

دراسات وعلوم

"الاضطراب المناخي"

سيناريوهات بشعة:

الاحتباس الحراري. الأعاصير؟ الاحتباس الحراري.

نتيجة محتملة:

مثال واقعي:

الاحتباس والأعاصير:

البشرية والاحتباس الحراري:

ارتفاع زائف:

حقائق حول ثاني أكسيد الكربون:

"الخمسون سنة المقبلة"

مخلوقات ذكية:

الرئيسات الأول:

مخ الخنزير والجولف:

عواقب أخلاقية:

جينات السعادة:

عالم جديد:

الكون العظيم:

إنترنت في المخ!
"مستقبل الماء: وجيز في العولمة"
ناتج مركب:
أنهار مزاجية:
مناجم شرهة:
الماء و الذهب:
الماء الجديد:
فيضانات متوحشة:
أشكال الغضب:
انعدام المساواة:
"في الجلال"
ثمن الإخلاص:
نهاية مأساوية:
فن الشعر :
محاكاة القدامى:
الموهبة و الفن:
مكانة أدبية:
"التغيير داخل المدارس"
البيئة المدرسية:
التحسن المستمر :
تأملات جوان:
تطبيق عملي:
تعريف الواقع:
تيسير التغيير :
"أريده"
تعريف المادية:
الإعلام و الإعلان:

عدوى المادية:
قوة المحاكاة:
المقارنة و الوحدة:
"رحلة في بلاد القطن"
جنود الإسكندر:
عولمة مبكرة:
ماء قليل:
فوائد جمّة:
وقود يومي:
حاضرة القطن:
مساوئ الخصخصة:
ادّعاء المنافسة:
بذور مجاعات:
عاصمة القطن:
القطن أو الإعدام:
ثقافات الشعوب
"رحلة إلى جنوب سيبريا"
بحيرة بايكال:
صرع عالمي:
الأعراس البوراتية:
النار المركزية:
قربان الحصان:
الآلهة التسعون:
الرجال الستة عشر:
الماعز الأبيض و الأسود:
طقوس الموتى:
"في فضاء الأدب الألماني"

التربية السوداء:
مبدأ اللذة:
إساءة تقدير:
"كافكا" درة الأدب:
فتاة ورجل:
"سيف فارس: نادر شاه، من محارب قبلي إلى فاتح مستبد"
حدائق شاليمار:
راعي الإبل:
خيط العنكبوت:
حيلة ودهاء:
جرائم وخيانات:
اتهام بالخيانة:
الجلد.. تسلية الشاه:
القرون الأربعة:
"ناسك الأقحوان"
الشيخ الثلجي:
شجرة الكرز:
يوم الدمى:
وفاة أوكون:
سيف ناتوري نو هوتو:
السيف العجيب:
"الأخبار من باراجواي"
سفير متجول:
أحلام مشتركة:
حرب باراجواي:
التحالف الثلاثي:
"أيرلندا الأم"

فيضان نوح:
خرافات وأساطير:
ساكنو الأكواخ:
مشهد ليلي:
الرقص الإيقاعي:
المدينة الجميلة:
باستيل أوربا:
فهرس المحتويات: